روائع الأدب العالمي 53

الابن الضال

تأليف الكاتب الفرنسي

هنري بوردو



الابن الضال

الابن الضال

تأليف
هنري بوردو

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت
تلفون : 674 803 1 961 00 فاكس : 223 790 1 961 00
E-mail : darbachir@terra.net.lb

القسم الأول

١- حصاد الكروم

من قمَّة التل الصغير ارتفع صوتُ السيد "**فرانسوا روكفيار**" يخاطبُ حاصدات العنب اللاتي انتشرنَ على طول الطريق المنحدر، يخففن الكروم من أثقال عناقيدها السوداء:

– لقد أقبل الليل، فهيًّا إلى جولة أخيرة.

قالها صاحب الضَّيْعة في صوت رقيق– ولكنه آمر– بعث النشاطَ في الأيدي، وحنَى من جديد ظهور العاملات المتباطئات فإذا بهن قد أقبلن على العمل.. ثم أضاف السيد في لَهْجة مرحة:

– إنهن في الصباح أكثر خِفَّة ورشَاقة من العصافير، فإذا أقبلَ العصر تحولن إلى ثَـرْثَـارات!

واستَثارتْ هذه الملاحظة ضحكاتهن جميعا فأجبن في صوت واحد:

– أجل، أيها السيد المحامي.

لم يكن صاحب مزرعة "**البرج**" يُخَاطَب من فلاّحيه إلا بهذا اللقب، وكانت المزرعة ضيعة جميلة، تتألّف من قطعة واحدة عبارة عن غابات وحقول وكروم، تقع في أقصى مقاطعة "**كونيان**"، على مسافة ثلاثة أو أربعة كيلو مترات من مدينة "**شامبيري**"، ويمكن الوصول إليها بالسير في طريق زراعي وعبور قنطرة قديمة قائمة على نهر "**ألايير**" ذي المياه المنخفضة، وهي تطل على الطريق المؤدي إلى مدينة "**ليون**"، الذي كان فيما مضى يربط مقاطعة الـ "**سافوا**" بالأقاليم الفرنسية المجاورة، عبر صخور "**إيشيل**" المنحوتة. وقد أطلق عليها اسم مزرعة "**البرج**" نسبة إلى برج قديم كان يتوج قمَّة تلك الصخور، ولم يبقَ منه الآن أيُّ أثر. وتملّك المزرعة منذ قرون عديدة أسرة "**روكفيار**" التي دأبتْ على توسيع رُقْعتها شيئا فشيئا، كما يدل على ذلك المنزل الريفي المقام فيها، وسائر المباني التي تتكون من وحدات وحجرات غير مُتَجانسة، وإن كانت "مُعبِّرة" كوجه الشيخ الذي تتلخص في تجاعيده حياة بأكملها.. فهنا يتمثَّل ماضي أسرة عريقة، وفيِّة لأرض الآباء والأجداد.

وقد كان آل "**روكفيار**" جميعا– أب عن جد– من رجال القانون. فكان منهم نُقَباءُ للمحامين، وقضاةٌ، ورؤساء لمجلس الشيوخ الإقليمي القديم.. كما كان منهم مستشار في محكمة الاستئناف الجديدة بلغ به تعلقه بموطنه، وحرصه على أن يموت في مسقط رأسه حَدًا جعله يرفُضُ كل ترقية.. ومن هنا درجَ أهل البلدة على اعتبار أسلاف "**روكفيار**" جميعا– بلا تفرقة– من المحامين، مستمدين من تسميتهم هذه معنى الحماية! وقد زاد من جدارة المالك الحالي للضيعة– السيد "**فرانسوا روكفيار**"– بهذه التسمية أنه مارس مهنة المحاماة زهاء أربعين

عاما، اكتسبَ خلالها إلماما دقيقا بالقانون، ولسانا ذَربا بليغا في الدفاع!

وكانت كروم العنب متراصّة في صفوف منتظمة، تجعل مهمة الإشراف على الحصاد سهلة، وكان اللون الذي اصطبغت به أوراق الكروم ينبئ بحلول شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وفوق التلال بدتْ الأرض أقوى ضياء في مواجهة السماء الشاحبة. ومن خلال الأغصان الوضاءة كانت عناقيدُ العنب القائمة تَسْتَرعي الالتفات، وكانت حاصداتُ العنب وهن يُسرعْن الخُطَى- وقد شهرن في أيديهن السكاكين المخضبة بعصير العناقيد- يشْبهنَ الكَهَنة الذين يعالجون الذبائح بضربة قاضية مفاجئة! فإذا ما هوتْ العناقيد تحت ضرباتهن ألقينَ بها في السلال. وكن جميعا يرفعنَ ملابسهن ويثبتْنَها إلى الخلف لتسهُل عليهن الحركة فوق تلك الأرض الرخوة، وقد عصبْنَ رؤوسهن بمناديل تقيهن حرارة الشمس. وبين وقت وآخر، كانت الواحدة منهن تَنْصبُ قامتها فتبرز فوق مستوى الكروم، كالسمكة التي تقفز فوق سطح الماء لتتنفس قليلا ثم تغوص في جوف الماء من جديد، وكانت بينهن عجائز مُقَوَّسَات الظهور، مُجَعَّدات الوجوه، بطيئاتُ الحركة يابساتُ الأجسام، ومع ذلك فقد كن يتمتعنَ بقدرة على التحمل، وبيقظة واعية لكل ما كان يدور حولهن؛ حرصا منهن على الاحتفاظ بآخر فرصة لهن في العمل بعد أن لم يعُدْ يستخدمهن أحد.

كما ضمَّتْ صفوفُ الحاصدات فتيات في نحو العشرين أكثرَ انتصاباً في القامة وخفةً في الحركة من الأخريات، وقد عرضن- بلا خوف- وجوههن وسواعدهن عَارية لوَهَج الشمس الذي راح يَلْثُم بشرتهن، وكانت هناك- إلى جانبهن- صبايا لم يكتمل نُمُوهن بعد؛ فهن أقل جلدا على العمل، يَقفزْن من مكان إلى مكان، فَيُحْدثْن اضطرابا في الصفوف، أو يَجْلسْن في دعة وهدوء وقد غَمَرتْهن غبطة التلميذات الصغيرات في الأقسام الداخلية من المدارس، حين يُسمَح لهن بالخروج في يوم العطلة المدرسية، وقد انثنتْ أعْطافهن انثناءة أغصان الكروم الرخصة في أيديهن!

وأخيرا كان هناك صبيةٌ صغار سرحتْهم أمهاتهم من البيوت ليستَرحْنَ من شغبهم وضوضائهم، فجاءوا إلى الحقل يعيثون فيه فسادا، ويحصدونَ العنب ولكن لحسابهم الخاص! فكانوا ياكلون ما يحصدون، ويُلَطِّخون به شفاههم وخدودهم كسكارى ماجنين.. ولكن قبل الأوان!

وفي الطريق الذي يَتَوَسَّط المزرعةَ وقفتْ عربة شُدَّ إليها ثوران كبيران أشْقَران، كلاهما له قرنان انتصبا على شكل قيثارة.. وكانت هذه العربة تنتظر- في صبر- ساعةَ إطلاقها إلى المعصرة، بعد أن حملها الزُرّاع بما يفوقُ طاقتها من أكْدَاس العنب.. ولم يكن هؤلاء الزُرّاع يغْرقون في الضحك كالفتيات، وإنما اكتفوا بتبادل بعض العبارات والإيضاحات المختصرة، وكان الصِّغار منهم يضعون على رؤوسهم قَلَنْسُوات بيضاء ويرتدون ثيابا من التيل لا تعوقُ حركاتهم، على نَسَق زيّ صيادي جبال الألْب- الذي انتشر بين فتيان إقليم "**السافوا**" بدافع

المحاكاة– وبعد أن أنفذ القوم عصا خشبية صلبة في أذني الوعاء الطافح بالعنب حتى حافته تعاونوا جميعا على رفعه إلى أكتافهم، وساروا به في خُطَى خفيفة مُتَّزنة، حتى رفعوه فوق العربة التي وقف على سطحها شيخ مُسن ذو لحية بيضاء، أخذ يضْغَطُ بيديه القويتين العنب الذي أفعم به الوعاء. وبين آونة وأخرى كان يَنْصُب قامته، فتبدو يداهُ في شكل يبعث على التقزُّز، وقد تخضَّبَتَا بعصير العناقيد.

وفي مواجهة مزرعة "**البرج**". كانتْ أطيافُ المساء قد بدأتْ تغزو تلال "**فيمين**" و"**سان سوبليس**" القريبة من سلسلة جبال "**ليبين**" التي كانت تستقبلُ الشمسَ الغاربة.. بينما بدا– إلى أسفل– وادي "**سان تيبو دوكو**"، ووادي "**إيشيل**" المتعرجان، وأغرقَ ضياء الغروب الكَرْمَ بأصباغ من الأرجُوَان والذهب؛ فكشف حاصدات العنب في صفوفهن المتراصة، وأحاط بهالاته رُؤُوسَهن المتَّشحَةَ بالمناديل، وراح يتراقَصُ على قرون الثيران، وأضْرم "النار" في لحية "خولي الضيعة" الغَبْراء ووجهه الأحمر، وهو واقف فوق العربة.. كما أضاءَ وجْهَ السيد "**روكفيار**" الذي بدا ممتلئا بالحيوية تحت حافة قبعته، وإلى أعلى، انْعكَس الضياء على بُرْج "**مونتاينول**" الشَّامخ ليرتمي آخر الأمر– في جُرأَة– متوِّجا صخرة "**مونت جرانييه**" ذات الشهرة الخُرَافية القديمة.

وكانت العاملاتُ قد تجمَّعْن حول بعض الكروم الباقية يقطفْنَ عناقيدها الأخيرة، ولم يكد الوعاء الأخير يُرفَع إلى العربة حتى صاح الشيخ المسن "**جيريمي**" من فوقها متهللا:

– ها نحن قد انتهينا أخيرا يا سيدي المحامي.

فسأله السيد:

– كم بلَغَ عددُ العربات؟

– اثنتا عشرة.

فقال:

– إنها سنة طيبة.

وأردف، وقد بدأتْ الثيران سيرها تتبعها جموع العاملات:

– فلأمض أنا بدَوْري!

وبلغتْ العاملات قمةَ التل وهن يحملن سلاَلَهن في أَذْرعهن وسَكَاكينَهن أو منَاجلهُن في أيديهن.. وهناك، أحطْنَ بالسيد "**روكفيار**" الذي غَرَسَ عصاه الحديدية في الأرض، وأخرج من جيبه كيسا صغيرا تناول منه قطعا من النقود النحاسية والفضية.. فكفَّتْ من كانت تَتكلَّم منهن، ولُذْن جميعا بالصمت.. كانت لحْظَة لها رَهْبة خاصة: لحظة تَوْزيع الأجور!

وخلفَ الجمْع الحاشد كانت ألواحٌ من الزجاج وأسطح من الإردواز تعكس– كالمرايا– آخر وَمْضَات الشمس الغاربة.. وأخذ صاحبُ الضيعة يُنادي كلَّ عاملة باسمها المجرد في غير كلفة.. فقد اعتاد رُؤْيَة المسنات منهن طوال حياته، كما عرف الأخريات منذ حداثتهن،

وأقبلنَ جميعا يتسلمْنَ أجر يومهن مشفوعا بكلمة رقيقة منه وكُنَّ.. يُجبْنَه عليها بقولهن:

– شكراً يا سيدي المحامي..

أما إذا صادف عاملة منهن أظهرت كَسَلاً أثناء العمل فإنه كان يَخُصُّها بكلمة توبيخ، تُخَفِّف من وَقْعها لهجته الرقيقة؛ كي يُظْهِرَ لها أن عين السيد يَقظَةٌ لا تَغْفَل.. ومع أن الأطفال كانوا يتقاضُون أجرَهم عَيْناً– من العنب– فإنه لم يبخَلْ عليهم أيضا ببضعة دراهم تُدْخِلُ السرور على قلوبهم.

✽✽✽✽✽

وقال السيد "**روكفيار**" مداعبا أثناء انهماكه في دفع الأجور:

– فَلْتَلْزم اللاتي قبضْنَ أجورهن ناحيةَ اليسار حتى لا يختلط عليَّ الأمر فأكرِّرُ الدفع إلى ما لا نهاية!

فأجابتْهُ فتاةُ حسناء في نحو الثامنة عشرة أو العشرين:

– لا ضَيْر في ذلك على أية حال!

ولم تكن تلك الفتاة تُغَطِّي رأسها كزميلاتها، وكأنما كانت تَتَحدَّى بشبابها حرارة الشمس.. وقد تدلَّتْ على جبينها خصلات من شعرها الأشعث، ونَمَّتْ سمَاتُ وجهها على أنها من طبقة العامة.. غير أنها كانت موفورة الصحة، ذَاتَ فم بالغ الاتساع، وعينين حادتين، وبشرة ذهبية في لون حبات العنب البيضاء الممتلئة التي صيرتها الحرارة شقراء، والتي بدتْ كما لو كانت مُفْعَمة بإكسير الشمس.

وحدَجَها السيد "**روكفيار**" بنظرة فاحصة، ثم قال لها:

– لكم تَرعْرعْت بسرعة يا "**كاترين**"! فمتى تتزوجين؟

فَأُرتجَ القولُ على الفتاة إزاء هذه المفاجأة العلنية. ثم لم تلبثْ أن أجابت وقد احمرَّ وجهها سرورا:

– هذه مسْألةٌ تحتاجُ إلى تفكير!

فضحك السيد وأردف يقول:

– إنك ترُوقين للعين على كل حال يا "**كاترين**".

ونَفحَها بقطعة من النقود شَفَعها بهذه النصيحة في لهجة حازمة:

– كُوني عاقلة أيتُها الصغيرة فإن الفضيلة أهمُّ من الجمال!

فأمَّنتْ على قوله بغير إبطاء:

– هذا صَحيحٌ يا سيدي المحامي.

وبعد أن فرغ السيد "**روكفيار**" من عملية دفع الأجور، نظر إلى الجميع متسائلا:

– أمسرُوراتٌ أنتن جميعا؟

وإذا بعشرين صوتا تجيبه معا بكلمات الشكر.

وهنا أشار طفلٌ بأصبعه إلى امرأة عجوز انتحَتْ مكانا قَصِيًا في خجل وانكسار، وقال:

– ها هي ذي السيدةُ "**فوشوا**"!

ولم يأبه أحدٌ لإشارة الطفل، وكان العجُوز لم تُؤدِّ عملا تستحق عليه أي أجر.. بينما استأنَفَ السيد "**روكفيار**" حديثه إلى العاملات قائلا بصوته اللطيف:

– والآن أسعدَ الله مسَاءكُنّ. سوف تصلن إلى "**سان- كاسان**" و"**فيمين**" قبل هبوط الظلام.

فرَددْنَ عليه قائلات:

– أسعد الله مَسَاءكَ أيها السيد المحامي.

ووقف السيد "**روكفيار**" في مكانه يرقب حاصدات العنب وهنّ يَبْتعدْن، وقد أخذت ظلالُهُن تتضاءل– أمام الشمس الغاربة– حتى تلاشتْ تماما بينما ظلت أصواتُهن تتصاعد إليه من أسفل التل.. ثم انقَسمْن إلى فريقين: فريق اتجه إلى "**فيمين**"، والآخر إلى "**سان- كاسان**"، وراح هذا الفريق الثاني يُردِّد الأناشيد والأغاني الريفية الشائعة.. وكانت الشمسُ المحتضرة قد لامستْ الجبل في تلك الأثناء.

أما المرأة العجوز– السيدة "**فوشوا**"– فقد ظلتْ واقفة إلى جانب السيد لا تتحرك أو تطالب بشيء، فناداها باسمها قائلا:

– "**بييريت**"!

وإذ ذاك مالَتْ برأسها إلى الأمام؛ فبدا وجهها وقد ارتسمت عليه دلائل الألم والقلق أكثر مما ارتسمتْ عليه تجاعيد الشيخوخة، وتَمتمتْ تقول:

– سيد "**فرانسوا**".

فأجابها:

– هاك مائة درهم، خذيها واذهبي لتناول الحساء في المنزل.

فنظرتْ العجوز إلى الدراهم البيضاء في يدها الخشنة، وقالت:

– لكن هذا أجْر ثلاثة أيام، وليس لي سوى أجر يوم واحد.!

– لا بأسَ. خذيها! وما حال ابنتك؟!

– لقد سافَرتْ إلى "**ليون**".

– وهل وجَدتْ عملا هناك؟

فتركت العجوز ذراعيها تسقطان إلى جانبيها، ولم تُحرِ جوابا.. فعاد السيدُ يقول:

– لكنها يجب أن تعمل.

– إنها لا تستطيعُ العثورَ على عمل منذ قُضي عليها.. بأنها لصة!

فأجابَ المحامي محاولا أن يلْتمسَ للابنة عُذْرا مُخفِّفا:

– إنها قد ارتكبتْ فعلتَها بدافع الطيش والاستهتار والغرور.. إنها ليسَتْ شريرة بطبعها، وفي مثل سنها يمكن إصلاحها. ولكن من أي مورد تَعيشُ الآن؟

– من أي مَوْرد تُريدُها أن تعيشَ؟ من الرجَال الضَّالِّين!

– وكيف عرفت ذلك؟

– لقد أرسلتُ إليها في الأيام الأولى من محنتها حوالة بريدية بمبلغ صغير لمساعدتها ولكنها رَدَّتْها إليَّ مُرفَقَةً بحوالة أخرى بمبلغ كبير.. فما كانَ مني إلا أن أحرقتها!

– ماذا أحرقْت؟

– أحرقتُ المال الذي جاء ثمرَة العار يا سيدي "**فرانسوا**"!

وهنا انتَصَبتْ قامة الفلاحة العجوز من الغضب، ورفعت يدها إلى السماء مُهَدّدة– كما لو كانت تتهم القدر– واستطردت تقول:

– لستُ أعرفُ كيف أنجبتْ هذه الابنة.. لم يكن في أسرتنا سوى أناس شرفاء، أما الآن فإن الخزي يَغمُرني!

– لكنها ليستْ غَلْطتك يا "**بييريت**"!

فهزت المرأة رأسها، وأجابت في لهجة التوكيد:

– إنها غَلْطةُ الأسرة دائما! وأنت أول من يعرف ذلك جيدا؛ لأنك أنت الذي قُلْتَ هذا!

فقاطعها متسائلا في دهشة:

– أنا؟

فقالت:

– أجل. أنتَ. قُلتَه لها أمامي قبل صدور الحكم عليها. فلقد كان القلقُ يُسَاورني من ناحيتها؛ فجئت بها إليك ذات يوم..

– أذكرُ ذلك.. وماذا قلتُ لها؟

– لقد قُلْت لها: إنه إذا أُتيحَتْ للإنسان فرصةُ الانتماء إلى أسرة شريفة، فعليه أن يصون هذه النعمة باحترام كرامة الأسرة؛ إذ جرَتْ العادة في الأسر على أن يَتَقاسَمَ جميع أفرادها الخيْرَ والشر.. وثمارَ الخلق الطيب، وتبعات الخلق المعوج!

– ولكن أحدا لا يستطيع إلقاءَ تبعة تصرفات ابْنتك على عاتقك.

– ولكن الناس يُحمّلونَني التَّبِعَة برغم ذلك.. ولهم العذر؛ فقد شاءَ القدر أن يموتَ زوجي وهي مازالتْ صغيرة.

– لو كان زوجُك حيا لدافعَ عنها!

– بل قُل لدَقّ عنقها!

– وأنت. هل مازلْتِ تُحبِّينها؟

– إنها ابْنتي!

– خَفِّفي عنك يا "**بييريت**"، ولا تَستَسْلمي لليأس؛ فإن الأمل لا يَضيعُ طالما ظلّ الإنسان على قيد الحياة. هيا عُودي إلى المنزل فإني ذاهبٌ إلى المعصرة؛ لأرى إن كانت الدنان قد وصلت سالمة!

– شكرا يا سيدي "**فرانسوا**".

*****

وكانت المرأةُ قد اعتادتْ القيامَ ببعض الأعمال في مزرعة "**البرج**" كغسيل الملابس، وحَصْد العنب، والعمل في المطبخ في غياب الطّاهي. ولم يبادر السيد "**روكفيار**" إلى الانصراف بعد ذهابها، بل راح– بنظرات المحب الواله– يتأمّلُ الأرض المنبسطة تحت قدميه.. ويَرْمُق الكروم وقد جُرِّدَتْ من عناقيدها التي كان يجد في عصيرها فتْنَة الأرجُوان والذهب.. ويرقب المروج والمراعي التي حصدتْ مرتين.. وذلك المجرى الصغير المجهول الاسم الذي كان يفصل بين مقاطعتي "**كونيان**" و"**سان– كاسان**".. وغابات البلوط والزان التي بدتْ تحت سماء الخريف أشْبهَ بباقة باهتة..

ولم يكن يقْرأ على صفحة هذه الأرض– المتباينة الزرع– قصة تعاقب الفصول، وإنما راحَ يقرأ تَاريخ أسرته: فهذا الحقلُ اشْتَراهُ جَده "فلان"، وذلك الكَرْمُ زرعه جد آخر.. وهو، ألم يتجاوزْ حدود المقاطعة؛ كي يُضيفَ إلى المزرعة هذه الأشجار الكثيفة التي حان قِطَافُها.. وإذ استدار إلى مباني المزرعة تعرَّف على الكوخ القديم المتواضع الذي بناهُ الفلاحون الأوائل من أسرة "**روكفيار**"– والذي أُعيدَ ترميمه بعد ذلك مرارا– فَقارنَه بمسكنه الراسخ الدعائم، الفسيح، الذي يُزينه كرم مزدهر بكْر..

في هذه البقعة وُلدَ أسلافه وعاشوا، وفيها يعيشُ الأحفاد الآن، وقد زادهُم قوة– من الناحيتين المادية والمعنوية على السواء– مَاض عريق من الشّرف، والعمل الدءوب، والمال المدَّخَر.

واشتد اعْتزَازهُ بنسبه وهو يكرر لنفسه العبارة التي قالتها له العجوز "**فوشوا**" منذ لحظات:

– إنها غَلْطة الأسْرة دائما!

لقد أمدتْ أسرتُه البلاد برجال أكفاء في أداء الواجب العام، وفي إدارة شؤونهم الخاصة على السواء. وهكذا تُدعّمُ الأجيال المتعاقبة بعضَهَا البعض من أجل رَفَاهية الجميع! أو لم يُعَبّدُ له أجداده الأقدمون الطريق؟ ولقد اشتهوا قبله أن يتملكوا هذه الأرض التي يطؤها الآن بقدميه، وخلب لُبهُمْ هذا الأفق الذي يحتويها بين أحضانه!

وأحسّ بشيء من الألم وهو يرد طرفه عن أملاكه؛ ليتأملَ من جديد ما كانوا قد رأوْه قبْله من مجموعة الخُطُوط والألوان التي يتألف منها المنظر، والتي تركزتْ فيها مشاعرهم، كما تَتركَّزُ فيها مشاعرُهُ الآن! ذلك أن المزروعات تستطيع أن تُغيِّر من شكل الأرض بينما يعجز الإنسان عن أن يُحْدِث فيها أي تغيير.. لا في صبْغَتها، ولا في مدى اتساع رقعتها. إنه قد يُضيفُ

إليها بعض التعديلات المميزة فحسب: كبيت ينبعث من سَطْحه دخان يوحي بأنه مأهول ويثير في النفس الحنين إلى الدفء، أو طريق، أو سياج، أو ناقوس يدعو بدقاته إلى الصلاة!

وإلى جانب شُعُور السيد "**روكفيار**" - في وحدته تلك فوق التل- داخله ارتياح انبعث عن اتصاله الروحي بأسلافه؛ فَأَحسَّ بما كان لهذه البقعة من قيمة في الماضي السحيق. وسرح بصره فإذا سلسلة جبال "**ليـــبين**" في مواجهته، وقد حُفَّتْ بها حمرة الشمس الآفلة، وقطعت استرسالها الرتيب مرتفعات "**سنيال**".

وانْحدر بصرهُ إلى السَّهْل فانطلق لحظة مع طريق "**إيشـــيل**" البديعة، التي كانت السُّفوحُ الدنيا للجبال تحفّ بها وكأنها تحرسها.. ثم صَعَّد بصره إلى النتوءات البارزة في جبال "**كوربيليه**" و"**جواني**" و"**جرانييه**"، ليرتدَّ من جديد إلى التلال القريبة، والوديان المتدرجة ذات التعرُّجَات المتناسقة، وتمثل الرجل صفات من أسلافه في هذه الطبيعة المتباينة التي تصوِّرُ الجبروتَ آنا، وتصور الخمول آنا آخر.. فهي- من ناحية- تمثل بسالةَ جدِّه الذي وهبَ نفسه للجيش في عهد الثورة.. وهي- من ناحية أخرى- تصور له ترهُّلَ أبيه الذي أوشكَ أن يعرِّضَ هذا التراث المقدس للضياع باستسلامه لحياة الدعة!

وأخذ يحدثُ نفسه: "لن يستطيع أحد أن يستوعبَ مثلي رَوْعة مغيب الشمس عند هذا المكان.. لسوف يَفْطنُ إلى هذه الروعة- بعد موتي- أحدُ أولادي.. أولادي الذين سيواصلون أداء الرسالة، ويكونون ذرية صالحة!

*****

وعلى ضوْء الماضي أخذ يستعرضُ المستقبل في ثقة واطمئنان، فلم يَفْطُن في استغراقه إلى امرأة غادرت المنزل وأخذت تسعى إليه.. وكانت امرأة متقدمة في السن، تضع على كتفيها شالا قاتما، وتتكئُ على عصا، وقد بدا عليها الإعياءُ الشديد، وكان وجهها- الذي انعكست عليه ظلال المساء- يوحي بما كانت عليه في شبابها من جمال أذْبلتْهُ السنون دون أن تفقدَه سمات الطهر والبراءة التي كانت تأخذك منه في البداية، ثم تجتذبك.. كان ذلك الوجه صورةً حية لنفس مستقيمة مُبرَّأة من كل شر، ونزعة إلى التصوف!

وسألت السيدةُ "**روكفيار**" - إذ كانتْ هي القادمةُ- زوجَها:

- ألم يَصلْ الأولادُ بعد؟

فأجابها:

- ها هم أولاء قادمون يا "**فالنتين**".

وكان الزوجان يعنيان أولادهما، وأشار الزوج بيده إلى جمع غفير يصعد الطريق من أسفل المنحدر، وعلى رأسه طفلان تعرفت عليهما جدتهما، فقالت:

- ها هما "**بيير**" و"**أدريين**" يسلكان الطريقَ المُخْتَصَرة. ولكنني لا أرى الصغير "**جوليان**"؟

– لابدَّ أنه مُمسك بيد عمته "**مرجريت**" فهو لا يتركها مطلقا.

– هذا صحيح. فإني ألمحه بين "**مرجريت**" وخطيبها. إن هذا الخبيثَ يفصل بينهما.. وأمه، أين هي؟

– إنها تسيرُ خلفَهُم، في تؤدة كعادتها، وبجوارها أخوها "**هوبير**".

– وابننا الأكبر، هل يمكنك أن تميز الوسام الذي يحلّي به صدره؟

فابتسم السيد "**روكفيار**"، والتفت إلى زوجته قائلا:

– كيف تريدين مني أن أُميزه من هذا البعد؟

فضحكتْ زوجته بدورها في سماحة، وأردفتْ:

– هناك شريط أحمر كبير يصعد الجبل..

فقال الزوجُ مازحا:

– ولعلك تَرينَ على صفحة السماء هذه العبارة:

– "هوبير **روكفيار**": ٢٨ سنة، ضابط في مشاة البحرية، أُنْعِمَ عليه بوسَام البسالة في الحرب، مُرَشَّحٌ للترقية، وقد اشترك في حملة "**الصين**" والدفاع عن "**بيتانج**"!

فقالت الزوجة في تأكيد:

– إنني أقْرؤُها بوضوح، دون ريب!

ثم نظرتْ من جديد إلى الطريق بعين فاحصة وتساءلتْ:

– و"**موريس**"؟ لست أرى "**موريس**".

فأجابها:

– إنه يسيرُ في المؤخرة– على ما أظن– مع شخص آخر.

فوضعتْ السيدة "**روكفيار**" يدها على كتف زوجها في ارتياح وأردفت:

– لعله "**شارل مارسيلاز**"، زوج ابنتنا. لقد اكتملَ عددهم.. إنني أراهم الآن وأُحْصيهم كما كانوا صغارا: "**جيرمين**"، و"**هوبير**"، و"**موريس**" و"**مرجريت**"..

فقاطعها زوجها:

– لا يَنْقصُهُم غير "**فيليسي**" التي نفتقدها دائما.. وغامتْ على وجهه سحابة من الكآبة؛ فهو لم يكن قد أَلف بعد غياب ابنته الثانية التي عبرتْ البحار، لتكون راهبة تقف حياتَها على العناية بالمرضى الفقراء في مستشفى "**هانوي**" بـ"**الصين**".

واتكَأتْ الأم بقوة على كتف زوجها وقالت:

– كلا يا "**فرانسوا**" إنها ليستْ بعيدة عنا، فهي معنا بروحها، إنني موقنة بذلك، وأُحسّه. لقد قابلها "**هوبير**" قبل عودته من "**الصين**" فوجدها سعيدة.. وسيأتي يوم نلتقي فيه جميعا!

فلم يشأ الرجل أن يتركَ لعواطفه العنان أمام زوجته بل قال مُغَيِّرا مجرى الحديث:

– إنه ليسَ "**شارل**" الذي يسيرُ بجوار "**موريس**".. إنها امرأة. ولقد تركَا الطريق المختَصرة

ليسْلُكا الطريقَ الطويلة.

– لعلها تكون السيدة "**فرازن**". هل ترى زوجها؟

– نعم. إنها هي.. ولكنني لا أرى زوجَها موثقَ العقود!

– إنه سيأتي مع "**شارل**" بعد قليل؛ فإن عملَهُما يعوقهُمَا حتى الساعة السادسة.

– إن "**فرازن**" وزوجته سيتناولان العشاء هنا الليلة. أليس كذلك؟

– بلى. فلقد سَأَلني "**موريس**" أن أدْعُوهما للعشاء؛ لأنه طالما دُعي عندهما.

ولاذَ الاثنان بالصمت بُرْهَة، وقد اعتراهما قلق واحد مشترك.. ثم قطعت الزوجة حبل الصمت قائلة:

– إنني لا أحب هذه المرأة!

ودهش الزوجُ لا من الملاحظة ذاتها، وإنما لصُدُورهَا من زوجته التي كانتْ بطبعها أُنموذَجا حيا للسماحة! فسالها بدلا من أن يُقرَّ كلامها:

– لماذا؟

وحدجت السيدة "**روكفيار**"– بعينيها الصافيتين– الشمس الغاربة وأجابتْ:

– لست أدري لماذا. فإن أحدا لا يعرف من أين أتَتْ؟ وإنني لأرتعدُ عندما أفكر في المدى الذي تنوي أن تمضي إليه.. إنها ليستْ جميلة ومع ذلك فإن مُجَردَ النظر إليها يكْفي لإثارة قلق الأمهات على أولادهن، والزوجات على أزواجهن!

– هذا يَدْعُو للرثاء! من الذي حدَّثك عنها؟

– لم يُحَدثْني عنها أحد، ولست أعْربُ إلا عما يُخَامرني. إن الذين يُسْرفُون في الصلاة ليسوا أقلّ الناس دراية بهذه الأمور، إن لهذه المرأة عينين غريبتين، سوداوين، يشعُّ منهما لهب! إنها تُخيفُني!

– آه! صحيحٌ! إن أهلَ المدينة يتحدثُون عنها وعن ابننا.

– يجب أن ننبه "**موريس**".. أن نُحَذّره بلا إبطاء!

– وكيف يا عزيزتي؟ لسْنَا متأكّدينَ من شيء على وجه التحديد.. إنها شائعات، فما قيمة الشائعات؟

– إنها ليستْ شائعات، فإنني أكادُ ألْمَسُها. إن ابْنَنا في خطر!

فقال السيد "**روكفيار**":

– إن بعض العواطف قد تزدَادُ تدعما إذا نحن كافَحْنَاها! ولعلك مُقْتنعة بذلك وإلا ما وافَقَتْ "**موريس**" على دعوة الزوجين. ثم إن الشبّان لا يطيقون مثل هذا التَّدخُّل في حياتهم، لاسيما وأن "**موريس**" دكتور في القانون. فهو شَديدُ الاعتداد بنفسه، والتعلّق بنظريات سخيفة عن حق الإنسان في السعادة، وفي أن يكون حرا في تنمية شخصيته.. إن "**باريس**" تثقفهم ولكنها تبثّ الثورة في نفوسهم، فلابد لهُمْ من التجارب حتى يتعقّلوا ويتّزنوا.

– إذن فقد كان هذا الأمر يُقْلقُ بالك دون أن تُحدِّثني عنه!

– ولماذا أثيرُ شجُونَك وحزنك وقد ضعفتْ صحَّتك.

– أجل. يجب أن أقوى؛ إذ لابد للأم من أن تكون قوية. على أن لديك أنت من القوة ما يكْفي كلينا!

– لقد أخْطأنا بوضْعه في مكتب الأستاذ "**فرازن**" على أنني أردت أن أُتيح له فرصة الإلمام العملي بالقضايا، لاسيما ما يتعلّق منها بالمواريث وتصفية الممتلكات، قبل أن يتَّخذَ لنفسه مكتبا مستقلا.. ولما كان الأستاذ "**فرازن**" هو خليفة الأستاذ "**كليرفال**" الذي كان صديقي، كما كان موكلا بعقود أسْرتنا فقد حرصتُ من جانبي على احترام أحد تقاليد الأسرة.. ولكنني أخْطَأتُ! على أن كل شيء لن يلْبث أن يتغيَّر عما قريب..

وتساءلتْ في دهشة:

– عما قريب؟

فقال:

– أجلْ.. سآخذ "**موريس**" في مكتبي حيثُ يتم فترةَ التمرين، أو ليتدرَّبَ على الإجراءات القضائية لدى "**مارسيلاز**". وسأنبئه بهذا بمجرد استقرارنا في المدينة..

فشدَّتْ على يده قائلة:

– لا بأسَ، فبهذا تَقلّ فرص مُقَابَلته لها، ولكن هذا لا يكفي، فأنتَ تراه ميّالا إلى العقل والمنطق، أما أنا فأراهُ خياليا عاطفيا، وبودي أن أشغَل خياله!

فتساءل الأب:

– وكيف؟

– بأن أُدبِّر له خطْبَة مبكرة مثلا. فإن الخطبات الطويلة الأمد تُشْغلُ الشبان وتُذكِي وجدهم.. إننا في "**فرنسا**" نتعجَّل الزواج، في حين أنه أمرٌ وثيق العلاقة بالحياة وبالأسرة وبالمستقبل!

– هذا صحيح.

– ولقد فكَّرتْ "**مرجريت**" في "**جان ساسيناي**" الشابة.

فقال السيد "روكفيار":

– ولكنها طفلة؟!

فأجابت:

– طفْلة جميلة نشأتْ في أحضان أم قديسة!

*****

وقطعت عليهما الحديث صرخاتُ الصِّغار:

– مساء الخير يا جدتي . . مساء الخير يا جدي!

كانت طليعة الأولاد قد وصلت مُؤلَّفة من "**بيير**" و"**أدريين**" اللذين راحا يلهثان تَعَبا، بعد أن تسابقا في العَدْو، برغم صيحات السيدة "**روكفيار**":

– لا تجريا بهذه السرعة!

وتلقاهما جدُّهما بين ذراعيه، فقالت "**أدريين**" في جرأة ودونما كلفة شأنها مع الجميع:

– لقد آثر "**جوليان**" البقاء مع عمتي "**مرجريت**" برغم أن أمي أوْصتْه بأن يصحبنا!

وما لبث الشبان الذين صعدوا السفح أن صاحُوا بدورهم:

– مساء الخير!

ولم يتخلّف عن المساهمة في هذا اللقاء العائلي سوى "**موريس**" والسيدة "**فرازن**" اللذين كانا بِمَبْعدة، وقد أخذا يتعمَّدان الإبطاء– كلما اقتربا من القمة– ليظلا على مسافة طويلة من بقية الجماعة برغم أن "**مرجريت**" استدارَتْ عدة مرات لتناديهما، وحجبتْ نهاية منعرج الطريق الجبل إلا أن "**موريس**" والمرأة استطاعا أن يلْمحا السيد "**روكفيار**" وزوجته فوق القمة، وقد انتصبا كطيفين في الفضاء؛ وإذ ذاك ألقتْ المرأة نظرة ذات معنى على زميلها– الذي أهاجتْ الخَلْوَة لواعجه– وقالت:

– لابد أن أباك كان أوْسَم منك!

ثم عقَّبتْ بصوت خافت وكأنها تُحدِّثُ نفسها:

– إنه يعرف بُغْيته وكيف ينالها!

فتضايق "**موريس**" ولكنه رَمَقَها في صمت؛ فابتسمت لغيظه وتساءلت:

– كم عمْرُ أبيك؟

– ستون عاما على ما أظن!

– ستون عاما! إنه يَبْغُضني، ولا يُحْجمُ عن القضاء عليَّ إذا شاء!

– تُخْطئين الظن. فهو يحسنُ استقبالك دائما.

– هذه أمور يحسُّها المرء في قرارة نفسه . . إنه يَكْرهني ومع ذلك فهو يُعْجبُني! إنني أحبُّ الرجل ذا الشخصية!

ودارتْ بهما الطريق قبل أن يُبلغ منتهاها، فكشفتْ لهما عن منظر جديد: كانت تحده من اليمين رمال، ومن اليسار أشجار حال لونها فاصبحتْ مزيجا من خضرة الربيع وصفرة الخريف الذهبية . . ولاح لهما فجأة جبل "**نيفوليه**" بقوامه البديع المتناسق، وقد انْعكستْ عليه فُلولُ أشعة الشمس الآفلة . . واصطبغتْ الأعشابُ النحيلة– التي تسلَّقتْ الصخور– بلون بنفسجي كلون الرواسب المتخلفة في الشراب، كما تبدَّت في المؤخرة سلسلة جبال "**مرجيريا**" وقد اكتستْ بحُمْرة وردية فاتنة؛ فتمتم "**موريس**" مأخوذا:

– أرأيت كيف تغيرَّ المنظر؟

ولم يفْطُنْ إلى أن صاحبته كانت أكثرُ احتفالا بوحْدتهما منها بجمال المساء البديع.. وما لبثتْ أن توقّفتْ عن السير، فالتفتَ إليها قائلا:

– ماذا دَهَاك؟ أمُتَعبة أنت؟

– لا.. ولكنني أمْنحكَ وقتا لتتأمل الطبيعة!

– أتراك تغارين؟

– أجلْ. فانت تحبُّ بلدكَ. أما أنا..

فهتفَ في قلق:

– أما أنت؟

فقالت:

– لن أقول لك!

وإذ ذاك قال "**موريس**":

– أما أنا فسَأقولُ لك: إنني أُحبُّك! وضمّها بين أحضانه.. وكانت امرأة نحيلة، سمراء، ذاتَ عينين واسعتين، وجسد يُثيرُ المشاعرَ، ولكنه لا يلينُ للعناق!

وإذ طوّحتْ برأسها إلى الخلف قليلا رأى خلال جفنيها – نصف المغمضين – نظرة اختلط فيها السواد بذهب الغروب، وتركزتْ فيها كلُّ الغَوَاية الشَّهْوانية التي يثيرُها في النفس ذلك الفصل من السنة، وتلك الساعة من اليوم، وغمغم "**موريس**" وهو يضمُّها:

– ما أَضْألها من مخْلُوقة! ومع ذلك، فإن هذه المخلُوقَة الضئيلةَ تعادلُ الكونَ كلّه في نظري!

وأردف:

– أحبك يا "**أديث**"!

فقالتْ والابتسامة المستضعفة لا تفارقها:

– أحقا؟

ولم يجبْ، بل هتف في وَجْد:

– متى تكونين لي؟

فاجابتْ:

– عندما لا أكُونُ لغيرك!

– مستحيل!

– ولماذا؟

– لأنكِ مُرْتَبطةٌ برجل.

– فلنرحلْ معا!

– وكيفَ نَعيشُ؟

– على صداقي المدَّخَرا!

– لا أحبذُ هذا.. فضلا عن أنك لا تملكين التصرفَ في الصداق.

– سأسْتردُه.

– لا. لا!

– بوسعك أن تَعْمل.

وصمت، فانهالتْ عليه بكلمات السخرية وهي مغيظة:

– آه! إنك تُؤثر أن تطيعَ أباك! كن مثله رجلا كبيرا في بلدة صغيرة، وأبا لأطفال عديدين!

وإذ رأتْ مدَى أساه ارتمتْ على صدره قائلة:

– إنني أحبك، وأعذبكَ.. ولكنك ترى أنني أَخْتَنقُ في بلدتك هذه.. "**شامبيري**"! أريد أن أرْحَلَ، وأن أكون حرة في أن أحبك، وفي أن أعيشَ.. فإنني أمْقُتُ الكذب.. ثم إنك لا تحبني!

فهتف:

– كيف اسْتَطعْتِ أن تقولي هذا يا "**أديث**"؟

– لا. إنك لا تحبني.. ولو أنك أحْبَبْتني صادقا لكنت لكَ منذ أمد بعيد!

وعادًا يسيران على مهل وقد أثقلتْ نفْسيهما هذه الاعترافات، وتخلَّص الأفق من النطاق الجبلي فاتسعتْ صفحته، وبدت في أقصاه– خلف آخر قمم "**نيفوليه**"– بحيرةُ "**بورجيه**" التي تباينتْ زُرْقتها؛ إذ كان البخار الرمادي المتصاعد من أطراف البحيرة يخفِّفُها في تدرج بديع.. ولكنهما لم يعودًا يريان شيئا من هذا "الجمال": لا الهدُوء الخانق الذي يَجْثم على الكون في هذه الفترة من السنة، ولا تلك الروعة المضطربة التي تتجلَّى بها الطبيعة، ولا تلك الفتنة التي تشوبُ مساء الخريف فكأنها إغواءٌ صارخ.. فما حاجتهما إلى كل هذا وفي قلبيهما مثله؟

وقبيْلَ وصولهما إلى البيت التقيا بالسيدة "**روكفيار**" التي أقبلَتْ بنفسها لتستَقْبل السيدة "**فرازن**" برغم نصح الأطباء لها بعدم مغادرة البيت بعد الغروب!

وفيما كان السيدُ "**روكفيار**" عائدا من المعصرة– في ساعة متأخرة من المساء ولم يكن أحد يرتقبُ عودتَه فيها– أبصرَ ابنه مع المرأة الشابة في الظلام.. فإن الحركة تَنْشط في الدار أيام الحصاد بحيث يسهُلُ التسللُ إلى الخارج دون استثارة أي انتباه.

وهتفَ "**موريس**":

– لقد رآنا.

فقالت السيدة "**فرازن**":

– هذا أفْضَلُ! وحاول السيد "**روكفيار**" عبثا أن يطرد عنه القلق، وهو يمرُّ بالمخزن– ذلك المبنى القديم الذي شيَّده أسلافُه– ليبلغَ مدخل الدار التي أسسها جده، وزادها هو اتساعا..

وقال لنفسه متذكرا حياته:

– لقد كنتُ شابا مثله!

ولكن الشبابَ ذاتَه لم يصرفْهُ عن تدعيم مستقبل سُلالته. فهل سيتاح لابنه الأصغر- في وقت ما- أن يُصْلح من نفسه، وأن يُبْدي من الهمة والاستعداد للتضحية ما يؤهله لشرف رئاسة الأسرة؟ ولم يكن "**روكفيار**" بطبعه سهل الانْفعال، ولكنه أحسَّ إذ ذاك بقُنُوط السيدة "**فوشوا**" وأَسَاها، وبوطْأَة الخريف ووحشته تحيطُ به كأنها سربٌ من طيور شريرة.. لقد كان منذ فترة يستعرضُ- أمام مزرعته- تاريخَ آل "**روكفيار**" باعْتزَاز وفَخْر، فإذا به، بعد حديثه مع السيدة "**فوشوا**" العجوز، وبعد قُبْلة فاجأ ابنه وهو يطبعها يشعر بَهمّ يجْثمُ على صدره، دون أن يجدَ له تعليلا، ويشهدُ كيف تكْتهلُ فصول السنة، وكيف تنهار الأسر!

٢- الشقاق

غادرت أسرة "**روكفيار**" الريف عائدة إلى مقرها الشتوي في "**شامبيري**"، بعد رحيل ابنها الأكبر "**هوبير**" ليلحق بحاميته في "**بريست**"، وكانت الأسرة تُقيمُ في الطابق الأول من دار فخمة قديمة، تقع في نهاية شارع "**بواني**"، مجاورة لحصن المدينة الأثري، وكان شهر تشرين الأول (أكتوبر) قد أشرف على نهايته؛ فشُغل المحامي بالقضايا وبمحكمة الاستئناف، وفي ذات يوم فَرغَ السيد "**روكفيار**" من الغداء- الذي حال المرض دون أن تشاطره إياه زوجته- ثم استْدعَى ابنته "**مرجريت**"- بينما كان ابنه "**موريس**" منهمكا في قراءة الصحف- وقال لها:

- تعاليْ معي؛ فإني أبْغي استشارتك.

فتساءلَتْ:

- في أي أمر يا أبي؟

ورمقَ الأب "**موريس**" الذي لم يكن يُصْغِي إليهما، ثم قال:

- في تنظيم جديد لمكتبي.

وكانت غرفةُ مكتبه تقع على رأس الشارع، وهي غرفة فسيحة، مرتفعة السقف تنيرها أربع نوافذ، تشرفُ اثنتان منها على الطريق المؤدية إلى "**سافوا**"، وتُطلان على الحصْن الأثري الذي كان مقرا للدوقات الغابرين، والذي كان مُؤلَّفا من مبان ضخمة عتيقة اسودتْ بفعل الزمن- إذ كان عهدُها يرجعُ إلى القرن الرابع عشر- وتخلَّلتْ جدرانها الملساء نُتُوءات لا تكادُ تُرَى. على أن هذه المباني العتيقة كانت تجاور- في الجانب الأيمن- "**كنيسة القديسة**"، التي كانت على شكل زهرة رقيقة، تقوم على غُصْن تألّف منه أساسُ الحصن. وكانت غرفةُ مكتب "**روكفيار**" تطلّ- من الجانب الأيسر- على دار المحفوظات (الأرشيف)، التي كستْ جدرانها فروعُ اللبلاب والكروم البرية، وتوّج هامتها برج طُليَ باللون الأبيض منذ عهد قريب؛ فبَدا في انتْصابه ومظهره كذلك الريش الأبيض الذي يزين رأس الطاووس (العفرة).. كانت هذه المباني تنتمي إلى عهود مختلفة، وأطْرزَة متباينة، وقد شُيِّد بعضُها على مهل، وبعضها على عجل، تبعا لموارد الأمراء المالية وطموحهم؛ ومن ثَمَّ فإنها كانت أقلّ اتساقا- ولكنها أفخم مظهرا- من

المباني التي ينشئها سيد واحدُ في جيل واحد..

وكانت تضمّ تاريخا طويلا حافلا بساعات الهناء، وساعات الشقاء. وكان بُرْجا الكنيسة ودار المحفوظات يَبْرزَان خلال أشجار كثيفة متشابكة، زُرِعَتْ في شرفتين- إحداهما فوق الأخرى- فبدتْ وكأنها مُتَداخلة بعضها في بعض، وعلى حافة الشرفة الخارجية أقيم تمثالان حديثان لـ"**جوزيف**" و"**أكزافييه دي ميستر**". وهكذا تجمَّعتْ في تلك البقعة الصغيرة ذكريات قُرون عديدة.. وفي هذا المكان المهجور، الموحش- كالقبر- كان الماضي يتكلّم!

ومهما يألفُ المرء منْظرا ما فإن أي تذبذب للضوء كفيلٌ بأن يُدخل عليه تجديدا، ومع أن أشعة الشمس كانت تُصْلي واجهة الحصن الكئيبة- حين دخل السيد "**روكفيار**" وابنته غرفة المكتب- إلا أنها خلعتْ لونا وَرْديًا على الزخارف القوطية التي كانت تُزيِّنُ الكنيسة، وعلى قمم الغصون التي خفّ ثقلها؛ إذ بدأتْ تتخلّص من أوراقها. كذلك أسبغتْ الشمسُ لون الشراب على دار المحفوظات، كما كانتْ تُداعبُ قمة البُرج.. فقالتْ "**مرجريت**" لأبيها:

- إن هذا المكان يَهُيئ لك جوَّ العمل.. كم يسرني أن أراكَ مقبلا على العمل هنا!

فقال:

- كنتُ أودُّ لو أن أمك اتخذتْ من مكتبي هذا حجرة للاستقبال، ولكنها تأبى دائما.. ولكن، ألا تلاحظين شيئا يا صغيرتي؟

وأجالتْ "**مرجريت**" بصرها حول الجدران فرأت خزانات الكتب الحافلة بالمؤلفات القانونية والفقهية، وبضع صور للمشرِّعين القُدامَى من أجدادها- وقد أضْفَى عليهم الرسامون صرامة تفوق صرامة أحكامهم- ولوحة للرسّام "**بورجيه ديجار**" تمثل بحيرة من أجمل معالم إقليم "**سافوا**"، ثم رسْمًا لمزرعة "**فيجي**"- مزرعة الأسرة- في إطار يفوقُ ما عداه، وما لبثتْ "**مرجريت**" أن قالت:

- لا.. لسْتُ ألاحظ شيئا!

فقال الأب:

- لأنك تَتطلّعين إلى أعلى.

فردَّتْ الفتاة بصرها إلى الحجرة من جديد، وإذا بها تلاحظُ شيئا لم تفطن إليه في المرة الأولى: فإن المنضدة الضخمة المصنوعة من خشب البلوط- والتي كانت من الكبر بحيث تتسع لأكداس الملفات- كانت قد أُزيحتْ من مكانها؛ لتحلّ فيه منضدة أخرى أنيقة، وأصغر حجما، احتلتْ من الحجرة موقعا كان الجالسُ فيه يستمتعُ بأكبر قسط من الضوء، فضلا عن المناظر الجميلة وصاحتْ "**مرجريت**":

- أواه! لماذا أزحْت منضدتك؟

فأجاب:

- لكي أُخْلي مكانًا لأخيك.

– وهل سيترك "**موريس**" مكتب "**فرازن**"؟

– أجل. سيجلسُ إلى جوار النافذة.. انظري من هنا، إن الخريف يُجرِّد الأشجار من أوراقها. أما أنا فأفضل الربيع، وهناك– فوق البرج– فرع دبّتْ فيه الحياة فأنبتت البراعم الحمراء.

ولم تكن "**مرجريت**" تصغي إليه، بل تبدّى عليها الوجوم، ثم قالت:

– "**موريس**".. أجل وأنت؟

فقال:

– يا صغيرتي. يجب أن يشعُرَ الشاب بغبطة في داره. أليس بوسْعكِ أن تكملي ترتيب هذه المنضدة؟ زينيها ببعض الزهور مثلا!

ولكنها أجابت:

– ليس هذا بموسم الزهور يا أبت! ليس لديَّ سوَى زَهْر الكريزانتيم (اللاتنيا).

فقال:

– إذن هاتي الكريزانتيم.. زهرة أو اثنتين– لا أكثر– في وعاء طويل. فإن أساتذةَ القانون يعُودون إلينا من "**باريس**"، وقد أُغْرِمُوا بالأشياء الجميلة.. وأنا لا أعرفُ الذوق، أما أنت فزهرة الأسرة، وفي وسعك أن تساعدينا على تعرُّف الذوق!

وابتسم في انفعال الذي يرجو إرْضَاء سامعه، ثم اقْتَربَ من ابنته الشابة فألقى راحته على شعرها الكستنائي القاتم الجميل، غير محاذر من أن يُخلّ بتناسقه، وقال:

– إنك لن تَلْبثي أن تَبْرحي هذا البيتَ عما قريب يا "**مرجريت**". أفأنت سَعيدةٌ بزواجك؟

وبدلا من أن تجيب ألقتْ بنفسها على صدر أبيها وهي مثقلة الفؤاد، وطفقَتْ تبكي.. وكانت قريبةُ الشبه من السيد "**روكفيار**"، وإن لم تُؤتَ نفس قسمات وجهه.. فقد كانتْ ذاتَ قَوام فارع قوي، وأنف مدبب قليلا، وذقْن مُسْتَقيم، وكانت– كأبيها– تُوحي بالطمأنينة والولاء، كما كانت عيناها الواسعتان، السوداوان، الشديدتا الصفاء– كَعيْني أمها– تضيفان إلى وجهها رقَّة عميقة بينما كانتْ عينا أبيها– الصغيرتان، الغائرتان– تَشعّان بنظرة ملتهبة حادة لا يكاد المرء يحتملها!

وقال الأبُ وقد أقلقتْهُ دموعُ ابنته:

– لماذا تبكين؟ ألا يروقُ لك هذا الزواج؟ إن "**ريمون بيرسي**" شابٌ لطيفٌ، من أسرة طيبة، وقد أتَمّ دراسة الطب، وعوّل نهائيا على الإقامة في بلدتنا. أهناك ما تأخذينه عليه؟ ليس من الواجب أن تتزوجي من لا يميل إليه فؤادك.

وغالبتْ الفتاة عَواطفها، وتمتمتْ:

– أواه! ليس هناك ما آخذهُ عليه.. ولو أنه...

فقاطعها متعجلا:

– تكلّمي يا صغيرتي.. هيا، على مهل!

ورمقتْهُ بعينين مليئتين بالإعجاب وقالت:

– ولو أنه ليس مثْلك!

فهتف:

– إنك لسخيفة!

وإذ هدأ روْعُها قالت:

– لست أدري سرّ بكائي.. كان يجب أن أكونَ سعيدةً، ولكن.. ألم أكنْ سعيدة هنا؟ إن طفولتي تعاودُني الآن بمباهجها وإشراقها؛ فأشعرُ بأسى طاغ لمغادرة هذه الدار.

فراح يُسرّي عنها قائلا في وجوم:

– لا تنظري إلى الوراء يا "**مرجريت**" فإن هذا جَديرٌ بأمك وبي. أما أنت، ففكري في مستقبلك كامرأة، وأقبلي على هذا المستقبل دون تراخ!

فقالت وهي تحُاوِل الابتسام:

– إن مستقبلي في أسرتي.

فعقَّب قائلا:

– إنه في الأسرة التي تنشئينها!

– كثيرا ما نصحْتني يا أبت– أثناء تلك النزهات التي كنا نقُوم بها معا في الشتاء– بأن أحافظ على تقاليدنا!

– ولكن التقاليد لا تُحفَظ– أيتها المجادلة الصغيرة– داخلَ صوان الثياب، كما يفْعل جارنا في الريف "**الفيكونت**" ديلا **مورتيلليري**"، الذي يحتبسُ نفسه ليعيد تنسيقَ شعارات أسرته وشجرة نسبها، والذي يعْجَب؛ لأن فلاحيه يجرؤون على ارتداء الأحذية الطويلة الرقاب! كذلك لا تُصَان التقاليد في دار عتيقة، أو ضَيْعَة قديمة، بالرغم من أن الاحْتفاظ بالتُّراث من الأمور المهمة.. إنما تمْتزج التقاليد بحياتنا وبمشاعرنا؛ لتقْوى وتزدادَ قيمة وبقاء!

وعادت ترمقه بعينيها الواسعتين المليئتين بالإعجاب، ثم همستْ:

– لشدّ ما أنا مُتعلّقة بهذا البيت!

فأجاب في حزم:

– لا. لا.. إن الزواج يبدو دائما كمجهول محُوط بالغموض؛ ومن ثَمَّ فإني أدركُ أن هذا التغيير– الموشك أن يطرأ على حياتك– يشغلُ بالك ولكن من الواجب أن تكوني مبتهجة ومرحَة وأنت تُغَادرينا، ما لم يكن لدَى قَلبك أو عقلك اعتراضات جدِّية على هذا الزواج. لقد كنت سعيدة بيننا، وفي هذا ما يُعَزِّيني. وهيّا اذْهبي فأحضري زُهورا، واستدعي "**موريس**"!

فقالت:

– سمعا يا أبت!

وإن هي إلا لحظات حتى عادتْ "**مرجريت**" تحمل زهرية نُسِّق بها الورد.. وبحركة رشيقة

من يدها تغيّر مظهر المنضدة المعدة لأخيها، وألقت نظرة نمّت عن ابتهاج، وقالت:

– لقد كانتْ عندي بقية من ورد، هي الأخيرة في الموسم.. ها هي ذي في الزهرية التي يتبدّل لونها تحت أشعة الشمس، كما تفعل زهور عبّاد الشمس. ما أجْمَلَها!

فردد السيد "**روكفيار**" قولها:

– ما أجملها!

وكان يَعْني ابنته لا الزُهْرية، فضحكتْ وفرّتْ من الحجْرة قائلة:

– سأهرعُ الآن لاستدعاء "**موريس**".

*****

ولبَّى الشاب نداءَ أخته دون تمهل. وقال وهو يلج حجرة مكتب أبيه مُمْسكًا بقبعته وعصاه وكأنه يتعجَّل مُغادرَة البيت:

– ألديْكَ ما تريد أن تقولَه لي؟ وكان في مثل طول أبيه وقوامه، ولكنه كان أنحفَ منه جسما، وأنصعَ بشرة. ومع أنه كان أكثر منه أناقة ورشاقة– أيضا– إلا أنه لم يؤت ما أوتيه الأب من سيماء العظمة، سواء في مظهره أو في مسْلكه ولا ذلك الجَلالَ الطبيعي الذي بَذلَ السيد "**روكفيار**"– في تلك اللحظة– جُهْدا للتخفيف منه، ولإبداله بروح الزَّمالة والود، وهو يقول:

– تأملْ كيف أعَدتْ "**مرجريت**" منضدتكَ!

فهتف الشاب في عجب:

– منْضدتي؟

– أجلْ، هذه المنضدةُ، ذاتُ الورد.. إنك ترى– إذ تجلس إليها– الحصن والشمسّ.. ألا تريد أن تتمَّ مرْحلة التمرين معي؟

وأخذ شعاعٌ من الشمس يداعبُ الوردَ بينما كان برج دار المحفوظات والقصر يسبحان في النور، وكشفَ ضوء النهار عن وجه السيد "**روكفيار**" الذي كان يتلطّف إلى ابنه في عبارات رقيقة مؤثرة.. ولكن الأبناء لا يعرفون صبر الآباء إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن يمارسوا هم مهام الأبوة؛ ومن ثَمّ تساءل "**موريس**":

– أتقصد أنني يجب ألا أعُود إلى مكتب "**فرازن**"؟

فأجاب الأب:

– نعم. فلا نفْعَ لك في العوْدة. لقد ألمْتَ تماما بقانون المواريث، ويحسنُ بك أن تتَّبع سير القضايا، وأن تحضُرَ الجلسات، وإن شئتَ ففي وسعك أن تقْضي بضعة أشهر لدى "**شارل**"– زوج أختك– الذي يستطيعُ أن يُبصِّرك بالإجراءات الجنائية– فهو من المحامين المعدودين، ومن أكثرنا حصولا على القضايا– على أن تتقدَّم بعد ذلك للمرافعات، وإن شئتَ فإن لديّ قضية بديعة أقدمها إليك، بشأن صحة عقْد من عقود البيع.

قط لم يترافعْ السيد "**روكفيار**" بمثل ذاك الحذر وتلك الرقة. ولكن الشاب تركه يتكلّم وراح يفكِّرُ. ثم قال:

– كنتُ أظنُّ أن من المتّفَق عليه أن أقْضي ستةَ أشهر في مكتب الأستاذ "**فرازن**".

فأجابَ الأب:

– حسنا! ها قد أوشكتْ الأشهرُ الستة على الانتهاء. فلقد بدأت في حزيران (يونيو)، ونحن الآن في نهاية تشرين الأول (أكتوبر).

فقال الابن مماطلا:

– ولكنني حَصلْتُ على عطلتي في شهر آب (أغسطس)، وقد انتهت منذ عهد قريب، وأنا أفحصُ الآن بعض قضايا التصفية المهمة.

فردّ الأب في حزم:

– ستُعَالجُ في المحكمة قضايا من هذا النوع، فهي تنتهي في أغلب الأحيان إلى المحكمة، وقد قبلتُ في هذا الموسم عددا من القضايا الفريدة، وسوف تُسَاعدُني. فاذهب وأحْضر حافظة أوراقك من عند الأستاذ "**فرازن**"، وامكث هنا.

– إن الأستاذ "**فرازن**" متغيبٌ ومن الأليق أن أنتظر أوْبته.

كان "**موريس**" يتلمّس الأعذار، ولكن أباه لم يحفلْ باعذاره، بل قال:

– لسوفَ يعودُ غدا، وقد أخْطَرتُه– على أية حال– قبل رحيله.

ووجد "**موريس**" في هذا النبأ فُرْصة للتنفيس عمّا جاش في صدره، فصاح:

– هل أخْطَرتَه قبل أن تسألني رأيي؟ إذن فسأكونُ دائما طفلا، هنا، تتصرفُ فيّ كأنني سلعة. ولكنني لن أرضى بأن يُنْتَزع مني استقلالي. إنني حُر، وأطالبُ بأن أسْتَشَار– على الأقل– لاسيما فيما يتعلق بي!

إزاء هذه الثورة– التي كان السيد "**روكفيار**" يتوقَّعُها ويدرك سببها اَلْخَفِيَّ– راح يَرْمُق ابنه في هدوء برغم ما شاب الحديثَ من بعد عن الاحترام.. كان يعرفُ أن الجيادَ الجوامحَ صعبةَ المراس، وكذلك حال الشخصيات ذات الإرادة الصلبة المعتدة؛ ومن ثَمّ أجاب في بساطة:

– إنك ابني سواء أكنتَ صغيرا أم كبيرا؛ ولذلك، فإني أُعَاونُك على إعْداد مستقبلك!

ولكن الشاب مَسَّ العقبة التي كان كلاهما يتفاداها حتى تلك اللحظة، إذ قال:

– فيم التسَترَّ؟ إنني أعرفُ تمام المعرفة السرَّ في أنك تريدُ إقصائي عن مكتب "**فرازن**".

ولكن حضور بديهة الأب مكّنه من تفادي الاصطدام، فقال:

– أتُراكَ ستكونُ في مكتبي أسوأ حالا، وهل تظنكَ تستطيع أن تستغني– في استخفاف– عن توجيهاتي؟ هل سيكون استقلالُك مُهَدَّدا؛ لأنك سَتفيدُ من خبرتي المهنية، ومن الأربعين عاما التي قضيتُها في المحاماة؟ إنني لا أفهمك!

وشعر بأنه أفحَمه، فسعى لاستكمال نصره بشيء من الحنان، فقال:

– إن أمكَ مريضةٌ، وأختكَ لن تلبثَ أن تُبارحنَا، وستخفّ وحشتي بوجودك!

وتريثَ لحظة وهو يأملُ في أن يكون قد بدّد العاصفة، ولكن "**موريس**" ظنّ بعد تردد– إذ كان في قرارة نفسه يعجب بأبيه– أن بوسعه أن ينتصر على هذا التلطّف، فعاد يحملُ على العنصر المفقود في المعركة:

– أجل. لقد وَشَى الناسُ بي لديك من أجل السيدة "**فرازن**"، فماذا قالوا لك؟ إنني أريدُ أن أعرف، فإن من حقي أن أعرف. آه.. إن الحياة لا تُطَاق في الأقاليم! فالمرء فيها يكون مُرَاقَبا، يتجسَّسُ الناس عليه ويُحْصون حركاته، ويقيِّدُون من حريته، إن أنبل العواطف تُصْبِح في الأقاليم نهبا لألسنة كل من تقيم البلدة له وزنا من المنافقين الحاسدين والانتهازيين! ولكنني لا أصدقُ أنك يا أبت قد أصغيْتَ لهذه الشائعات الوضيعة التي لا تتورَّع عن النيل من أشرف النساء!

وكفّ السيد "**روكفيار**" عن التَّستُّر، فقال:

– لقد تركْتُكَ تتكلم يا "**موريس**" فاسمعني الآن: إنني لا أحفلُ قط بما يُقَال، ولا أسألكَ عمّا إذا كان من الصحيح أنك تقْضي في غرفة الاستقبال في دار أستاذك– وهو الكثير التغيب في أعماله– وقتًا أكثر مما تقضي في المكتب. إن جميع الأسباب التي أبديتُها لك صحيحة، أما وقد أثرتَ هذا الموضوع فإنني لن أتهرَّب من المناقشة. أجل. إنني أرجوك أن تستكمل فترة تمرينك عندي بسبب هذه المرأة، وهو طلبٌ طبيعي مني.. وأنا لستُ في حاجة لأن أُصغِي إلى أية شائعة؛ إذ يكفيني ما رأيْتُ بعيني!

فتساءل الشاب:

– وما الذي رأيتَ؟

– لا جَدْوى من ذلك فلا تُصرّ.

– ولكنك تَتَّهمني، فمن حقي أن أعرفَ.

– وهو كذلك! عندما تَسْتقبل أمك بعضَ الضَّيفات القادمات بدعْوة منك، فمن واجبك أن تحترم البيت الذي نعيشُ تحت سقفه، على الأقل! وما أراك إلا قد أدركْتَ ما أشير إليه.

وأطاشَ الغضبُ رُشْد "**موريس**" فعاد مرة أخرى إلى الاندفاع في تلمّس الأعذار لتبرير عاطفته، قائلا:

– إن حياتي الخاصَّة جديرةٌ بالاحترام كذلك. ولستُ أريد تدخلا فيها! لقد أرضيتُكَ في جميع الأمور التي يجب أن أقدِّم لك عنها حسابا.

وهتف الأب:

– "**موريس**"!

ولكن الشاب مضى قائلا:

– لقد اجتزت امتحاناتي بتفوق، وعدْتُ من "**باريس**" بعد ست سنوات، دون أن أكون

مَدينا بدرهم لأحد. فأيّ لوم تُرَاني أستحق؟ إنك كذلك لا تستطيع أن تأخذ عليّ أنني كنت على أية علاقة وضيعة بالحي اللاتيني على غرار بقية الطلبة!

– إنني لا أوجِّه إليك أي لوْم أيها الطفل التعس..

– إنني لستُ طفْلا!

– إن المرء يظلّ دائما طفْلا أمام أبيه! ألا تفْهمُ أنك لم تُحَافظْ على شبابك إلا بفضل العمل والعزة وتقاليد الأسرة التي بثّتْ فيك النظام والاستقامة.. وأن هذه المرأةَ التي تكْبُرك سنا بكثير، والتي لم أكُنْ البادئ بذكر اسمها هنا، شديدة الخَطَر عليك؟ أفتعرفُ– على الأقل– حَقيقتَها؟

فصاح "**موريس**":

– لا تتحدثُ عنها.

ولكن السيد "**روكفيار**" أجابَ في لهْجة صارمة مهيبة:

– بل سأتكلّمُ عنها. ألستُ أنا ربّ الأسرة؟ فبأي حق تفرضُ عليَّ السكوتَ؟ أفتخْشى أن أنْزلق إلى حديث لا يليقُ بكرامتي؟ إنك إذن لا تعرفني.

فعاد الشاب يقول:

– إن السيدة "**فرازن**" امرأةٌ شريفة.

وإذ ذاك قال الأب:

– أجل، إنها من أولئكَ الشَّريفَات اللائي يعْمَدْن إلى اللعب بالنار من قبيل التسلية، واللائي لا يَتورَّعْنَ عن هذا العبث ولو في قاعة الجلوس، ولا يتعَّفْفنَ عن اللهو مع كُلِّ الرجال حتى المكتهلين منهم.. إنها من أولئك الشريفات– من نساء هذه الأيام– اللائي قَرَأنَ كل شيء عدا الإنجيل، ووعَيْنَ كل شيء إلا الواجبَ، ولم يَحْجُمنَ عن أي شيء سوى الفضيلة، وأكْبَرْن كل الحريات، ولكنهن ازْدَريْن عمل الخير الذي لم يَضِنّ عليهن به أحد! ولماذا يكن شريفات؟ لا أحد يدري لذلك سببا.. فلا الإيمان يُردعْهُنّ، ولا الحياءُ يُوقفهن عند حدّهن! أما الشرفُ، فعقيدة لا يعتنقها سوى الرجالُ فقط! إنهن مُتَمردات، لا يشبع المرء من كلماتهن في الشباب فإذا أوشك الشباب أن يدبر تجلّت الحقائق الواقعة. إن هذه الشابة زوجةُ رجل ناضج، فكان جديراً بها أن تذكر أنه يأويها ويُطْعمُهَا، وأنها كانت– حين التقطها– لا تملكُ درهما!

– هذا غير صحيح.. فقد كانت تملكُ صداقا قدره مائة ألف فرنك.

– ومن قال لك هذا؟

– هي نفسها.

– وددتُ لو كان هذا صحيحا، لولا أن صديقي الحميم "**كليرفال**"– الذي عرفهما بنا عندما خلفه "**فرازن**" في مكتبه– قد أنبأني بكل شيء.. وهو رجل لا يُلْقي الكلام جُزافا. فلقد أنبأني بأن هذه المرأة مُوزَّعة بين خوف الفقر– أو خوف الضيق المالي على الأقل– وبين

الخوف من زوجها الذي لا تَشي أساريره بما يطمئنها.. وأنها قد وازنتْ بين الحالين فآثرتْ البقاء مع زوجها.. وهذا مدى ما لديها من حكمة!

وتقدّم "**موريس**" خُطوة، وهو يرتعدُ مما لحق بمحبوبته من إساءة، وصاح:

– كَفَى يا أبت.. أرجوك! لا تتَّهمُها بالنَّذالة، ولا تَتَحد جُرْأتها! أؤكد لك أنك تخطئ ذلك، ولست أبغي أن أُنصتَ للتشهير بها؛ ومن ثَمّ فسأنصرف!

وإذ ذاك قال الأب في حزْم صارم:

– إنني أمنعُكَ من أن تطأ قدمك مكْتَب "**فرازن**".

فقال الابن:

– حذار من أن أرفضَ أن أضَع قدمي هنا.

وكان قد بلغ الباب حين ألقى بهذا التحدي، فصاحَ الأب في صوت تغيرتْ نبراته، فغدا أقربَ إلى الضراعة منه إلى الأمر:

– "**موريس**"! وأسرعَ خلفه، فإذا الغرفةُ الخارجية خالية، والشاب يهبط السلم.

وإذ غدا الأب وحيدا داخل غرفة المكتب الواسعة، المفعمة بالنور راح يتأمل المنضدةَ الصغيرةَ التي كانت أشعةُ الشمس تداعبُ ما عليها من ورد، وكل ما اتخذ من استعدادات– لاستقبال ابنه– تُرْضي أسلافَهُ الذين كانوا يَطلّون عليه من الصور القديمة، والنافذة، والرسم القديم المبين للإقليم كما كان في الماضي.. وشعر بانه قد نُبذ، كقائد ولَّى عنه جيْشُه في ليلة مُنيَ فيها بالهزيمة!

وقال لنفسه:

– أيتمردُ الابن على أبيه إلى هذا الحد؟ لقد كلَّمتُهُ برفق في البداية، ولكنه سرعان ما احتدّ.. ما أقْوى سلطان هذه المرأة! لكَمْ أود أن أحطّمها! ولكنه سيعُود؛ فمن المستحيل ألا يعودَ، وسأذهبُ لإحضاره إذا اقْتَضَى الأمر. لعلني تجاوزت حدَّي، فجرحْتُ شعوره دون مبرر! إن الطفل المسكين يُحبّها، ويُصدّق ما تقوله له. لقد سحرتْه بصوْتها الفاتن، وعينيها اللتين تشعّان لهيبا، وابتساماتها، فراحت تلعبُ به. أجل، لقد أخطأت إذ تحدَّيتهُما.. إن أمثال هذه المرأة أخطر من سالفاتهن في الماضي، بما أوتين من حقد، ونفاق، وتمرُّد على المجتمع! لابد أنه هرع إليها، ولسوف تُثيرُه ضدي.. ضد أبيه.. ضد أبيك الذي أراد حُبُّه أن يَقُودَك إلى الطريق المستقيم يا "**موريس**"...

*****

ولم يكن "**روكفيار**" من الرجال الذين يستَرسلُون في الشكوى، فَدخَل حجرة زوجته يَنْشدُ قرارا يتخذه، بعد أن اعْتاد أن يلجأ إليها كلما أعْوَزهُ الرأي في الظروف العصيبة. ولكن الستائر كانت مُسْدلة، والسيدة "**روكفيار**" نائمة.. فقد هدها المرض البطيء– الذي ضاعفتْ الشيخوخة من وطْأته– إذ كانت تعاني تيبُّسا في أعصابها كان يَشلّ حراكها من آن إلى آخر.

وكم اعتاد– منذ سنوات– أن يفْتح باب مخدع زوجته، مُطمئنا إلى سَدَاد رأيها، وجلاء بَصيرتَها. أما في هذه المرة، فقد تَقْهقر في هدوء، وعوّل على أن يعتمد على ما لديه من موارد الرأي.. ولو أنه كان يشعر– منذ مرضت– بضَعْف حيلته.. وأخذ يفكِّرُ في ابنهما: إن الأم أكثر أُلْفة ولباقة وتأثيرا على الابن، وقد تَدْرَأ الخطر المحدق.. وقال لنفسه في أسى وهو يرمق المريضة:

– إنني وحيد!

ثم خرجَ في خُطَى مسترقة، ناعمة، فوجد "**مرجريت**" في قاعة الاستقبال منكبة على الكتابة، وسرَّى عنه مرآها الحبيب، فقال لنفسه:

– ها هي ذي التي سَتُسَاعدني، فما من أُخْت تفوقُها إخلاصًا!

ودنا منها، فما إن رفعتْ إليه وجهها مبتسمة حتى غالب قلقه. وقال:

– ماذا تَفْعلين يا صغيرتي؟ أُراهن أنك تُكلّفين متجرا كبيرا بأن يتولّى إعداد جهاز عرسك.

فابتسمتْ قائلة:

– لم تُصِبْ الحدْس يا أبتاه!

فقال:

– إذن فأنت تعلنين لزميلات الدراسة نبأ خِطْبتِك..

فقالت:

– ولا هذا أيضا!

وواصَل تخْمينه قائلا:

– إذن فأنت تَدْعين خطيبك ليتناول عشاءه هنا الليلة.

– ليس ثمة ما يدْعو إلى ذلك!

وبَسَطتْ إليه "الكراسة" التي كانت تكتب فيها، فأدرك أنها "كتاب الأسرة".. فقد كان لآل "**روكفيار**"– بحكم العادات القديمة– كتاب سجّل فيه الأجداد إلى جانب ثرواتهم وممتلكاتهم، أهم الأحداث العائلية، كالزِّيجَات والوفيات والمواليد والإنْعَامَات والديون والعقود، وكل ما يُصورِّ الماضي، في وثيقة قيمة، مما يبث الثقة في المستقبل في نفوس أولئك الذين يَسْتَوْحُون آباءهم ويعتزون بنسبهم!

وقالت الشابة:

– إنني أُكْملَ نَقْصَه بالنسبة لأيامنا. فإن عودة "**موريس**" والإنعام على "**هوبير**" لم يكونا مُدَوَّنين فيه.

وتصفّح السيد "**روكفيار**"– بغير قليل من الزهو– ذلك السجل الذي ضمّ تاريخ الجَدّ والدَّأَب اللذين بذلتهما أسرته، ثم قال:

– تُرَى من سيعْني به من بعدك يا "**مرجريت**"؟

فأجابت:

– لكنني سَأستمر في العناية به!

فصاح:

– لا. يجب أن تكون المرأةُ لبيتها الجديد. وهنا تَضرَّج وجهها كتلميذة أخْطأتْ، وقالت:

– أخشى أن أكُون زوجة رديئة؛ لأنني سأظلّ مُتعلِّقة بالقديم على الدوام. إن كل ما يجري هنا يتغلْغَلُ حتى سُويْداء قلبي!

فلم يتمالكْ الأب إلا أن غمغم:

– يا طفلتي العزيزة!

ولكنها استطردتْ في حديثها:

– و"**موريس**"؟ أتُرَاهُ مسرورا بمكتبه الجديد. وبوردي، وبالنافذة؟ لو أنني كنتُ مكانه لتمنيتُ أن أعْمل بالقرب منك.

وهكذا تطرقَتْ إلى ما كان يشغل باله، فيسرتْ عليه الفضْفَضَة؛ إذ قال:

– من أجْله جئتُ أتحدثْ إليك. دار بيننا جدال منذ برهة، ولعلني كنتُ محتدا!

فهتفت:

– أمعقول أن تحتدَّ يا أبي؟

فأجاب:

– لقد أسأتُ إليه في النهاية، فخرَج غاضبا.. والغضب شرّ رفيق! فاذهَبي وراءه؛ فأنت خليقةٌ بأن تعيديه!

ونهضتْ "**مرجريت**" متأهبة في تحمس، وسألته:

– وأين هو؟

فأجاب:

– لستُ أدري.. لعلَّهُ في مكتب "**فرازن**". على أن البلدة ليستْ كبيرة– على كل حال– ولن تجدي عناء في مهمتك. وليَهْدك الله إلى مكانه!

فقالت:

– هَانَا ذي ذاهبة!

فعقَّب برفق:

– أحسبك تُدْركين أنني لا أستطيع الذهاب بنفسي!

فهتفتْ:

– لا.. لست أنت الذي تفعل ذلك، فهو لا يَسْتَحقهُ! لقد بدا غريب الأطوار منذ فترة من الزمن، حتى ليظنّ المرء أنه لم يَعُد يُحبنا!

وتبادلَ الأبُ والابنةُ نظرة، فأدركَ كل منهما ما كان في نفس الآخر، ولكنهما لم يشاءا أن

يخُوضَا في الموضوع، وأسرعتْ "**مرجريت**" إلى ارتداء قبعتها وسترتها، وانطلقتْ تبحث عن "**موريس**". فما إن بلغتْ الطريق حتى ولّت الحصن ظهرها، وسارتْ في شارع "**بواني**"، وسلكتْ أحد الدروب العديدة التي تؤلّف شبكة الطرق الداخلية في "**شامبيري**"، حتى بلغتْ ميدان المحطة.. وكان هذا الميدان- فيما مضى- مركز الحركة التجارية في البلدة، وما زالتْ به بعضُ المشارب العتيقة، ودارٌ من تلك الدور الإيطالية المزدانة بشرفة وأعمدة تجعلها أهلا لأن تُرسَم على لوحات للزينة أو على بطاقات البريد.. ولكن البيت كان في الواقع متسخا، متداعيا. كئيبا، لا يثير انتباها..

وعلى واجهة مبنى أُعيدَ إصلاحهُ كانت ثمة لوحة من الرخام الأسود، نُقشَ عليها: "في هذا البيت وُلِدَ: "جوزيف دي ميستر"، في أول نيسان (أبريل) سنة ١٧٥٣.. "**وأكزافيه دي ميستر**"، في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٦٣.. وتحت تلك اللوحة ثُبِّتَتْ لافتة مُذَهَّبة تشير إلى مكتب موثق العقود، فسارت "**مرجريت**" في اتجاه السهم المنقوش على اللافتة، وصعدتْ السلم ودقاتُ قلبها تتوالى في عنف؛ إذ كبَّدها قُدومُها جُهْدا ممضّا، وطرقت باب مكتب "**فرازن**"، ثم وَلجَتْهُ، فسألت أول كاتب وقع عليه بصرها:

- إنني أختُ السيد "**موريس روكفيار**". هل أستطيع مقابلته؟

فقال الشاب وهو ينهض في احترام جم:

- إنه غيرُ موجود يا آنسة؛ إذ لم يأت بعد الظهر!

ولكن كاتبا آخر لم تلمحه "**مرجريت**"- إذ كان خلف أحد المكاتب- قال في صوت أجش مُفْعَمٍ بحقد عارم:

- ابحثي عنه لدى السيدة "**فرازن**".

وكَستْ الحمرةُ وجه الفتاة حتى أذنيها ولكنها شكرتْه، واتجهتْ دون تَوان إلى مسْكن السيدة "**فرازن**"، وضغطتْ الجرس. ولم تَتلقَّ جوابا؛ فأدركت أن السيدة في الخارج، وخامَرهَا ارتياحٌ في البداية ولكنها لم تلبثْ بعد أن سارتْ بضع خطوات أن أحسّتْ بالأسف؛ إذ كانت تلك فرصتُها الوحيدة للحاق بأخيها. فأين تعثر عليه بعد ذلك؟ واتجهتْ إلى شارع "**فافر**" حيث كانت دار السيدة "**مارسيلاز**"- أختها الكبرى- فوجدتْها عائدة مع أطفالها الثلاثة. وما إن رآها "**جوليان**" الصغير حتى ارتمى عليها، وأبَى أن يدعها تمضي بينما قالتْ أختها في غير اكتراث:

- لا. إن "**موريس**" ليس هنا، فهو لا يزُورني إطلاقا..

فلقد كانتْ أيةُ شكوى من ابنتها "**أدرين**" تحظى منها باهتمام يفوقُ اهتمامها بأخيها!

*****

وأخذتْ "**مرجريت**" تذْرَعُ شوارع البلدة- بعد هذا الفشل المتكرر دونما أمل كبير- وهي تسرعُ الخُطَى وكأنها تهرب من شبح يطاردها. وتحت "**البواكي**" التقتْ بخطيبها الذي بادر إلى

اسْتيقافها، فعادتْ إليه بعد أن تَجاوزتْه، وقالت دون إبطاء:

– نهارك سعيد يا "**ريمون**" .. ألم تلتق بـ"**موريس**" ؟

فأجاب الشاب:

– نعم لم ألتق به يا "**مرجريت**" .. أتبحثين عنه؟

وإذ أجابتْ:

– نعم.

قال لها:

– هل أسَاعدكِ؟

ولكنها قالتْ:

– لا. شُكْرا.. إلى اللقاء في المساء.

وراقبها "**ريمون**" – خطيبها – وهي تبتعدُ بمشيَتها السريعة، وقال في نفسه:

– إنها ليستْ لطيفة.. فهي مُتحفِّظة معي على الدوام!

ولكنه ظلّ يتبعُها بعينيه حتى اختفتْ. وواصلت "**مرجريت**" سعْيها دون جدوى. فلما بلغت الكاتدرائية التقت بصديقة صغيرة، هي "**جان سيسيناي**" التي كانتْ تَسيرُ برفْقَة خادمتها، وكانت "**جان**" في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها، تبدو طفلة أصغر من سنها الحقيقي، وقد تَهدّلتْ على ظهْرها غَدائرُ من شعرها الأشقر، وبدا وجهها وادعًا، وأسرعتْ الفتاة إلى الآنسة "**روكفيار**" التي كانت شديدة الإعجاب بها، وهتفتْ:

– آنسة "**مرجريت**"، هل أنت في عجلة؟

فحيتها الشابةُ قائلة:

– نهارك سعيد يا "**جان**"!

وقالت "**جان**" مُسْترسلة:

– إنك تَحْذين حذْو أخيك الذي يقابلني في الشارع فلا يُحيِّيني، مع أنني بلغتُ السنَّ التي أسْتَحقُّ فيها التحية!

وأطرقتْ برأسها قليلا، وهي تتمنَّى لو أن نظرتها أضَافتْ إلى ثوبها طولا، فقالت "**مرجريت**" مُقرة حديثها:

– هذا صحيح ولكن، أين تُرَاكِ قابلت "**موريس**" ؟

– على جسر "**ريكلي**".

– الآن؟

– لا. قبل أن أتلقّى درسَ الموسيقَى.. منذ ساعة أو ساعتين.

– وإلى أين كان ذاهبًا؟

– لستُ أدْري. قولي له: إنه غير لطيف!

– سأنبِّئه ولا شك؛ فهذا عيبٌ لا يُغْتفر، ولاسيما إزاء صديقاتي.

فقالت "**جان**" وهي تضحكُ كاشفة عن أسنان بيْضاء حادَّة:

– ومع ذلك فإنني أغفر له!

وانصرفت، فمكثت الآنسة "**روكفيار**" وحيدة؛ إذ ذاك تحت باب الكنيسة مواربا، فمرقتْ خلاله إلى المكان المقدّس، ولم يكن تحت القباب– في تلك الساعة– سوى شخصين أو ثلاثة ركعوا في العتمة مُتباعدين.. ولكن "**مرجريت**" وجدتْ عناء في أن تنْدمجَ في الصلاة.. فقد راحت تتصور– أحيانا– أية امرأة فاتنة ستصير إليها تلك الصبية الخفيفة المرحة، بعد ثلاثة أعوام أو أربعة.. وكانت تعْبسُ أحيانا أخرى حين تتذكر أخاها "**موريس**".. وتتمثَّلُ– في أحيان ثالثة– وجه أبيها المفْعم بالقلق.. أما نفْسُها، فلم تفكر فيها مطلقا.. وتملَّكتها الدهشة، وهي على عتبة الكنيسة، من أن أفكارها لم تمسّ قط خطيبها، ولا نفسها!

ودبَّتْ فيها شجاعة جديدة، فقفلتْ عائدة إلى مكتب "**فرازن**" وفي هذه المرة أيضا، أبت أن تطرق باب السيدة "**فرازن**". حتى إذا أعْيتهَا الحيلُ، سلمتْ بالهزيمة.

وفيما كانت تسير في شارع "**بواني**" راجعة إلى دارها تجلّى أمامها بُرْجا دار المحفوظات والحصن، في ظلّ رقعة من السماء التي أسبغتْ عليها الشمس الجانحةُ إلى الغروب حُمْرة.. وفي وهج الشمس الخابي، تبدَّى هذان الأثران– من آثار الماضي– في أبهَى جلالهما، وكأنهما يعْرضان روَعتهما قبل أن يغوصا في الظلام!

وكانت الأمْسيةُ من تلك الأمْسيات البديعة التي اختَصَّتْ الطبيعةُ الخريف بها، وقد اتسمتْ ببهاء رائع يجعل الإنسان يشعر إزاءهُ بضعفه.. كما كانتْ اللحظةُ من لحظات السمو والعظمة التي تسبق الفناء: فناء النهار!

وأُخذتْ الفتاة بهذه الصورة الرائعة التي ارتسمتْ على صفحة السماء ولكنها أغذَّت السير إلى دار الأسْرة العتيقة بدلا من أن تتمَهل لتستزيدَ من مشاهدة المنظر. وتساءلتْ بمجرد أن بلغت الباب:

– هل عاد "**موريس**"؟

فأجابتْها الخادم:

– لا يا آنسةُ، لم يَعُد بعْد، ولكن السيد ينتظرك..

وبادر السيد "**روكفيار**"– الذي سمع الحديث– إلى فتح باب غرفته لاستقبالها، هاتفا:

– ما وراءك يا "**مرجريت**"؟

فأجابتْ:

– إنني لم أجدْهُ يا أبت..

وكان في العبارتين اللتين تَبادلهُمَا الأب والابنة كلُّ الحزن الدَّفين، مع شعور بالخوف من كارثة توشكُ أن تنقضَّ.. كارثة أفدح من ذلك النوع الذي تُثيرُه نزوات الشباب، من جرَّاء السلطان الخارق الذي رأيا السيدة "**فرازن**" تفرضهُ على "**موريس**"!

٣ - هضبة "كالفير دي ليمنك"

ما إن غادرَ "**موريس روكفيار**" دار أبيه حتى اجْتاز البلدة، ويمّمَ لفوره شطْر هضبة "**كالفير دي ليمنك**" حيث كان على موعد مع السيدة "**فرازن**"، وكان اختيار هذا المكان تحديا منهما للناس؛ فقد كانت الهضبة تُشْرف على "**شامبيري**"، وتشاهدُ من أي مكان في البلدة، وقد كانت في الماضي صخرة عَارية، ذاتَ قيمة عسكرية كبيرة، حتى لقد أُقيمَ فوقها- في عهد الدوقات السابقين- مَركزٌ لتبادل الإشارات باللهب مع المركزيْن القائمين على جبل "**ليبين**" وجبل "**لروش دي جيت**" السامقين، حيث كان يُرابط حُراس الحدود الفرنسية ذوو البأس. أما اليوم فمن السَّهل بُلُوغ الهضبة خلال طريق صاعدة، تبدأ عند ضاحية "**ريكلي**"، وتمتدُّ فوق الخطوط الحديدية، تحفّ بها من أحد الجانبين جدرانٌ شاهقة لدير عتيق، ومن الجانب الآخر مَنازل شعبية ذات طابق واحد، فإذا جاوزَ المرءُ نطاقَ هذين السِّيَاجَين المحيطيْن بالطريق، وجد نفسه في وسط ريفي، وتبيَّن أمامه الهضبة الصغيرة، لا تتوّجُها استحكاماتٌ عسكرية- كما كانت في الماضي- وإنما تقوم عليها كنيسة تبدو عن بعد مكشوفة لسلسلة جبال "**ريفار**" و"**نيفوليه**"، فلا يحْميها سوى سيَاج رفيع من نباتات الطَّلح، والأعشاب النحيلة، وهناك طَريقٌ صاعدة أخرى غيرُ مكتملة التعْبيد، وتتخللها أكواخٌ خالية.. وما عدا ذلك كان المكان مهجورا، لا يُصَادفُ مُرْتاده أحدا، وإن رُؤِيَ هو على البعد..

أما كنيسةُ "**كالفير**" الصغيرة- ذاتُ النَّمط البيزنطي- فكانت تَتألّف من قبة، ورُواق قائم على أعمدة أربعة، وترتفع فوق مستوى الأرض ببضع درجات، وقد دفُن تحتها- في سنة ١٨٣٩- أحد أساقفة "**شامبيري**"، ونُحت قبرُه في الصخر.. وما عدا ذلك كان باقي الكنيسة خاويا.

وما إن بلغ "**موريس**" بدَاية سياج الطلح حتى تبيّن إنْسانا جالسًا على السلم، بين أعْمدة الكنيسة.. كانت السيدة "**فرازن**" في انتظاره، فلم يَحْفُل بأغصان الطلح المحيطة به، في لونها الذهبي الباهت، ولا اكْترثَ للجبال البنفسجية التي امتدتْ أمامه تحت أضواء الخريف؛ إذ لم يَعُد يرى سوى تلك الجالسة وقد حفّتْ بها أعمدة الكنيسة كالإطار! وكانت تعْتمدُ بمرفقيها على ركبتيها، وتحتوي وجهها بين راحتيها اللتين لاحتا تحت الشمس ورديتين، شفافتين.. وجلستْ ساكنة ترقُبُه في اقترابه بعينين مُتَّقدتين. فلمّا دنا منها نهضت بحركة مفاجئة، كحيوان يبدو وادعا، ثم إذا به فجاة يغْدو كُتلة من الأعصاب المتحفّزة!

وبادرته قائلة:

- خَشيتُ ألا تأتي، فكأنما توقَّفَتْ حياتي عن اسْترسَالها!

فقال:

- لقد أخّرني عائقٌ يا "**أديث**".

وكان بادي الاضطراب حتى إنها أشفقتْ عليه فلم تُعاتبه، وإنما أمسكتْ بيده، وقادته إلى ما وراء الكنيسة، فأشارتْ إلى عُشب متكاثف، وظلّ وارف، وقالت:

– هل لكَ في أن نجلسَ هنا؟ إن الجو ليس باردا، والمكان مريح.

وجلسا متجاورين وقد أسندا ظَهْرَيْهما إلى جدار الكنيسة التي كانت تفصلهما عن "**شامبيري**" والعالم، ولم يكونا يُشَاهدان في مواجهتهما سوى جبال "نيفوليه" السَّابحة في الأضواء. والتَصَقَتْ المرأة به لتجْلُو معالمَ وجهه، وهتفت وكأنها تشكو إليه ضناها:

– لكَمْ أحبك!

ألم يكن حبهما مبعث ضنى ومتعة في آن واحد؟ وكانا قد رَفَعا كُلَّ كلْفَة بينهما. برغم أنهما لم يكونا قد أصْبَحَا بعْد خليلين.. وتراجَعتْ المرأةُ قليلا لتتأمله، ثم تساءلتْ:

– هل تُعاني ألماً؟ أو هذا بسببي؟

فروَى لها بإيجاز ما جَرى بينه وبين أبيه، وما ذَكرَهُ هذا من اكتشافه سرّ غرامهما، والمتاعب العَسيرة التي تَرتَقبهُمَا. ثم استطرد متسائلا:

– فماذا تَرينَنا فاعلين؟

وردّدتْ بدورها:

– أجل. ماذا تُرانَا فاعلين؟ إن سرَّنا لم يعدْ قاصرا علينا، ولم أعدْ من ناحيتي قادرةً على إخفائه.

فردَّدَ هو الآخر بمرارة:

– لم يَعد سُرنا خافيا.. ومع ذلك فإنك لم تُسْلميني نَفْسكَ قط!

وإذ ذاك أسندتْ رأسها إلى صدر الشاب، وقالت في صوت ليِّن، تمُس نبراتُه القلب كما تمس الأصبع وَتَر الآلة الموسيقية وكأنها تُهدهدُ بهذا الصوت الليِّن قلبه:

– لا تَزْعم أنني لم أُسْلمكَ نفسي.. أطلبْتَها وأبيْتُها عليك أيها الخبيث؟ أتريدُ أن نبدأ؟ إني لك.. إنك لم تزل شابا في حين أني سوف أبلغ الثلاثين عما قريب.. ثلاثون عاما، ومع ذلك فإن غرامي الذي يعادلُ حياتي كلها لم يُولد إلا منذ بضعة أشهر.. لقد كنت أنظر إليك فَأرى الشمسَ تغمرك؛ ومن ثَمَّ خرجْتُ من الظلال لأنضمَّ إليك. ولسوف أرْوي لك يوما قصة طفولتي وزواجي، حتى أرى دموعك حين يهزك الألم!

وهتف الشابُ:

– "**أديث**"!

فقالت:

– آه! إن النساءَ اللاتي لم يكنْ الزواج بالنسبة لهن سوى باب يَنفُذنَ منه إلى النور– وليس إلى السجن– يَتَسلَين بازدراء ضعفنا! أليس من الطبيعي أن يكن أكثر منا رضا بالقدر لأنه آثرهُنَّ؟ ولكنهن لا يفكرن قط في ذلك، فَكَأنّ الهناء حق لهنَّ لا نزاعَ فيه؛ ومن ثمّ فهُنّ لا يبْذلْنَ جهدا لصيانته، فإذا فقدنْه انقلبن يتهمن القدر ويسْخَطنَ عليه دون أن يلمن أنفسهن!

فقال:

– "**أديث**"! إنني أحبك، ومع ذلك فإنك لسْت سعيدة!

وإذ ذاك نهضتْ نصف واقفة، واحتوت وَجْهَهُ بين راحتيها في وَلَه، وقالت:

- امنحْني سنة من حياتك في مُقَابل حياتي كلها! أتقبلُ؟ هيا، لنرحل وننس كل شيء فلستُ أريد أن أمضي في الكذب.. لا أريد أن أكونَ لغيرك.. لا أطيقُ ذلك ما دمْتُ لك. ووثبتْ واقفة.

وكانت الهضبة تنحدر انْحداراً حادا، على طريق "**إكس**"، في بُقْعة غير بعيدة عنهما- خلف الكنيسة- فاقتربتْ منها لتُطلّ على الفراغ الجاثم تحتها. وصاح "**موريس**":

- "**أديث**"!

فعادت إليه هادئة، مبتسمة، وقالت وهي تجلس بجانبه:

- إنني أحب الدُّوار، ولكنني لا أحسُّ به إلا هنا!

*****

وعادتْ إلى الحديث عن المستقبل قائلة:

- إن سرَّنا أصْبَح معروفا. ولسَوْف يعلمُ به زوجي عما قريب، بل لعلهُ يرتَابُ في أمرنا فعلا، وهو يحبني بطريقته التي تثُير تقززي! بل إنني لواثقة بأنه يُراقبنا، وبأنه سينتقم منا، وسيرسم انتقامه على مهل، كما يفعل في كل أعماله!

فهتف الشاب:

- اسْمَعي يا "**أديث**": يجب أن تَحْصُلي على الطلاق منه!

فصاحت:

- الطلاقُ؟! لقد فكرتُ في ذلك، ولكن ماذا تُرَاني فاعلة إذا عارضَ زوجي في الطلاق؟ ولسوف يُعَارِض! فضلا عن أن طلب الطلاق؟ يستغرق دائما عاما أو اثنين، أو أكثر! ولسوف أُضْطَر خلال هذه المدة إلى الإقامة مع أَهْلي، بعيدا عن هنا، وإلى أن أظلّ دائما في انتظار. تَصوّر.. عامين آخرين في السجن! لسوف أصبح بعد ذلك عجوزا. وسأفْترق عنك طيلة المدة.. أفْترق عنك، فهل تفقه ذلك؟ لقد درستُ الموضوع كما ترى، فإذا به مستحيل!

وسكت الاثنان، وقد مال كل على صاحبه، لا يعكّر الصمت الذي لفَّهمَا سوى ذلك النِّداء الصامت الذي كان ينبْعثُ من أعماقهما.. وفجاة، أحسّا بحركة عند نهاية الجدار القريب، فانتفضا. وتمتم "**موريس**":

- هناكَ شَخصٌ قادم!

فأجابتْ في جُرأة:

- لنبقَ حيث نحن!

وبقيا.

كان مَصيرُهُما في أيديهما فقط، وليس بوسعهما في تلك اللحظة أن يأتمنا عليه سواهما. ولكن القادم الذي خشيا أن يكْشفَ سرهما لم يكنْ سوى عنزة.. عنزة كانتْ تلتهم الحشائش

القليلة، وفي أعقابها صبية أمسكتْ بعصا، ورَمقتْهما الصبيةُ في غباء، ثم تَابعتْ سيرها؛ فشعرا بالأسف؛ لأن المفاجأة لم تكن ذات نتائج تحلّ قضيتهما حلا لا رجْعةَ فيه!

وأخذ الوقتُ يمرّ دون أن يستقرّ "**موريس**" على رأي: هل يستمران في حمل الأغلال الثقيلة وهما ينحدران في علاقتهما، أو يحطمان القيدَ ويمضيان في غير حذر ولا حَيْطة؟!

ومالت المرأة على "**موريس**" تقْرأُ في عينيه ما كان يدور في نفسه، وتمتمت:

– لماذا تروغُ عيناك– عيناك الحبيبتان– من نظَراتي؟

فتنهد وهو يُرْخي جفنيه وقد أحسّ دوَارا كذلك الذي غشيه حين رأى المرأة تُطِلُّ على الهاوية، ثم قال:

– لست أدري!

وتحولَتْ تقبل أهْدابَهُ، قائلة في عذوبة انطوتْ على قرار جريء:

– إنني أحسُّ بقلبي يتحكَّم في هذه الأيام الذهبية، أيام الخريف.. وكل مساء يهْبط يحمل لي ألما، وكأن قسطا من سعادتي يُسْلَب مني سلبا.. سأرحَلُ الليلة فهل تفقه هذا؟

وانتفضَ "**موريس**" عند سماعه القرار غير المرتقب، فَتمَلصَ منها، وهتف:

– صَهْ يا "**أديث**"!

ولكنها أجابتْ:

– لعلكَ كنتَ تظنني أتظاهَر بتهديدك، حين كنتُ أقول ذلك في الأيام الأخيرة.. ولكنكَ تخْدعُ نفسكَ يا "**موريس**"، وسَأَرحَلُ الليلة!

لقد كانت تُغْريه بالسفر من قبل، فكان يستَبعدُ هذه الفكرة العسيرة التحقيق، ويُمَنيها بأن يرحل هو أولا ثم يستَدعيها بعد أن يتمكن من العثور على عمل في "**باريس**". فلمّا رأى نفسه أمام هذه الوثبة المفاجئة، التي تفوق سابقاتها عنفا وإصرارا تولاه الغضب والانفعال، وتحوّل يضْرَعُ بكل قوة ورجاء:

– صَهْ! سأمْكثُ هنا معك.. إنني أحبك!..

ولكنها عادتْ تقول للمرة الثالثة وقد ازدادت حماسا وعنادا:

– سأرحل الليلة.. إن القطار الذاهب إلى "**إيطاليا**" يرحل في منتصف الليل.. وفي منتصف الليل سَأتحرَّرُ من كل قيد!

وفَرَك "**موريس**" يديه في قنوط، وهو يردد:

– اسْكُتي!

ولكنها مضت مُستأنفة حَديثَها:

– سأغْدُو حُرة في إعلان حبي.. حرة في أن أتَذوقَ هذه المتعة الجديدة.. مُتْعة البكاء دون خوف إذا لم تَكُنْ إلى جواري.. حرة في أن أعْشَقكَ إذا جئْتَ معي!

فهتف:

- ناشدتك الرحمَة! هلا سَكتّ؟

ولكنها مضت قائلة:

- إنني أختنقُ في بلدتك.. إن منازلكم العتيقة مُفْعَمةٌ بالروائح العَطِنة.. إنني أختنقُ لفرط عاطفتي كما ترى. لسوف نظل منفصلين لو أننا مكثنا هنا، ولكني أُرِيدُ أن أسْتمتع بعذابي إذا أنْت لم تصْحَبْني أما إذا أتيت فسأتنسم أنفاس الحياة.. فهلا أتيت؟ هل تأتي الليلة؟

وسعتْ بقبلاتها إلى إقناعه، فوعدها.

ومكثتْ لحظة تستمرئ لذة انتصارها، ثم غمغمتْ:

- لقد نسيتُ كلّ حَياتي الماضية!

وقادته بعيدا عن الجدار الذي استترا وراءه إلى وضح الشمس، أمام كنيسة الهضبة. فما جدوى الاستتار؟ وفي نَشْوة، رأيَا الأرض تنبسطُ أمامهما، تحت السماء الصافية، في صورة متألقة.. وأمامهما- عند أقصى الأفق البعيد- بَدتْ قمم جبال الألب الصغرى: "**ليه سيتلو**" و"**بيرلاني**"، و"**جران شارينيه**" كوشي رقيق باهت تخلل الفضاء بين جبال "**جرانييه**" وهضبة "**لاروش دي جسيت**"، وقد توّجتْها طلائعُ الثلوج، وأضْفَى عليها النهارُ غُلالة وردية، وعلى مسافة أبعد- إلى اليمين- بَدتْ سفوحُ "**إيشيل**"، وقد لاحتْ كذب روسي، فراؤهُ منسوج من الغابات التي أحرقتْها شمْسُ الخريف!

وقامتْ أمام هذه السلاسلُ الجبلية تلالٌ رشيقة جللتْها الأزهارُ.. تلال "**شارميت**" و"**مونتانيول**" و"**سان كاسان**" و"**فيمين**" التي كان البصرُ يتهالَكُ مستريحًا على مُنْحَنَياتها البسيطة، وتموجاتها الناعمة.. وكانت أفواجُ من النور تتَسللُ خلال منعطفاتها، وتلمع وسْط الغُبار في ظلالها.

أما أبراجُ الكنائس المشوقة كالحراب، وأشجار الحُور ذاتُ الخضرة المشوبة بلون الذهب، فكانتْ تبدو كخطوط تُزيّن المنظر. وبدت "**شامبيري**" راقدة في السهل، كما لاحت الكرومُ- التي امتزجتْ فيها الألوانُ الذهبية القاتمة والوهّاجة- كأنها زغردة تُجلجل في الفضاء.

وهتفتْ "**أديث**" في ضراعة:

- أرني أين تقعُ "**إيطاليا**"!

فأشار في غير اكتراث إلى اليسار، ولكنها التفتتْ إليه- بدلا من أن تتبع إشارته- فرأت وجْها مُثْقَلا بالضّنى، وظلّتْ صامتة؛ إذ أدركتْ ما كان يُخالجه.. كان بوسعها أن تعجبَ بهذا البهاء الطبيعي إعجاب أي سائح عابر، ولكن هذا لم يكن شُعورُ زميلها. ألم يكن ذلك هو الجُهْد الخارق الذي تبذله طبيعة بلاده لاستبقائه؟ فقد تراءتْ له مزرعة البرج- "**فيجي**"- وذكريات طفولته واضحة مشرقة، تُحَلّقُ محمومة فوق الأرض، كالعصافير، ميممة شطره.. وعلى مسافة أقلّ، بدا له "بيت الأسرة" أمام الحصن.. ذاك الذي كان الكل يدعونه: "**البيت**" وكأن العالم لا يَضمُّ بيتا سواه.. وقرأتْ المرأةُ في عيني "**موريس**" هذا الصراع الأخير فداخلها

شيء من الغيرة؛ إذ لم يكن لديها ما تضحّي به مثله.

وتنهدتْ ثم مسّتْ ذراعيه قائلة:

– اسمع.. دعني أرحل وحدي!

وضايقه أن تَكَشَّفَ لها ما كان يدور في قرارة نفسه من اعتراضات غريزية مُبْهمة، فقال:

– لا. لا.. أتَرَاك لم تعودي تحبينني؟

فهتفتْ:

– بل إنني أحبك!

وابتسمتْ له في عُذوبة صافية، لم ير لها مثيلا، وذَكَا لهيب عينيها.. كانت من نساء اليوم: مشْبُوبة "الإخلاص"، جامحة النزوات، وقد ضاقت فجأة بالصبر الذي التزمتْه صامتة تسع سنوات، فعقَدتْ عزمها على أن تنتهز غيبَة زوجها الطّارئة لتفرَّ من سجن الزوجية مهما يكنْ الثمن! ولقد تأهّبتْ لمغامرة الفرار في هذه الظروف المواتية، وأحسنتْ اختيار الساعة. وها هو ذا انْفعَال "**موريس**" وحيرتهُ يكادان يُلْقيان به تحت رحمتها، وفي قبضتها. ولكن أيّ العاطفتين أقوى في نفْس فتاها: أن يُشَاركَها مصيرها المحتوم المحْفُوف بالخطر، أو أن يبقى في بيئته الطبيعية؟

لقد كانتْ تحتملُ حياتها قبل أن تحبه، ولكنه بثّ في نفسها روح التمرُّد دون أن يدْري، فكيف تفارقه؟

كان الاقتراح الذي تعرضه عليه يُحَطّمُ فؤاده، ولكنها مع ذلك تمضي في إصرارها.. إنها لم تعان قط هذه الحيرة التي تَنْفُذ إلى أعماق النفس، فتفعل بها ما تفعله الشمس الحامية بصحراء رطبة باردة!

وعادت تقول:

– لن تلبث أن تنساني رويدا، وعلى مر الزمن، فلا تعارض، وأصغ لِنُصْحِي. إنك ما تزال فتيا، تنبسط أمامك الحياة على رحبها، فدعني أرحل!

ولكنّ هذا العطف المشُوب برثاء جارح أثار حَنَقَهُ.. ما الذي يمْنعه من الرحيل معها؟ أهو عقْله؟ العقل الذي لم يتجاوز عمْره أربعا وعشرين سنة! ألم يهْده هذا العقل إلى أنّ لكل امْرئ حقا في السّعادة؟

وغمغم "**موريس**" أخيرا:

– لستُ راغبا في الحياة دونَك!

فعادت تقول:

– سأبقى إذا كنت تؤثر ذلك، وسَأريك كيف أتعلّم أنْ أحْذق الكذب. فإنّ الإنسان لا يتورّع عن كل الدناءات في سبيل حبّه!

ولكنّ هذا الاقْتراح جاء بعْد أوانه.. وكانتْ تدرك ذلك، وتتوقّع أن يرفضَه. فما إنْ فعل حتى ألقتْ بنفسها على صدْر حبيبها الذي راح يتمتم:

- إنني أحبّك حتى الموت.

وهتفتْ:

- فقط؟ إنّ حبّي يفوق حبك!

- مستحيل!

- بل هو الحقّ: أحبّك حتى الإجْرام!!

وأردفت في غير اكتراث:

- سأحْمل معي صداقي. الليلة.

وهنا تَذَكّر هواجس أبيه، فهتف:

- صداقك!؟

قالت:

- أجل. إنه مثْبت في عقْدي. ألم أرك إيّاه؟

فقال:

- ليس من حقّك أن تأخذيه إلا بحكْم قضائيّ.

ولكنها صاحتْ:

- أو تريد أنْ أدع لزوْجي ما هو حقّ لي؟ وكيف نَعيش؟

فأجاب:

- سنحْصل الليلة على بعْض المال يا "**أديث**"، ولن ألبثَ أنْ أحصُل على عمَل في "**باريس**"، فقد وعدني صديق يدير أبوه مصْنعا كبيرا، بأن يعينني في قسْم القضايا بالمصْنع، وقد ذكَّرْتُه بوعْده منذ عهْد قريب بمجرد المصادفة!

ولم تشأ المرأة أن تخفّف من تفاؤله، فقالتْ:

- أجل، لسوف تعمل، ولكننا سنَصل إلى "**باريس**" فيما بعد. أمّا الليلة فسنرحْل إلى "**إيطاليا**"!

فتساءل:

- ولماذا؟

وإذ ذاك أجابتْه:

- أليستْ هي قبْلة المتزوّجين في شهْر العسل؟

ونكّستْ رأسَها في اسْتحْياء، فبدتْ فجْأة كخطيبة عذراء في الثلاثين من عمرها، تتبدّل أساريرها بسرعة من الحيرة إلى براءة الطفولة.. كانت تَعضُّ الحياة بنَواجذها في نَهَم، كما يعضُّ المرء الفاكهة الفجَّة فيضرس! وأخذ الظلام يزْحف على السّهل فازدادتْ فتْنة الطبيعة أمام بصريْهما؛ إذ خلعت عليها شمْس المغيب غلالة ذهبيّة.. وكانت ليالي الخريف البديعة تُثِير في المرأة لوعة كلوعة الشّهوة، فهتفتْ تُمَنّي نفسها:

– غدا.. غدا!

وخطا "**موريس**" إلى الأمام، مُولّيا المنْظَر ظَهْرَه؛ حتى لا يرَى سواها.. سوى فاتنته التي استندتْ إلى أحد أعمدة الكنيسة. لقد أصبحتْ بعد قرارهما وطنه الأوحد!

وهبطا الهضبة معا فسارا جَنْبا إلى جنب حتى جسْر "**ريكلي**" غير عابئيْن لما يتعرضان له إذا رآهما أحد من معارفهما وقالتْ المرأة عندما همّا بالافتراق:

– لقد أوشكتْ السّاعة على الخامسة، وما تزال أمامنا سبْع ساعات.

وأذكى الأمل لهيب عينيْها، بينَما اسْتعرض "**موريس**" – في اشمئزاز– تلك الساعات القاسية التي يتحتَّمُ عليه أن يخون أسرته فيها. وأدركتْ المرأة ما كان حبيبها يُعَانيه، فرثتْ له، وقالتْ تُبَدّد مقدما ما قد يعترضه من مؤثرات:

– هل تقْوى على الكذب ليلة بأسرها يا طفلي المسكين؟

فانْتفض إذْ فَطن إلى أنها كَشَفَتْ ما بنفسه، وكرَّرَ– في شيء من الخشونة– ما قالته من قبل:

– إنّ الإنسان لا يتورع عن كل الدناءات في سبيل حبه!

فقالتْ:

– سترى أنّ الكذب بشع، فتلمس ذِلّتي وعذابي.. فإنني أكذب منذ أحببتك! تشجّع، وإلى اللقاء الليلة!

✲✲✲✲✲

وأسْرَع "**موريس**" – قبْل أنْ يعود إلى البيْت– إلى السّعْي للحُصول على المال اللازم.. ومن عمّ أبيه "**اتيين روكفيار**" – الطاعن في السنّ، والمعروف ببُخله– ومن عمّته "**تيريز**"، التقيّة، المحسنة، حصَل على ما يقْرب من ألف فرنك.. وأخذَ من أخْته– السيدة "**مارسيلاز**" – خمسمائة فرنك، ومثل هذا المبلغ من "**ريمون بيرسي**"، خطيب أخْته.. وتعلّل في سبيل ذلك باضطراره إلى سدَاد ديون كان قد اقْترضها أثناء الدّراسة، كبّدته هذه الخدْعة ضعَة وهوانا قدمهما قربانا لحبه، وإن لم يجد من ضميره ارتياحا!

ولم يفْطُن في هذه الأثناء إلى أنّ أحدا من معارفه– غيْر الأقارب– لم يبْسط له يد العون، وهو يدور عليهم مسْتجديا، في حين أنّ أسْرته ساعدتْه– في محنته المفتعلة– عن طيب خاطر.. وأنّ أية خشونة بَدَتْ منهم كانت مبرَّأَةً من كل حقْد!

وقفَل راجعا إلى مكتب "**فرازن**" في السّاعة السّادسة، فإذا الموظفون يوشكون أنْ يغلقوا الأبواب منصرفين، فقال لهم:

– انْصرفوا أنْتم، فإنني سأكتب بعض الخطابات، ثم أحْكم إغلاق الأبواب!

وكتب بعْض الخطابات فعْلا لمعارفه الذين كانوا يشْغلون مراكز مهمة، يسْألهم العوْن في الحُصول على عمل ذي مرتّب طيب في "**باريس**"، ولما كان قد تفوق في جميع الامتحانات،

فقد اعْتمد على توْصيَة أساتذته السّابقين. ولم يكنْ قد تعرَّض من قبْل لصعاب الحياة؛ ولذلك، وضَع ثقته في كفاءته العلمية، ولم يخامرْه ريْب في التغلب على كل العقبات. ولكن إلى أين يرسل أولئك الناس ردودهم؟ وتردد قليلا، ثم حدّد العنوان:

– يحفظ بشباك البريد، "**ميلان**".

واسْتطاع "**موريس**" بهذه الاستعدادات التي شُغلَ بها أنْ يخادع نفسه ويروغ من النّدم الذي كان يُساوره بسبب الرّحيل. على أن هذا النّدم عاوده، حادّا نفّاذا، عنْدما اضطرّ إلى اجْتياز مدْخل دار أبويْه للمرّة الأخيرة. ومع أنه تسلّل إلى غرْفته وأغلقها دونه إلا أنّ الجميع أحسُّوا به. فلمّا حانتْ ساعة العشاء أقبلتْ "**مرجريت**" تدْعوه، فإذا به معتمدٌ برأسه على يديْه، تحتَ المصباح، وقد اسْتغرق في الأفكار إلى درجة جعلتْه لا يسْمع طرقاتها، وأمسكتْ الفتاة بيديه في حنان؛ فتململ لهذا التلطف منها. وسألته:

– ما الذي يحْزنكَ يا "**موريس**"؟

فأجاب في اقتضاب:

– لا شيْء!

ولكنها عادتْ تقول:

– إنني أخْتك الصّغرى، فهلا بثثتني أساك؟ من يدْري؟ لعلني لا أخْلو من نفْع لك!

ولكيّ ينْتحل لهُمومه عذْرا مقْبولا تعلّلَ بشدّة حاجته إلى المال ليفي بعْض المطالب، فاسْتوقفتْه الفتاة لفوْرها قائلة:

– انتظرْ دقيقة!

وغادرتْ الحجْرة ثم عادتْ بعد قليل متَهللة، ووضعتْ أمامه على المنْضدة ورقَة مالية من فئة الألف فرنك، وهتفتْ:

– أيكفيك هذا؟ لقد أعْطاني أبي ثلاث وَرقات لجهاز عُرْسِي، فبقيتْ منها هذه. لحسْن الحظ.

وهتفَ "**موريس**":

– إنك حمْقاء يا "**مرجريت**".. لا أريد شيْئا.

– لا. لا.. خذْها، فإنّي أُسرُّ لذلك. ولن يُضيرَني أنْ ينقُصَ جهازي بضْعة أقمشة!

وضحكتْ، فشعَر باعْصابه ترْتجف، وبالدّموع تبلغ حواف عينيه. وبذل جهْدا حتى كبحَها، ثم ضمّ الفتاة إلى صدْره.. إلى القلب الذي لم يكنْ قد آل بأكمله بعد إلى السيدة "**فرازن**".

وتمتم:

– أوليني حبك دائما، مهما يحدث!

فتطلعتْ إليه متسائلة، ولكنها خشيتْ أنْ يظنها راغبة في معرفة سرّه، في مقابل كرمها؛ ومن ثمّ اقتادته إلى قاعة المائدة، وهي تُسرُّ إليه في رفْق وكأنها تبتهل:

– كُنْ لطيفا مع الأب أزدد حبا لك!

وفرغتْ الأسرة من العشاء دونَ أنْ يقع ما يعكر صفْوها. وكان الفضل في ذلك لـ"**ريمون بيرسي**"؛ إذ إنّ وجوده يسرّ لقاء السيد "**روكفيار**" وابنه دون عتاب. وحين تقدّم المساء آب "**موريس**" إلى حجْرته متعللا بانه يشكو صداعا، وعرج في طريقه على مخدع أمه- التي ظلّتْ ملازمة فراشها- فقبّلها في الظلام، ولكنها عرفته من ملمَس شفتيه، فهتفتْ باسمه، وراحتْ تتحسس وجهه. وأفلتتْ من عينه دمعة، فبادر إلى الخروج.. ما أقسى ما كان الحب يكبده!

وأعدّ حقيبة ملابسه، متعمدا ألا يتْخمها حتى يسْهل عليه حملها بنفسه، ثم أودع حافظتَه ما كان لديْه من النقود والمبالغ التي اقْترضها، وورقة "**مرجريت**"، فزاد مجْموعها قليلا على خمسة آلاف من الفرنكات. وخُيّل إليه- بخبْرته الضّئيلة بالحياة- أنّها ثروة طائلة.. كذلك أخذ ما كان يمْتلك من مجوْهرات قليلة، عسى أن يفيد من بيْعها، وإذ انتهى من اسْتعداده أخذ ينتظر كسجين قُضِي عليه بالإعدام.. فهو يرْتقب ساعة التنفيذ، وأخذ عقله- الذي كان يؤمن بعصْمته من الخطأ- يؤازره في قراره، ويزيّن له الحياة المتحررة من كل الالتزامات، بعيدا عن البقاء في حلقة آل "**روكفيار**"، كأصغر أبنائها!

*****

أوى السيد "**روكفيار**" إلى مخْدعه وقد اطمأنّ إلى مسلك "**موريس**"، وما أبدته ابنته من ثقة، فلم تخالجه الهواجس، لاسيما وأنه كان قد قرّر أن يقصي ابنه عن "**شامبيري**" نهائيا. فقد كتب إلى صديق حميم، كان "**روكفيار**" يدينه بعدة أفضال، وكان قد استقرّ- بعد أن جاب الدنيا واستنفد كل ثروته- في "**تونس**"، حيث عمل في المحاماة، فنجحَ نجاحا كبيرا، وكتب مرارا إلى "**روكفيار**" يعرب عن حاجته إلى مساعد يَكِل إليه أعماله، رغبة منه في أن يستريح. أفلم يكن من السّهل على ابنه- وهو بعد في الرابعة والعشرين- أنْ يجد في مثل هذا الاغتراب، وفي مثل تلك الحياة بما فيها من جدة وطرافة، ما يمكنه من النسيان والنجاة؟!

وخُيّل إلى السيد "**روكفيار**"- في هدوء الليل- أنه سمع بابا يُفتَح ثم يغْلق، وظنّ في البداية أنه أخطأ السّمع؛ إذْ كان الصّمْت يخيّم على الدار، فحاول العوْدة إلى النوم. وبعد مقاومة لنفسه أشعل عود ثقاب ليتعرّف على الوقت، فإذا به قدْ تجاوز منتصف الليل بنصْف ساعة، وما لبثَ أنْ نهض فغادر مخْدعه. ولمح في نهاية الردْهة بصيصا من النور يتسرّب من تحت باب "**موريس**"، فدنا من الحجْرة، وأصاخ السّمْع. فلمّا لم يلاحظ أية حركة، طرق الباب. ولكنه لم يتلق جوابا. وتردّد قليلا، ثم ولج الحجرة، وهو يقول لنفسه- ليخفف من حدّة القلق الذي تولاه:

- لعله نسي أنْ يطفئ المصباح!

وتبيّن لأول وهلة أنّ السرير كان خاليا لم يُمس، وصوان الملابس كان خاويا. فعاد إلى حجرته، وارتدى ثيابه في عَجَلة، ثم رَكَض كشاب- برغم أعوامه الستين- نحو المحطة، وكان موعد القطار السريع الذاهب إلى "**إيطاليا**" قد فات، ولكن كان ثَمَّة قطار آخر يتّجه صوْب "**جنيف**"، وأنباه

موظف بالمحطة– كان يعْرفه– بأنّ "**موريس**" قد رحل "معها"، وأنّهما ابْتاعا تذكرتيْن إلى "**تورين**"، وأطلق الأب صيْحة تشْبه الصّوْت الذي ينْبعث من الحديد حين تمسُّه المطرقة لأول مرة. ولكنه كان كالحديد صلابة ومقاومة، فلم يلنْ تحتَ مطرقة القدر، وإنّما احْتفظ باعْتدال قامته، دون أنْ ينهار! فإن من ينْحدر من أصْل كأصله، ومن أسْرة كأسرته، لا يمكن أن يَهوى أمام زَلّة من زلات الشّباب.. لسوف يَسْتَرِدُّ ابنه، إنْ عاجلا أو آجلا، فيعيده إلى نطاق الأسْرة.. أو لعل القدر هو الذي يتكفّل بإعادة الابن الضال.. وقد يكون هو – الأب– من الضَّعْف بحيث يقنع بأنْ يذْبح عجلا سمينا احتفاء بعودة الابن، بدلا من أن يوجه إليه اللوم والتقريع، على ما ورد في الأسطورة القديمة.. وإنّ بيت الأسرة لهو المكان الذي يُضمد فيه المرء جراحه، والذي يلجأ إليه موقنا من أنه لن يُرَدّ عن بابه.. ولقد يهْجر الزوج زوجته، والزوجة زوجها، ويَعُقُّ الأبناء آباءهم وأمهاتهم فيهجرونهم، ولكن الأب والأم لا يقويان على التخلي عن طفلهما، ولو تخلّى العالم كله عنه!

وبدتْ البلدة– في ضوء القمر– كجثة هامدة.. وتردد لوقع قدمي السيد "**روكفيار**"– أثناء عودته– صدى تَجَاوب في ذلك القفر الموحش. وفيما كان يسير في شارع "**بواني**"، رأى الحصْن وقد رفع أمامه برجيه السّامقين اللذين زادهما الظلام تطاولا وارتفاعا، وأبْصر في مواجهة القصْر شجرة رسمتْ الظلال صورة لها على الأرض. لسوف تسْتيقظ البلدة بعد ساعات قلائل، لتطلق الضحكات السّاخرة الشامتة، حين تعلم بالمأساة التي حلتْ بآل "**روكفيار**"!

وبلغَ السيد "**روكفيار**" داره، فما إن فتح الباب حتى لمح طيفا أبيض مقبلا عليه.. تلك كانتْ "**مرجريت**"، التي بادرته متسائلة في انزعاج:

– ما الذي جرى يا أبتاه؟

ولما لم تكن زوجته قادرة على أن تكون بجواره فقد رأى أن يشْرك ابنته في حمل أعباء المحنة الفادحة، وكان يقدرُها إلى درجة تحمله على ألا يُخْفِي عنها الأمر، فتمتم قائلا:

– لقد سافرا!

وتذكرتْ إذ ذاك أمنية أخيها التي همَس بها إليها وهو مهْموم، ففهمتْ ما جرى. وهتفتْ متنهدة:

– آه!

ومرة أخرى تعانق الأب والابنة، وضمّ كل منهما الآخر إلى صدْره، وقد ربط بينهما الأسى المشترك، وما لبث الأب أن قاد ابنته في رفْق إلى مخدعها، ثم قال موصيا إياها قبل أنْ يتركها:

– لندع الأم نائمة يا صغيرتي. فلسوف تعرف آلامنا مهما يطل الأمد!

٤– انتقام الأستاذ "فرازن"

وهبط الأستاذ "**فرازن**" من قطار الساعة السابعة صباحا، في "**شامبيري**"، وقد حمل حقيبة صغيرة، وتدثّر بمعطفه اتقاء لبرودة الصباح. وأغذّ السَّيْر إلى مسْكنه الذي غاب عنه يومين، وأدرك

لِفَوْرِه- للارتباك الذي اعْترى الخادمة التي فتحتْ له الباب- أنّ شيئا ما قدْ جرى، أو كان يجْري في مَنْزله. كان رجلا قد ناهز الخمْسين، مايزال محْتفظا بصحّته.. كما كان مستقيما، فاتر الطباع، ممتازا في صفاته. بيد أنّ شفتيه الغليظتيْن، بل وعينيْه البرَّاقتين المحتجبتيْن خلف نظارته، كانت تثير شعورا من عدم الارتياح في النفس.. ومع انزعاجه الطارئ، فإنه سأل الخادم:

- هل كل شيء على ما يرام؟ والسيدة؟

فأجابتْ الخادم في لهجة انطوتْ على سخرية مُسْتَتِرة:

- لقد سافرت السيدة مساء أمس إلى "**إيطاليا**" ومعها حقائبها!

- إلى "**إيطاليا**"؟

- أجل يا سيدي.

- في أية ساعة؟

- في منتصف الليل.

وتساءل في دهْشة:

- دون أيّ إيضاح؟

فأجابتْ الخادم:

- لقد قالتْ السيدة وهي منْصرفة إنّ السيد قد أُحِيط علما.

فقال السيد "**فرازن**" في برود:

- هذا صحيح، فأعدي لي الفطور في غرفة المكتب!

ودخل غرفة مكتبه- المتصلة بمكتب التوثيق- دون أن يُبْدي أية دهْشة؛ إذ ما جدوى سؤال هذه الفتاة الماكرة الجاهلة؟ على أنّ النبأ غيْر المتوقع- الذي دَوَّى في أذنيه كطلق ناري- لم يكنْ قد أثار غضبه بعد؛ ومن ثَمَّ لم يداخله سوى عجب مذْهل. والجرْح مهما يكن قاتلا، لا يبْعث في البداية أكثر مما تبْعث الصّدمة البسيطة، ولابد من فوات وقْت قبل أنْ يثير الألم. وبأعْصاب متوتّرة، وعينيْن حادتيْن لمح السيد "**فرازن**" على المنضدة خطابا وضع بشكل متعمّد، بل ومثير للتحدي، وأمْسك به دون أن يفُضّه، محاولا التكهّن بما فيه.. كان يتضمّن تفْسيرا لهذا الرحيل ولا شك.. هذا الهجْر الذي تمّ في غير اكتراث ولا مبالاة بالنتائج.. فقد كان- برغْم انقضاء تسْع سنوات على زواجه- قليل الثقة بزوجته، بحيث بدتْ له كل التكهنات جائزة ومحتملة: أَتُرَاها فرتْ بصحبة أحد، أم هي نزوة مُتَهوسة استبدتْ بها ولنْ تلبث أن تزايلها فتعود الهاربة إلى حظيرتها؟ ولم يخطر بباله اسم "**موريس روكفيار**". ولقد كانت السيدة "**فرازن**" تسعى إلى الاستحواذ على إعجاب الرجال، وتجد في ذلك ملهاة.. وكان كل امْرئ يتملَّقُها ويتقرَّبُ إليها؛ ومن ثَمَّ فإن "**فرازن**" لم يحفل جِدِّيا بذلك الود الذي تمادتْ فيه زوجته مع أحد موظفي مكتبه، وبرغم أنه عرف- من الخطابات التي تلقّاها من مجْهولين- أن البلدة كانت تتحدث عن هذه العلاقة. فقد تملَّكَه ما يَتَملك الرجال الناضجين من ازدراء

للشبان الذين يلاحقون النساء، ومن تشبث بأهداب الأمل، وثقة في أنّ الزمن في صفّهم.. فهم- وقد جاوزوا الشباب- يميلون إلى الاعتقاد بأنّ المرأة لا تميل إلا لمن في أعمارهم أو ما يقْرب منها؛ لأنّ العواطف في رأيهم غير ذات قيمة ما لم تسْتند إلى إمكانات! وكان "**فرازن**" يعرف كم حال التعصّب للأخلاق في الريف دون تحقق كثير من شهوات الغاوين والغاويات، وفوق ذلك، كيف يخطر بباله خاطر غير معقول، كذلك الذي يُوحي إليه بأن شابا مثْل "**موريس**" ينبْذ طواعية مركزا مريحا، ملائما؟

لم يسْتسغْ عقْل "**فرازن**" افتراضا كهذا، ولكنه وجد نفسه أمام أمر واقع، وهو الرجل الذي لم يكن يعْني بغيْر الوقائع. وإذ أعياه هذا اللغز- الذي لم تنفذْ بصيرته إلى أغواره- فضّ غلاف الرسالة وقرأ:

"سيدي: إنني لم أحبك قط، وإنّك لتعرف ذلك. إذ أية قيمة لقلب المرأة لدى ذلك الذي يَمْتَلكُها بعقد رسمي؟! لقد احتملتُ هذه العبودية تسع سنوات؛ لأنني لم أكن أحبّ. ولكن هذا قد تغيَّر اليوم: هأنذا أتحرّر مخلّصة، بدلا من أن أُقَسَّمُ نفسي بين رجلين. فمن الذي يعوقني؟ لقد كنت تَبْغُض الأطفال منذ بداية زواجنا، مع أنّ يد الطفل الصغيرة كانتْ كافية لأن تغلّني بالقيود.. أما الآن، فإن بيتنا خال، وليس فيه من يحتاج إليّ. ثم إنك قدَّرْتَ قيمتي في عقد زواجنا بمائة ألف من الفرنكات، فلعلك ترى أنّ من الطبيعيّ أنْ أحملَ معي ثمني. ولقد دفعتُ مقابله شبابي. وإني إذ أهْجركَ، لأغفر لك. فوداعا- "**أديث دانيماري**".

كان كل شيء في الحَياة- حتى العواطف- لا يتمثل للأستاذ "**فرازن**" إلا في شكل عقود والتزامات، سواء أكان ذلك بحكم عاداته المهنية، أم بتركيب عقله الماديّ الواقعي! ولما كانت أخلاقنا تتحكم فينا، حتى في ساعات الألم والعذاب، أو ساعات تَردِّينا في المآزق، أو ساعات النزع الأخير، كذلك كان "**فرازن**"، فإنه لم يشعر بالأسى إلا لفقْدان زوجته، وليس لضَياع نفوذه، برغْم أنه كان حريصا على المال. ولكنّه حين أراد استْعراض ماضيه، وتفْريج كَرْبه، لجأ بغريزته إلى البحْث في أحد الملفّات عن عقْد زواجه الذي أشارتْ إليه المرأة في رسالتها. وما إنْ لمح الوثيقة التي تحْمل الخاتم الرّسمي، حتى تمثّل في جلاء ذلك الغرام المشْبُوب الذي استبدّ به في أواخر شَبابه، ورأى بعيْن الخيال- عند مدخل إحدى الكنائس- فتاة ممْشوقة القوام، ملفوفة العود، تَنمُّ حركاتها وعيناها عن النار المتأجّجة في أعْماقها.. وكان ذلك في "**ترونش**"، موطن طفولته- بالقرْب من "جرينوبل"- حيث اعتاد أن يذهب في عطلاته الصيفية من كل عام، حين كان يُتَاحُ له أن يغادر "**باريس**"، حيْث كان يعمل رئيسا للكتبة لدى أحد الموثقين. ولم يكن قد استقرَّ بعد- برغم اقترابه من سنّ الأربعين- على ترك "**باريس**"، واتخاذ مكتب خاص في "**دوفينيه**".. المقاطعة التي تقع فيها "**جرينوبل**".

ولم يسْتطع أنْ يقاوم إعجابه، فسرعان ما تحرَّى عن الفتاة، وعرف أن "**أديث دانيماري**" تقيم مع أمها على مقربة من "**ترونش**"، في منزل صغير، لاذت به المرأتان وهما شبه معدمتين، بعد أن

مات رب الأسْرة الذي بدَّد ثروته في الميسر. وقدَّر "فرازن" في نفسه أن فتاة قروية لها مثل عيني "أديث"، لابد أن تكون فريسة سهلة! ولكنه ظلّ عامين يلاحقها دون أنْ ينال منها مأربا.. فقد كانتْ ترتقب أمير أحلامها؛ إذ كانتْ جامحة الطموح، وعندما سئمتْ الانتظار ألهبتْ الوحدة خيالها.. ومن ثَمَّ صَدَّتْ "فرازن"، ولكنها حرصتْ على ألا يكون ذهابه دون عودة، وكانتْ قد اكتشفتْ- دون دراسة تؤهلها لذلك- فن الصدّ المنطوي على وعد، ومارسته على حساب ذلك الرجل الذي كانت مغامراته في الأوساط المبتذلة والمغرقة في الشهوات تجعله يرتبك ويضطرب أمام دلال كدلال "أديث"! ومن ثَمّ اعترف بالهزيمة؛ إذ تغلبتْ شهوته على مصلحته.. وكان قد فَقَد أبويه اللذين خلّفا له ميراثا طيبا، فقرر في النهاية أنْ يطلب رسْميا اليد التي صَدَّتْه، وهي تُريه- في الوقْت ذاته- المكان الذي يجب أن يتخذه خاتم الخطْبة!

ولكن كيف يُعبّر خلال بنود العقد القانونية عن حبه؟ لقد نَصَّ في أحد البنود على مِنْحة قدرها مائة ألف من الفرنكات للزوجة المقبلة- التي يربطه بها العقد- لا تستْولي عليها بعد وفاة المانح. كما جرتْ العادة، وإنما تنْتقل ملكيتها إليها فوْر إتْمام الزّواج، وكان هذا السّخاء غيْر المألوف دليلا على ضَعْفِه، وشهادة- تدْعو للحسْرة- على هَزيمته.. فقد أخْضع هذا السّخاء البراعة القانونية للعاطفة المشْبوبة!

وانتزعه من فحْص العقْد، مقْدم الخادم تحمل إليه "الكاكاو" وكانت ترمق سيدها- من طرف عينيها- وهي تقوم بإحضار الفطُور، فأدهشها أنْ تراه مُمْسكا بأوراق قضائية، وكان يفْحص أحد الملفات، والخادم ترقّب خلسَة أساه أو غضبه، حتى تَجد ما تَرْويه للبلدة. ولكنه أشار إليها يَصْرفُها. وتناول الفطور بغيْر اشتهاء، وبدافع منْ إرادته: أو لم يكنْ في حاجة إلى قُواه بعد قليل، حين يتحتّم عليه أن يتّخذ قرارا؟

وبينما راح يحْتسي الشّراب السّاخن فرغ من استْعراض سني حياته الماضية.. استْعرضها من وجْهة نظره! فقد كان- مثل كثيرين من الرجال، وككل النساء تقريبا- عاجزا عن أن يتمثل وجهة نظر شريكه.. وكانت الصور التي تمثلها، هي صورة زواجه في "ترونش"- الذي تَمَّ بعد كثير من التردُّد والإرجاء لم يصدرا عنه هو- والرحيل إلى "باريس".. "باريس" التي كشفتْ له عما كان يجهله في زوجته.. فمن العُزْلة والحياة الرتيبة، انتقلتْ دونما ارتباك أو تردّد إلى الطيش النزق.. فإنها لم تجاره في نضوجه، ولا هو اكترث لشبابها. ومن هنا حصل على مكتب الأستاذ "كليرفال" في "شامبيري"، بعد أنْ أعياه العثور على مكتب في "جرينوبل"، على أمل أنْ يجدا في الريف دعة وهدوءا. أما السيدة "فرازن" فقد أدَّى هذا الانقلاب في حياتها إلى أنْ تولاها ذلك الشّعور بعدم الاكتراث الذي يُساور أولئك الذين لم يجدوا من الحياة ما يرضيهم. وسُرّ "فرازن" حين بدا عليها أنها تقبَّلتْ العزلة بغير تحبيذ، ولكن بغير معارضة كذلك!

وانقضى عامان على هذا النمط، امتازا بالنعم التي يمكن أن يلقاها المرء في وجوده بالقرب من امرأة لم تَكُف- برغم هدوئها- عن أنْ تثير في النفس شيئا من القلق! وفجأة، وفيما كان

يخالها قد استكانت إلى الدّعة، والعلاقات الطيبة، والشواغل اليومية، إذا بها تَهْجُر مسكن الزوجية لتهربَ مع حبيب!

*****

وأخذ الموثِّقُ يشْهد في غير وعْي- وقد رزَح تحت الكارثة التي لم يكنْ متأهبا لها- سُلَّم الذكريات التي تمثلها في العقْد المدني. ومن جديد، بلغ الهاوية، ولكنه في هذه المرة سبر غوْرها، وقاس عمقها. لقد أصْبح ذلك الـ"**موريس روكفيار**" - الذي كان يحْتقره عند وصوله- عُرْضَة لنيران غيرته.. فإنّ "**أديـــث**" لم تسافرْ وحدها.. من المحتمل- بل من المؤكد- أنّها سافرتْ معه.. مع "**موريس**". ولابدّ أنه كان يضمّها إلى صدْره في تلك اللحظة ذاتها، هناك.. في "**إيطاليا**"، البعيدة! وتناول السيد "**فرازن**" منديله فرفعه إلى عينيه، ثم مزقه إربا بأسنانه.. ولم يعْد يتمالك نفسه فبكى!

لكَمْ أجادتْ "**أديث**" وصْفه حين قالتْ لـ"**موريس**":

- إنه يحبني بطريقته الخاصّة.

وهذه الطريقة لم تكنْ أنبل الطرق، ولكنها كانتْ أحْفَلَها بالعذاب: فهي تضْني النفس بصُور محدّدة قاسية، وهي تشق القلب كما يشق المحراث الأرض، وتولّد الكراهية والبغضاء!

وعاد "**فرازن**" فامسك بالخطاب والعقد، لا ليزيد من شقوته، إنما ليتلمَّس طريقا للانتقام، وكان موظفو مكتبه على وشك الحضور، ومن واجبه أنْ يتقصَّى الأمر. وأن يُعدَّ أسلحته، قبل وصولهم. لابد أنها تناولتْ النقود التي حملتها معها- أو بالأحْرَى التي سرقتْها؛ لأن الهبة بين الزوجين تُعْتَبَر في جميع الحالات باطلة بمجرّد صدور الحكم بالطلاق- من الخزانة. فقد أوْدع منذ عهد قريب مائة وعشرين ألفا من الفرنكات ثمنا لأحد العقارات، ولابدّ له من أنْ يدفعها بعد أيام من توقيع العقْد الذي أجرى توثيقه. وها قد أخذتْ "**أديـــث**" المبلغ بفضل إهْماله الذي لا مراء فيه. وقد يكون من الممكن صنْع- أو سرقة- مفتاح للخزانة، ولكن.. كيف تراها اكتشفتْ تركيب الأرقام السِّرِّيَّة التي لا يكون للمفتاح جدوى بغيرها؟

ونهضَ فاقْتربَ من الخزانة التي لم تكن تحْمل أيّ أثر للاغتصاب. وبحثَ في جيْبه، وأخرج حلقة مفاتيحه، فتبيّن أنّ المفتاح لم يكن بينها.. لابد أنه نسيه سهْوا يوم سفره. على أنه كان يمتلك مفتاحا آخر للخزانة، وإنْ كان يعْهد به إلى رئيس الكتبة ليسْتعمله أثناء غيابه؛ لذلك، اضطر إلى أن ينتظر حضور الكاتب ليفتح الخزانة ويتأكد من محتوياتها، ولكي يُشْهِدَهُ على الواقعة؛ ومن ثمَّ سعى إلى مكتبه، فتناول قانون العقوبات، وشرع يلتهم المواد الخاصة بالجرائم والجنح التي ترتكب ضد المالك، وقرأ في المادة ٣٠٨ أن الاختلاسات التي يرتكبها الأزواج للإضرار بزوجاتهم. أو الزوجات للإضرار بالأزواج لا تقع إلا تحتَ طائلة القانون المدني. ولكنّ نهاية هذه المادة- التي جرَّدَتْهُ من كل سلاح ضدّ الخائنة- أمدّته بسلاح ضدّ شريكها: فيما

يتَعلق بجميع الأشْخاص الآخرين الذين يخْفون أو ينتفعون بكل أو بجزء من الأشياء المسروقة، فإنهم يعاقبون كمتهمين بالسّرقة.. وراجع المواد التي عالجتْ الموضوع، فعثر على مادة أفْضل من سابقتها.. تلك هي المادة ٤٠٨ التي تناولتْ سوء استغلال الثقة. فقد رأى فيها ظرفا يدْعو لتشديد العقوبة، وذلك إذا كان من أساء استْغلال الثقة موظفا عاما أو حكوميّا، أو خادما أو مسْتخدما، أو من المشتغلين بالرهونات، أو طالبا، أو كاتبا، أو عاملا تحت التمرين، أو عاملا، أو موظفا تحت التمرين أراد الإضْرار بصاحب العمل. وفي هذه الحال، تكون العقوبة هي السّجن!

فما الذي يمنعه من أن يتهم "**موريس روكفيار**".. ومن أنْ يتهمه وحده؟ ألم يكن هذا جديرا بأن يلقَى تصْديقا؟ لقد كان الشاب يعْرف معالم المكتب، والعمليّات التي تجري في المكتب، وتاريخ العقود، وغياب الموثق، وكان بوسعه أن يلتقط سرّ قفل الخزانة، وأنْ يسْرق المفتاح من رئيس الكتبة لفتْرة وجيزة. ولما كان لا يمتلك ثروة شخصيّة، فقد كان مضطرا للحصول على المال ليهرب مع عشيقته.. ثم ألا يدينه هربه إلى الخارج؟ لا مراء في أن ما أعلنته السيدة "**فرازن**" في خطابها كان يُكَذّبُ هذا الادعاء، ولكن رسالة السيدة "**فرازن**" لم تكن صالحة لأن تتخذ دليلا ضدّها، كما أنها كانتْ في صالح عشيقها، فيكْفي إعدامها.. إنّ أي شيء لن يقوى على تَبْرئة الشاب إذا أُعدمتْ الرسالة.. ثم إن الشاب فقد كل وسيلة للدفاع. أفلا يجب عليه- إذا شاء الدفاع عن نفسه- أن ينْقلب على زميلته، وأنْ يعْترف على الأقل بمعاشرتها والحياة معها على نفقتها؟ وهذا ما لا يمْكن لرجل شريف أنْ يفعله؛ ومن ثَمَّ فقد كانتْ إدانته مؤكدة.. وسوف ينْتهي فراره الغرامي بتسليمه إلى حكومته؛ ليقف أمام محْكمة الجنايات وقد ذوى عوده، وتحطم، وهانتْ كرامته، فيكفر عن ذنب الاثنين. وأخيرا ستدفع أسرته المبلغ المسْروق؛ لتُخَفّف من وزره؛ وبهذا يتفادى السيد "**فرازن**" النّكبة.. أو كل خسارة مادية على الأقل؛ فإنّ الخسارة الماديّة لم تكنْ بالأمر الذي يسْتهين به!

وعندما انْتهى من تقْليب الأمر على كل الوجوه والوصول به إلى النّهاية المقْصودة أحسّ بهمومه تخف، ونَسيَ ألمه وهو يتبيّن إدانة غريمه وعقابه، وراح يَسْتَعْرضُ النتائج البعيدة المدى التي ستترتّب على انْتقامه- دون أنْ يداخله إشْفاق- حتى انْتهى بها إلى الحطّ من قَدر آل "**روكفيار**" المتغطرسين، الذين أكرموا وفادته حين خلف الأستاذ "**كليرفال**"، واتّخذوه صديقا. كان في تعاسَته يلقي بآلامه على العالم كله وكأنها لعنة.. وعاد يقْرأ للمرة الأخيرة ذلك الخطاب الذي كان يُقيم العقَبة الوحيدة في طريق خُطته، ثم اسْتجمع عزْمه وألقاه في النار.. وراقبه وهو يحْترق، ويصْبح رمادا.

✽✽✽✽✽

ودقّتْ الساعة مؤْذنة بالتّاسعة. فأخَذ الكتبة- المواظبون- يتوافَدون على المكتب واحدا في إثر واحد، فيجلسون إلى مكاتبهم. وإذْ ذاك فتح السيّد الباب الذي يَصل بين حجْرته والمكتب،

واسْتدعى رئيس الكتبة وهو مشْغول البال، دون أنْ يحييهم، وقال :

- "**فيليبو**" .. إنني لا أجدُ مفْتاح الخزانة.

فأجابه الكاتب :

- ها هو ذا يا سيّدي، فقد عهدْتَ أنْت به إليّ أثناء غيابك، ولكنني لم أسْتخدمْه.

فقال :

- صدقْتَ.. تعال مَعي !

وسار الرّجلان إلى غرْفة المكتب، ثم فَتح السيّد "**فرازن**" الخزانة فلاحظ في الحال شيْئا من عدَم النّظام في جوْفها. وإذْ ذاك تساءل :

- هل كنتَ تبْحث عن شيْء.. عن وصيّة مثلا؟

فقال "**فيليبو**" في حرارة :

- لا يا سيّدي.. أقْسم لكَ..

وهنا قال "**فرازن**" :

- إذن، فلستُ أفْهم شيْئا.. فهذا المظروف الممزّق كان يحْتَوي على ثمن بيْع ضيْعة "**بيلفاد**" : مائة وعشرين ألفا من الفرنْكات، عددناها معاً.

فقال الكاتب مرْتجفا :

- حقّا يا سيّدي.

وكان الموثق في غاية الهدوء. ولم يمْض في أسئلته، بل أغْلق الخزانة بعناية، وقال :

- لقد دَخل هنا شخْص ما.

فردّ الكاتب :

- هذا مسْتحيل يا سيّدي.

ولكن "**فرازن**" قال في إصرار :

- أؤكد لك أنّ شخْصا ولج هذا المكان. وسنثْبت محْتوياته أمام رئيس البوليس.. من الذي أغلق المكتب مساء أمس؟

- "**موريس روكفيار**".

- وهل كان وحيدا؟

- أجلْ. فقد تريّث ليكتب بعض الخطابات.

فسأله :

- إلى متى؟

فأجاب :

- لسْت أدْري. ولكنني قابلتُه تحْت "**البواكي**" بعد نصْف ساعة فأسلمني المفاتيح؟

وهنا صاح "**فرازن**" :

- المفاتيح؟ أو كان مفْتاح الخزانة بينها؟
فأجاب:
- أجلْ.
فقال السيد "**فرازن**":
- لم يكنْ في هذا شيْء من الحكمة..
وساد الصّمْت برهة، ثم عاد يتَساءل:
- ولماذا لم يحْضر بعد؟
فقال الكاتب:
- من؟
وأجاب الموثق:
- "**موريس روكفيار**".
وهنا قال الكاتب بلهْجة مفْعمة بالحقد:
- إنه لنْ يحضر.

فحدجَه السيّد "**فرازن**" بنظرة فاحصة، أرشدتْه إلى أمرين: أولهما: أنّ نبأ نكبته قد ذاع في المدينة، وثانيهما: أنّ "**فيليبو**"- الذي كان "**فرازن**" يشك في أنه يغار من "**موريس**" وينافسه في حب زوجته- سيكون حليفا يثق به ويركن إليه! على أنه تظاهر بالجهْل، وقال:

- هذا صحيح. فقد تقرّر أن ينْضمّ إلى مكتب أبيه.
ولكنّ الكاتب قال:
- لا يا سيّدي، فإنه سافر في منتصف ليلة أمس.
- وإلى أين؟
- إلى "**إيطاليا**".
وإذْ ذاك نطق الموثق بحُكمه في بطء:
- آه.. أخيرا فهمتُ! إذنْ فلعله هو الذي اغْتصب خزانتي. وكيف تراه عَرف الأرقام السرية؟
فنكس "**فيليبو**" رأسَه، وقد أحاله الخوْف والغيرة إلى نمّام متواطئ، وقال:
- إنّ الأرقام مكتوبة في مفكّرتي، ولكنْ بغيْر بيان يُوضّح ماهيتها.. وقد كتبْتها لأنّ ذاكرتي ضعيفة. ولقد قرأ "**روكفيار**" الأرقام، فلعلّه حدس ما تنمّ عليه.
فقال الموثق:
- إنّ تفريطك مضاعف. اطلبْ إلى أحد زملائك يا "**فيليبو**" أن يسْتدعي رئيس البوليس ليتولّى التحقيق بنفسه.

وتمّ فحص الخزانة رسْميّا في حضور عدد من الشّهود وقدّم السيّد "**فرازن**" بيانا بمحْتوياتها، وأسْفر البحْث عن أنّ شيْئا منها لم ينْقص؛ وإذْ ذاك قال الموثق في هدوء، وهو يوجّه التّحقيق

ببراعة ودقّة:

– بقي أنْ نفْحص هذا المظروف الكبير، الذي وُجدَ ممزّقا. فقد كان يحْتوي على ثمن بيْع ضيعة "**بيلفاد**"، التي تُقدَّر مساحتها بعشرين فدّانا. وكان الثمن مائة وعشرين ألفا من الفرنكات، كلها بالعمْلة الورقيّة. وقد عددْت المبْلغ قبل سفري، أمام رئيس الكتبة، الموجود الآن، والذي يشْهد بذلك.

وهنا قال "**فيليبو**":

– تماما يا سيّدي.

فأردف "**فرازن**":

– والمبلغ مسجّل على المظروف.

وبفحْص المظروف وجد أنّه لا يحْتوي إلا على عشرين وَرقة من فئة الألف فرنك، فقال "**فرازن**":

– إذنْ فقد سرق منّي مائة ألف من الفرنْكات.

وسأله رئيس البوليس:

– وكيف تفسّر عدَم اسْتيلاء السّارق على كلّ المبلغ الذي كان في المظروف. إنّ اللصوص لا يقنعون، وليس من عادتهم أنْ يتطوعوا بتحْديد ما يسْرقون!

فقال الموثّق:

– لسوْف أجلو هذا للنيابة التي سأقدّم إليها شكواي في الحال.

– هذا شأنك. أتُراك تشكّ في أحد؟

– نعم.

فتساءل رئيس البوليس:

– أترتاب في خدمك.

وأجاب "**فرازن**":

– لا. فلوْ أنّهم ارْتكبوا هذا العمل لهربوا. كما أنهّم لا يسْتطيعون معْرفة الأرقام السرّية لقفل الخزانة.

وإذْ ذاك قال رئيس البوليس:

– حسنا.. سأحرر المحضر الآن!

ولكن "**فرازن**" قال:

– أرْجو أنْ تصحبني إلى المحكمة، فهي على بعْد خطوتين من هنا.

فقبل الضابط قائلا:

– لك ما شئْت.

وقَصدا إلى المحكمة لفورْهما، حيْث دار بيْن الموثّق ورئيس النيابة حديث طويل، اسْتأنفاه بعد انْصراف رئيس البوليس.. وبينما كان "**فرازن**" يهْبط السّلّم التقى في نهايته بالسيّد "**روكفيار**"

صاعدا إلى المحكمة.. وكانتْ السّاعة قد بلغتْ الربع بعد الثانية عشرة، وهو موْعد بدء الجلسة.

وتبادل الرجلان النظرات، وحيّا كل منهما الآخر!

٥- الأخطار تتهدّد الأسرة

من عادة المحامين وموكليهم أنْ يتبادلوا الأحاديث في ردْهة المحكمة بضْع دقائق، قبْل أنْ يدْخل المسْتشارون قاعة الجلسات. ففي تلك الردْهة يتبادل الجميع أنْباء المدينة. غيْر أنْ السيد "**روكفيار**"- الذي كان محبوبا لحسْن دعابته، ومرهوبا للذعاته الحادّة- بادر إلى إيداع معْطفه في خزانة الثياب، ثم اتخذ مكانه في مقاعد المحامين، وكان زملاؤه يتأملونه عن بعْد في فضول خبيث، وهم يتهامسون عن مغامرة ابنه "**موريس**"، ويعالجونها في رفْق وتساهل. فقد رأوا فيها ردَّ فعْلٍ للتقاليد الصّارمة السائدة في الأقاليم.

وفيما كان السيد "**روكفيار**" مُنْهَمِكا في إعداد مرافعته، اقْترب حاجب من مقعده، ومسَّ كتفه قائلا:

- إنهم يريدونكَ في النّيابة يا أستاذ!

فنهضَ لتوّه في اهتمام، وقال:

- هأنذا ذاهب إليهم.

وكان من المألوف في كلّ يوم أنْ ينتهز المدّعي العام فرْصة وجود أحد المحامين في المحْكمة، فيسْتدْعيه لمسائل تتعلَق ببعْض القضايا الجنائيّة. ومع ذلك فإنّ السيّد "**روكفيار**" لم يخْلُ من بعْض القلق، الذي أوحتْ به إليه مُقابلته للسيّد "**فرازن**" على سلم المحْكمة.. فَهَمَس لنفْسه:

- تُرَى هل تبْلغ به الحماقة إلى الدّرجة التي يرْفع فيها دعْوى الزّنا؟ إنّ الزّنا جريمة في نظر القانون، الذي يتْرك للزّوج وحْده حقّ طلب القَصاص في حالة حدوثه، وهو امْتياز لا يلجَأ إليْه الزّوج إلا نادرا. ولكنّ وجْه "**فرازن**" كان يَنمُّ عن شرّ..

وكان السيد "**فاليروا**"- المدَّعِي العام- يرْأس نيابة "**شامبيري**" منذ سنوات عدة، تمكن خلالها من أن يقدّر نزاهة السيّد "**روكفيار**" في مهْنته، وخُلُقَه ومَواهبه.. ومن الصَّحيح أنَّ هناك أقاويل عن احْتمال ترْشيح "**روكفيار**" في الانتخابات التّشريعيَّة المقْبلة، وعمّا قد تُعانيه السّلطات من مَعارضة قوية نشطة، إذا نجح في تلك الانتخابات.. ولكن اتهام السيد "**فرازن**" لابنه كان كفيلا بأن يَقْضِي قضاء مُبْرما على هذا الخطر السياسي، ولما كان السيد "**فاليروا**" موظفا طموحا فإنّه اسْتقبل السيّد "**روكفيار**" في ترْحاب حين أقْبل على مكتبه؛ إذ لم يَجُلْ بخاطره- منذ وجَد نفْسه مضطرا إلى الحديث معه- سوى أنّ أمامه رجلا شريفا في محْنة. فمدّ إليه يده، وبادره قائلا:

- إن واجبي يُحَتِّم عليّ أنْ أواجهك في مهمّة مؤْلمة.

وتوقف عن الكلام مُتردّدا، ولكنّ قوّة المحامي المعْنويّة كانتْ تبدو في أجْلى صُورها في الظروف العصيبة؛ ولذلك فإنّه شكر للمدّعي العام لطفه، واتّجه إلى الهدف مُباشرة؛ إذْ قال:

– لعله أمْر يتعلق بابْني.

فأجاب المدّعي:

– أجل.

– أَتَرَاهَا دعْوى طلاق ذكر فيها اسْمه؟ أم هي دعْوى زنا؟

– لا. مع الأسف!

– مع الأسف؟!

لم يكنْ لهذه العبَارة سوى معْنى واحد؛ لذلك تساءل السيد "**روكفيار**" في صوْت حازم، ولكنه مُتْحَشْرِج:

– هذا يُوحي بأن ثمّة حادثا؟ أهو انْتحار؟

فصاح السيد "**فاليروا**". وقد فَطن إلى الهواجس التي أثارها:

– لا، لا.. اطمئن، فقد سافر ابنك مع السيدة "**فرازن**"، كما تعْرف البلدة كلها. ولكنّ هناك ما هو أخْطر من ذلك. فإنّ السيد "**فرازن**" – الذي انْصرف من هنا منْذ قليل – قدّم إليّ شكوى يتّهمُه فيها بسوء استغلال الثقة.

واحْتقن وجْه المحامي الشيخ، برغم تمالكه نفْسه، وهَتف في إباء:

– سوء اسْتغْلال الثقة؟ إنني أعرف ابْني.. هذا مسْتحيل!

فَشَرع ممثل الاتّهام في تلاوة الشّكوى، التي وقّعها الموثّق ورفَعها إليه مرْفقة بمحْضر المعاينة التي أجْراها رئيس البوليس، وأصْغى إليه السيّد "**روكفيار**" بانْتباه، دون أنْ يقاطعه. كان الأمْر كفيلا بأنْ يُقوّض دعائم أسْرته، وأن يُلَطّخ اسْمه. وقال أخيرا وهو رابط الْجَأش، وإنْ كان مطعون القلب:

– إن السيّد "**فرازن**" يثْأر لنفسه بخسّة!

فأجاب السيد "**فاليروا**"، الذي تَرك عواطفه تظهر دون تَحَرُّج:

– إنني أشاركُك الرّأي، ولكنّ النقود اختفتْ، فكيف توقف الدّعوى العامة؟

– إنّ ابني ليس وحْده في الاتّهام. وإذا هرب طفل في العشرين من عمْره، مع امرأة في الثلاثين، فأيّ الاثنين الذي يُعدُّ الخُطة ويقودها؟

– هذا ما صّرحت به منذ لحظات، وفي هذا المكان بالذات وبإصرار. لقد نصحتُ بالتعقل، وطالبت بأربع وعشرين ساعة للتفكير في الأمر، ولكنني قوبلتُ بقرار رسمي، فلابد للعدالة من أن تتخذ مجراها، إنني مضطر إلى إحالة الشكوى إلى قاضي التحقيق!

واستجمع السيد "**روكفيار**" شجاعته إزاء ضربة القدر، ولَاذَ بالصمت بينما راح المدعي العام يُقلّب المسألة على كل وجه دون أن يهتَدي إلى حلّ. وقال:

– إن هناك قرائن خطيرة، ودقيقة، ومُطَابقَة للظروف: هناك أولا التسهيلات التي يُتيحها له مركزه في المكتب، ثم وجوده هناك ليلة أمس – ومعه المفاتيح – بعد انْصراف الكتبة الآخرين، وحاجته إلى المال لتنفيذ مُغامرة الفرار الجريئة، ثم اهْتمامه بأنْ يُحَدِّد المبلغ المسروق بنفسه،

وكأنه أراد أن يوحي بأنه سيُسدِّده!

فأجاب الأب في اعْتزاز:

– وهناك في صَفه أدلة أخرى: هناك أسْرته أولا، فلا إنكار في أنها من سلالة عريقة طيبة! ثم منْ الذي قال لك: إنه سافر بلا مال؟ لسوف يعود عندما تَنْفَدُ نقوده، وأنا الكفيل بذلك!

وقطع عليهما الحديث حاجب أقبل يدْعو المحامي الذي كانتْ هيئة المحْكمة تنْتظر مرافعته. فَصَرَفَه السيّد "**روكفيار**" بإيماءة وهو يقول:

– لسوف ألحق بك.

بيْنما استْأنف السيّد "**فاليروا**" حديثه قائلا:

– ولكن كيف يتمكن منْ الدّفاع عن نفسه إذا اعْتُقِل؟ يجب أن تُدْرِك جيدا أن مركزه سَيِّئ، وأن الأدلة تتجمع ضده.. ولكي يُبْرِئَ نفسه، لابد له– على أحسن الفروض– من أن يتهم سواه.. فهل يقبل هذا؟ ومع ذلك، فسوف يكون شريكا.. وعلى أية حال، فانْصحهُ– إذا كنْت تعرف مكانه– بأن يَتَرَيَّثَ قبل أن يعود إلى "**فرنسا**"، وسأطالب بالتمهُّل في القبض عليه..

فهزّ السيد "**روكفيار**" رأسه بقوة، قائلا:

– لا، لا.. إنّ الهرب بمثابة اعْتراف. يجب أنْ يعود. وسأُنقّبُ عن أدلَّة تبرِّئه!

وبعد أن اسْتغرق في التفكير برْهة، قال:

– أما وقد هزّ مصابنا مشاعرك يا سيّدي المدعي، فهل تأذن لي أنْ أسألك خدْمة.. خدْمة جليلة قد تنْقذنا؟

فتساءل المدعي:

– وما هي؟

وهنا أجاب المحامي الشيخ:

– اعرضْ على الأستاذ "**فرازن**" أن يستردّ شكواه، مقابل دفع المائة ألف فرنك.

– وهل ستردها أنت؟

– سأدفَعها.

– ولو لم يكنْ ابنك مذْنبا؟

– إنه في مأزق كما قلت بنفسك، وشرفنا يساوي أكثر من هذا المبلغ.. كما أنّ المقاضاة تلطِّخه!

وإذْ ذاك قال المدعي:

– إن الأستاذ "**فرازن**" معْروف بالتّكالب على المصْلحة، ولعل شكواه لا تكون– بالنّسبة إليه– سوى وسيلة لزيادة موارده. فاعرضْ عليه نصْف المبلغ.

ولكن السيد "**روكفيار**" قال:

– لا . . لا مُساومة. الدّفع مقابل سحْب الشكوى!

ورغْبة في إراحة باله والتملّص من الموْقف، تَراجع المدّعي متستّرا وراء واجباته المهنية، فقال:

– إنك على حقّ، وبودّي أنْ أخدمَك يا أستاذ، وقد ازددتُ رغبة في ذلك أمام تضحيتكَ. ولكن هل مما يناسب مركزي أنْ أقْدم على مسعى غير قانوني كهذا؟

فتبدى التأثر على السيد "**روكفيار**" وقال:

– إنّه غير قانوني حقّا. ولكن الوقْت ضيّق، ولسوْف أذْهب لأترافع أمام هيْئة المحْكمة، ولنْ تلبثَ الشكوى أنْ تعْرف. وأنتْ وحْدك الذي تعْرفها،حتى الآن، وفي وسْعك أنْ ترجئها. إنني أتوسّل إليك.

على أنّ المدعي قال:

– هذا مسْتحيل، فليس بوُسْعي أنْ أذْهب إلى مقر أحد أصحاب الشّكاوى.

فقال المحامي الشّيخ:

– في وُسْعك أنْ تسْتدْعيه إلى النّيابة.

وأجاب السيد "**فاليروا**":

– فليكن. . إنّ الوسيلة غالية، ولكنّها أكيدة المفْعول. سأقدّم الاقْتراح باسْمي حتى إذا قُدّر أنْ يفشل كنْت أنتَ غير مقيد بعرض ينطوي على تسليم بالسّرقة.

فقال الشيخ:

– شكرا.

*****

وافْترق الرّجلان، فذهبَ المحامي إلى قاعة الجلسة حيث كان المسْتشارون قد سَئموا الانتظار. وشَرع في مرافعته ببراعته المعْتادة. فلم يحْدس أحد– أمام حُججه المنطقية المرتبة– شيئا عن الألم الذي كان يُضْنيه. ولكن "المجاهد" المسنّ– الذي لم يشْعر بالتعب يوما– أحسَّ حين جلس بإرهاق بالغ ثقيل ثقلَ الشّيخوخة، وبعد مُرافعة الخصْم، وردٍّ موجز منه، أصْبح حرا في أنْ ينْصرف، فنَظر إلى ساعته، وإذا بها تُشير إلى الثالثة والنصف. . كان مصير ابنه معلّقا على ساعات رفْع الجلْسة الثلاث؛ لذلك، صعد إلى النيابة حيْث كان السيد "**فاليروا**" في انتظاره، وأدرك لأول وهلة أنّ المدّعي قد أخْفق. . وما لبث هذا أن قال:

– لقد جاء السيد "**فرازن**" . . وأرى أنك كنتَ على صواب، فهو ينتقم لنفسه. .

وتساءل المحامي:

– هل رفض؟

فاجاب المدعي:

– رفْضا باتا. . إنه يُفَضل حقْده على ماله. عَبَثا حاولتُ أن أضغط عليه بكل قُواي،

فصوَّرْتُ له الفضيحة التي سيثيرها حول زوجته، بل وتحدثتُ عن نقْص الأدلة، فكان جوابه أنه سيدَّعِي بالحقّ المدني أمام قاضي التّحقيق إذا أنا لم أَدعْ الشكوى تتخذ مجْراها.. وهذا حقّه، كما أنّ قَراره حاسم!

وتساءل المحامي:

– وماذا لو حاولت من جانبي أنْ أثنيه؟ لقد كنّا دائما على علاقات طيبة.

فأجاب السيد "**فاليروا**":

– لن تكون زيارتك مُجْدِية. بل ستكونُ أليمة، ومُدينة لابنك؛ ومن ثم فلستُ أنْصحك بها. لقد حدثته عن أسرتك، وعنك، فأجابني:

– إنّ ابْنه انْتزع قَلبي. وماذا إذا دفَع الأبرياء ثمن أخطاء المذنبين؟!

فأخلد السيد "**روكفيار**" إلى التفكير لحْظة، ثم انصاع للنصح إذ تبيَّن صوابه، فاستأذن من المدعي، باسطا إليه يده وهو يقول:

– بقي عليَّ أن أشكرك، فقد عاملتني كصديق، ولن أنسى لك هذا.

فأجاب السيد "**فاليروا**" متأثرا:

– إنني أرثي لك!

وعاد المحامي إلى داره وحافظته تحت إبطه. وكان من عادته دائما أن يسير مُسْرعا بخُطَى شابة، رافعا رأسه.. ولكن وجْهه كان شديدَ الشحوب. وتحت "**البواكي**"– حيث اعتاد المتسكعون أن يأووا– مرّ بأصدقاء أدبروا عنه، بينما كان المارة يَرْمُقُونه في إصرار واستهزاء، وأدرك أن مَوظَّفي مكتب "**فرازن**" قد أشاعوا في البلدة عار آل "**روكفيار**".. آل "**روكفيار**"؟! كانت هذه أول وصمة للسُّلالة منذ قرون. أفكانت سلالة مبغوضة إلى هذا الحدّ الذي يجْعل الناس يتلقّون النبأ بمثل هذه الشّماتة؟! إذن، فما أحطَّ الحسد الذي تثيره أمْجاد اسم عريق! لقد حطَمتْ زلة أحد الأحفاد ماضيا حافلا بالدأب والشرف، كما حطَمت أيضاً أنجب أمثلة تُحْتذَى في الرجولة لسنوات طويلة.. أفلا يفْهم هؤلاء الشامتون أن هذا الانهيار يمسُّهُم هم الآخرين؟!

وشَدّ قامته، ثم خَفَّفَ من إسراعه. ولم يقْو أحد على أن يتصدَّى لنظرته. وغالب الشعور بالذلّة– إذ راح يواجه العاصفة– وهو يقول في نفسه:

– انْبَحي من بعد أيتها الكلاب ولكن حذار من الاقتراب، فلسوف أحْمي أسْرتي مادمتُ حيّا، وسأذود عنها بقُوَّتي. ولن تريني قط أتلوَّى من الألم!

ووجد عند بابه السيد "**ديلا مورتيلليري**"، جاره في الريف، أفتراه يطيق عبارات المواساة والعطف؟ على أنّ هذا المعتوه أظهر له شعورا إنْسانيا يتمشّى مع حاله؛ إذْ قال في لهْجة غامضة، وهو يشير إلى الحْصن الذي سَبح في الشّفق:

– عندما جاء الإمبراطور "**سيجسمون**"– في سنة ١٤١٦– أقام دوق "**أميديه الثامن**" مأدبة في القاعة الكبرى، نظمها "**جان دي بيلفيل**"، مُبتكِر حلوى "**سافوا**"، وكانت اللحوم ذهبية

اللون، مُحلاة بزينات ورايات تمثّل أسلحة قوات الضيوف. وتلقّى كل ضيف النصيب المخصص له، مقسّما إلى أجزاء صغيرة متفاوتة الأحجام، تبعا لمراكز المدعوين. إنني أحبّ هذه التفرقة؛ فما ينْبغي للمرْء أنْ يأكل حسب شهيته، وإنما حسب قيمته!

فردّ السيد "**روكفيار**" وهو يفارق هذا المزعِج:

– إنّ قطعة واحدة كانتْ كافية لي!

لم يكنْ في وسْعه أنْ يخدع نفْسه، فيسْتبدل بالحاضر ذكريات الماضي! واختفى في مدْخل الدار، ثم صَعد السلّم، وبلغ غرْفة المكتب، متحاشيا مخْدع زوجته التي كانتْ تلازم الفراش دائما. ولكنها أحسّتْ به، فنادتْه على أمل أن يُوَافيها بأنباء ابنهما، وألفاها وحيدة، وقد جلستْ على سريرها، يُخيّم عليها ظلام المساء الزاحف. وتمتمتْ:

– لقد خرجتْ "**مرجريت**".

ثم استجمعتْ شجاعتها وسألته:

– أما عرفت شيئا عن "**موريس**"؟

فأجاب:

– نعم، لا شيء.. وسنظل فترة طويلة دون أن نتلقّى شيئا، ولا شك!

فقالت المريضة:

– ما أقسى لهجتك يا "**فرانسوا**"! لقد سَحرتْه تلك المرأة، كما تعرف. يا له من طفل بائس!

فقال:

– إن الضّعف لون من الذنب!

وجزعت للصّرامة التي تجلّتْ في نبراته، فأدارت زرّ الضوء الكهربائي، وإذا بها ترى زوجها وكأنما شَاخَ فجأة! فقد كان شاحبا، غائر العينين، إلى درجة أشعرتْها بالخطر.

وهتفت ضارعة:

– هناك أشياء تُخْفيها عنّي يا "**فرانسوا**". ألستُ كما عهدتني: شريكة حياتكَ التي لا تكتم عنها سرا؟

فدنا من السرير قائلا:

– ولكن لا جديد هناك أيتها العزيزة! أليس في فرار ابننا الكفاية؟

فشدّتْ قامتها، وبسطتْ ذراعيها، واستأنفتْ تضرُّعَها:

– أقرأ في نظرتك نذير خطر رهيب يتهدّدنا. لا تَخْدَعني كما فعلتَ في الليلة الماضية. تكلّم، فسوف أتجلّد!

وقال مُشْفِقا:

– إنك تنفعلين دونما داع.. فلا أنباء هناك!

فهتفتْ:

اللون، مُحلاة بزينات ورايات تمثّل أسلحة قوات الضيوف. وتلقّى كل ضيف النصيب المخصص له، مقسّما إلى أجزاء صغيرة متفاوتة الأحجام، تبعا لمراكز المدعوين. إنني أحبّ هذه التفرقة؛ فما ينْبغي للمرْء أنْ يأكل حسب شهيته، وإنما حسب قيمته!

فردّ السيد "**روكفيار**" وهو يفارق هذا المزعِج:

– إنّ قطعة واحدة كانتْ كافية لي!

لم يكنْ في وسْعه أنْ يخدع نفْسه، فيستْبدل بالحاضر ذكريات الماضي! واختفى في مدْخل الدار، ثم صَعد السلّم، وبلغ غرْفة المكتب، متحاشيا مخْدع زوجته التي كانتْ تلازم الفراش دائما. ولكنها أحسّتْ به، فنادتْه على أمل أن يُوافيها بأنباء ابنهما، وألفاها وحيدة، وقد جلستْ على سريرها، يُخيّم عليها ظلام المساء الزاحف. وتمتمتْ:

– لقد خرجتْ "**مرجريت**".

ثم استجمعتْ شجاعتها وسألته:

– أما عرفت شيئا عن "**موريس**"؟

فأجاب:

– نعم، لا شيء.. وسنظل فترة طويلة دون أن نتلقّى شيئا، ولا شك!

فقالت المريضة:

– ما أقسى لهجتك يا "**فرانسوا**"! لقد سَحرتْه تلك المرأة، كما تعرف. يا له من طفل بائس!

فقال:

– إن الضّعف لون من الذنب!

وجزعت للصّرامة التي تجلّتْ في نبراته، فأدارت زرّ الضوء الكهربائي، وإذا بها ترى زوجها وكأنما شَاخَ فجأة! فقد كان شاحبا، غائر العينين، إلى درجة أشعرتْها بالخطر.

وهتفت ضارعة:

– هناك أشياء تُخْفيها عنّي يا "**فرانسوا**". ألستُ كما عهدتني: شريكة حياتكَ التي لا تكتم عنها سرا؟

فدنا من السرير قائلا:

– ولكن لا جديد هناك أيتها العزيزة! أليس في فرار ابننا الكفاية؟

فشدّتْ قامتها، وبسطتْ ذراعيها، واستأنفتْ تضرُّعَها:

– أقرأ في نظرتك نذير خطر رهيب يتهدّدنا. لا تَخْدَعني كما فعلتَ في الليلة الماضية. تكلّم، فسوف أتجلّد!

وقال مُشْفِقا:

– إنك تنفعلين دونما داع.. فلا أنباء هناك!

فهتفتْ:

- أُقْسمُ لك إنني سأتجلد، فلا تخف!

ولكنه عاد يُنَاشدُها:

- "**فالنتين**".. هدئِي من روْعك!

فقالت:

- انتظر.. لسوف تُصدِّقني!

وضمّت العجوز- التي هدّها المرض- راحتيها، وابتهلتْ إلى الله بصوْت عال أنْ يهبها القوة، وتألقتْ عيناها بلهب انْعكس على الوجْه الشاحب الهزيل الخالي من أيّ لمحة للحياة، فهتف زوجها:

- رفقا يا "**فالنتين**"!

فالتفتتْ إليه وكأنما تغيّر شكلها، وقالتْ:

- الآن.. الآن، قلْ لي. إنّ بوُسعي أنْ أسْتمع. هل مات؟

فصاح:

- أوه! كلا!

لقد داخلها الشك عينه الذي داخله.. ولما كان مثْلها وثيق الإيمان، فقد أفْضى بالاتهام المروِّع الذي أصابهم جميعا.

فصرّحتْ في إباء:

- هذا غيْر حقيقي. فليْس ابننا لصا!

وقال:

- لا. ولكن الناس جميعا يروْنه كذلك.

فأجابتْ:

- وما قيمة ظنّهم ما دام ليس لصًا في الواقع.. إنني أعْرفه، وإني لواثقة به.

ولكن السيد "**روكفيار**" لخَّص لها النَّكبة في عبارة قطعتْ كل الشك:

- إنه يَصمُنَا بالعار!

تلك كانت الجريمة التي حكَم على ابنه بها، بوصْفه رئيسا للأسرة، لا بوصفه مُتديِّنا يخْشَى ضميرَه فحسب.. جريمة ضد "السّلالة" كلها!

وصاحتْ في خُشوع ووجل:

- يا ربّ.. لا تتخلّ عنا!

وما إن نطقتْ باسم الله- مناط الأمل الوحيد- حتى أقبلتْ "**مرجريت**" مهْمومة، تُغَالِبُ أساها، ونظرتْ إلى أبيها وأمها وقد وحّد بينهما الألم، ثم انفجرتْ باكية كسيْل تفجر من وراء قنْطرة! وأطلقتْ لدموعها العنان.. فضمَّتْها السيدة "**روكفيار**" إلى صدْرها قائلة:

- تعاليْ!

وسالها أبوها:

– من الذي أساء إليك؟

فغالبتْ حزنها بجُهْد خارق، وقالتْ:

– إنهم يسبّوننا.

وعاد يسالها:

– من؟

فأجابتْ:

– إنني قادمة من دار السيدة "**بيرسي**"؛ إذْ كان "ريمون" هناك.. ولقد قالتْ لي:

– إنّ لك أخا جميلا وساءني هذا، فنكّستُ رأسي، ولكنها عادتْ تقول:

– أتعرفين ما الذي يرويه موظفو مكتب "**فرازن**"؟

وظللْتُ صامتة بينما استطردتْ هي:

– يقولون: إنّ أخاك لم يقْنع بالمرأة وحْدها. وصاح "ريمون" بصوْت خافت:

– أماه!. أمّا أنا، فقد ظللتُ واقفة، وقلتُ:

– أتمّي كلامك يا سيدتي، فهذا واجب.

ووجدتْ من نفسها الجرأة على أنْ تقول:

– لقد سطا على الخزانة.

وإذ ذاك قلتُ:

– احذري من أن تسيئي إلى أخي.

وتحوّلْتُ إلى خطيبي قائلة:

– أما أنت يا سيّدي.. أما أنْتَ يا من لا تعْرف كيف تَحْمِيني في دارك، فإني أُحِلّك من وعْدك!

وحاول أنْ يستبقيني، ولكنني لم أنصت لرجائه.. وهأنذه قد عدتُ!

وغمغمتْ أمها وهي تقبّلها:

– يا صغيرتي العزيزة!

وصاح السيد "**روكفيار**" فوق رأسي زوجته وابنته المتلاصقيْن:

– آه! إنّ الناس يحْكمون دائما دون أنْ ينتظروا دفاعا!

على أنّ "**مرجريت**" ما لبثتْ أنْ نسيتْ شقاءها الشخصي إزاء الشقاء المشترك، فنهضتْ وسارتْ إلى أبيها، وثبتتْ بصرها في بصره وقالتْ:

– أنتَ يا من أثق به، أجبني، إن هذا ليس صحيحا، أليس كذلك؟

فقالت المريضة مؤكدة:

– إنه كذب.

وقال ربّ الأسرة:

– آمل ذلك.. ولكن كل الظواهر ضدّه، وهو مُعرّض للإدانة.

فهتفتْ الابْنة والأم معا:

– الإدانة؟

فقال المحامي:

– أجلْ، الإدانة.. ونحنُ جميعا معرَّضون معه.. فنحنُ نحْمل نفس الاسم، وننْحدر من نفْس الماضي، ونسير إلى نفْس المستقبل!

وأشار بيده وكأنه يَحْمي المرأتيْن المغرقتيْن في الدّموع، ويهدِّدُ الهارب:

– إن لحظة ضَعْف كافيةً لأن تَهْدم جهود أجْيال متكاتفة.. آه! ليته يقَدِّر في فراره المهين– حيث هو الآن– مدى خيانَته: لقد فُصمتْ خطبة أخته، وتعرَّض مسْتقبل أخيه للخطر، وصحّة أمه للتداعي، وثروتنا للضّياع، واسمنا للتلطخ، وشرفنا للتلوث.. هذا ما صنعه بنا. وهذا ما يُسمَّى بالحب! ما قيمة أن يكون قد سرق مبلغا من المال، وهو قد سلبنا كل شيء؟ ما الذي تبقَّى لنا اليوم؟

فصاحتْ "**مرجريت**":

– أنْتَ.. أنتَ الذي ستنقذه!

وقالتْ السيّدة "**روكفيار**" التي رانتْ عليها– في الضّيق– مهابة قدسيّة غريبة:

– الله.. فكونا به مؤمنين.. إنّ أقدار السلالات وفضائلها لا تَضِيع قط، بل هي تُكَفِّر عن زلات المذنبين!

القسم الثاني

١- صانع التحف المقلدة

إنّ أقلّ بحيرات "**لومباردي**" اجتذابا للزائرين هي بحيرة "**أورتا**". فهي تتضاءل بجانب شُهْرة بحيرة "**ماجير**" كما يتضاءل القارب في مرسى السفينة الكبيرة؛ ومن ثمّ يقنع المسافر بنظرة يلقيها عليها من القطار في غيْر اكتراث، ودون أنْ يعني بأنْ يعْرج عليها.. وهو يتأمل المعالم الدّقيقة للجبال المكسُوّة بالغابات التي تحيط بها، وبالودْيان العميقة التي تتناثر فيها القرى البيضاء، متوارية في وسطها كما تتوارى قطعان الماشية بين الأعشاب. ثم يلمح الناظر في نظرة خاطفة تلا تكتنفه الأشجار- التي تمتدّ على لسان من الأرض موغل في الماء- ومدينة مسْتلقية على الشّاطئ، وجزيرة مكْتظة بالأبنية. وفي انْطلاق القطار مُسْرعا، يخَال المسافر أنه يلمَح ابتسامة تنْبعث من هذه المناظر التي تكْتَنزُ وتصون سحْر الطبيعة في "**لومبارديا**".. الطبيعة التي تجمع بين الخشونة والبهاء، وتلتف شواطئ البحيرة في رفْق ولين، بينما تتجلّى صفْحة الأفق صافية، مشْرقة، لا أثر فيها لذلك البخار الذي يُشاهَد في سماء "**سويسرا**" و"**سافوا**" الباهتة. فإذا هبط المساء بدتْ المناظر قاتمة على صفْحة مشْرقة، وتتكرر تعرُّجَات التلال الْمتناسقة في أحجام أضخم، كلما نظر المرء نحو الشمال، بشكل يجعله يخال أن سَهْل "**نوفار**" يمتد حتى يلتحم بجبال الألب الشّامخة الرّاسخَة!

ولم تكن "**أورتا نوفاريز**" قد تاهبتْ بعد لاستقبال الزوار؛ ومن ثَمَّ كان المرح غائبا عنها، وكان ثمة فندق واحد على سفح الجبل المقدس- "**مون ساكريه**"- يُدعَى فندق "**بيلفيدير**"، ويستقبل الزائرين القلائل من الربيع حتى طلائع الشتاء.. فقد كانت "**أورتا**" متوجة بتلّ قام عليه عشرون هيكلا صغيرا، تناثرت بين الأشجار، تُصوّر حياة ومعجزات القديس "**فرانسوا الأسيسي**". على أن المرء لا يكفّ عن اكتشاف منازل ريفية بين الخضرة الممتدة على طول الشاطئ، يأوي إليها أغنياء الإقليم طلبا للراحة، فلا تكاد نوافذها ترى مغلقة.. ويفوح دائما من حدائقها- التي تبدو عليها مظاهر العناية- شذى الزهور التي يستنشقها المرء في غبطة، على النقيض من روائح موائد الفنادق التي تُسمّم جو "**بالانزا**" أو "**بافينو**" فتفسد على الزائر استجمامه!

ففي فندق "**بيلفيدير**"، وفي شهر أيار (مايو) نزلتْ السيدة "**فرازن**" و"**موريس روكفيار**" هاربيْن من المدن الكبْرى التي قَضيا فيها وقتا سيّئا. فحملهما الهدوء- بعد الصّخْب- واعتدال الأسعار، على البقاء حتى نهاية تشرين الأول (أكتوبر). وما لبث أن أقبل خريف رائع في أعقاب صيف مرّ على عَجل، ولولا قصَرُ النهار، ودبيب البرودة في الجو، والاصفرار الذهبي الذي صبغ أوراق الشجر لما ظنّ الإنسان- وهو يتطلع إلى الشمس المشرقة- أن الشتاء وشيك الحُلول!

وفي ذات صباح جلس "**موريس**" في حجرة الاستقبال- المتصلة بمخدعها- مُنْصرفا إلى ترجمة كُتيِّب إيطالي يحمل عنوان "حياة القديسين "**جيوليو**" و"**جيليانو**" .. وهما قدِّيسَان أقبلا من بحر "**إيجه**" في القرن الرابع، فنشرا المسيحية في "**أورتا**" . على أن فقرة مُقْتَبسة من إحدى مؤلفات "**لامارتين**" ، نُشرتْ بنصها الفرنسي، شغلت الشاب أكثر مما شغلته أكثر العبارات الإيطالية استعصاء، وأرسل بصره خلال النافذة، وقد شرد باله، وغفلتْ عيناه عن مجموعة الأشجار التي كانت تقوم كالباقة عند طرف شبه الجزيرة، في بقعة تقع أسفل النافذة مباشرة.. وقد بَدَا الماء ساكنا، شَفَّافا، تتوسطه جزيرة كانت ملتقى العُشّاق والمفاتن، وصفها الشاعر خلال سيرة القديسين بأنها كزهرة من زهور الكاميليا فوق صفحة فضية!

وما لبثتْ نظرات "**موريس**" الشَّاردة أن بلغْت قممَ الجبال- التي حجبت الأفق- وكأنها تريد أن تتجاوزها لتَلُمَّ بما خلفها! وفيما كان مُسْتغرقا، دَلفَ طَيفٌ أبيض إلى الحجرة؛ فانحنى فوق كتفه، وأطلَّ على الكتاب المفتوح، واستلفتتْ بصره العبارات الفرنسية، التي برزت بحروف واضحة بين السطور الأجنبية: "قال **لامارتين**: إنّ مآل الطفل إلى البيت الذي ولد فيه. فإن نفسه تتألف في الغالب من المشاعر التي خبرها فيه. إن النظرة التي تنبعث من عيني أمنا جزء من نفسنا، يتغلغل في أغوارنا خلال أعيننا!

وأغلقت السيدة "**فرازن**" الكتاب بلطف، فإذا حبيبها- الذي لم يكن قد فطن إليها- يجْفلُ من هذه الحركة، وتبادلا نظرة حافلة بتلك الأمور التي لا يجسر العُشّاق على الإفضاء بها، ولا يتمالكون أنْ يفكروا فيها.. وقالتْ تسأله في غير اكتراث:

- في أي يوم من الشهر نحن؟

فأجاب وقد عاودته سكينته:

- في الخامس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر).

وفجأة عاودته الهواجس من ناحيتها؛ إذ قالتْ:

- لقد انقضى عام، فهل تذكر متى كنَّا على موعد فوق هضبة "**كالفير دي ليمنك**"؟ هناك قررنا أن نهرب معا.. ومع أنه لم يمض سوى عام واحد إلا أن حُبي لم يَعُد يَكفيك.

فهتف مُعاتبا:

- "**أديث**"!

ولكنها عادت تكرر:

- لا. لم يعُدْ يكفيك.

وأضافت ببساطة، وعلى أساريرها ابتسامة حزينة:

- انظر إلى نفسك.. إنك تنْصَرف إلى العمل.

فقال:

- أو ليس من الواجب أن نفكر في المستقبل يا "**أديث**"؟

– نعم، ليس من الواجب التفكير الآن.. ما الذي ينقصنا؟

وانتهز فرصة السؤال ليقول:

– لقد نَفدتْ نقودي، ولا أستطيع أنْ أنسى أنّ نفقاتنا أصبحتْ تستمد من نقودك.

وقطّب قائلا في حرارة:

– إنني أودُّ أن يبقى صداقك دون أن يُمسّ. ولقد سألتُ صديقا لي من رجال الصحافة في "**باريس**"، بأن يبحث لي عن مركز في الصحافة. أليس بوُسْعي أن أُحرّر بابا مُقْتبسا من الصحف الأجنبية؟ لقد تعلمت الإنجليزية في المدرسة الثانوية، كما تعلمتُ الألمانية فيما بعد؛ لأعدّ رسالتي للدكتوراه. ثم إنني أتكلم الإيطالية. وبالجمع بين هذه وبين عمل قضائي نستعين على الحياة.

وأصغت إليه وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، ثم راحت تتحسَّسُ وجهه بالوجد الذي كان يألفه منها، وقالت:

– لنتكلم غدا عن المستقبل.. غدا وليس اليوم!

فتساءل:

– ولماذا نضَيِّع يوما؟ إن من واجبنا أن نحدد فورا موعدا لرحيلنا.

فهتفت:

– رحيلنا؟

وأجاب:

– نعم.. إلى "**باريس**"!

فلم تستطع إخفاء ضيقهَا، وصاحت:

– "**باريس**" دائما! إنك لا تَكُفُّ عن الحديث عنها.. كأنها وَسْواس يطاردك.

فأجاب في وجوم:

– إنني هناك أستطيع أن أكسب عَيْشي.

فانسابت بين ذراعيه في لين ودلال، وسعتْ بشفتيها إلى شفتيه الحمراوين القابعتين تحت شاربيه، وهي تُغَمْغِمُ:

– لقد سألتك عاما واحدا من حياتك.. عاما أحياه بلا ماض ولا مستقبل، نعُبُّ في كل يوم من أيامه من حبنا، وتنسى خلاله من أجلي بقية العالم. تُرَى، هل تذكر؟

فأجاب:

– أو لم أمنحك أكثر مما طلبت؟

فقالت في دلال:

– ما يزال لي يوم.. فإن السنة تكتمل غدا.

وغمغم في وجد:

- غدا يا "**أديث**"!

فقالت وهي ترْتَجِف في مهب الذكريات:

- لا تفسد اليوم الذي بَقِي لنا. وبما أنه الأخير فما أجدره بأن يكون أجمل أيام عامنا الذي انساب قطرة إثر قطرة. فلنكفّ عن الحديث عن المستقبل حتى غد! أتعدني؟

فابتسم في نشوة وقال:

- أعدك.

وإذ ذاك قالتْ:

- إذن، فسأذهب لأرتدي ثيابي على عجل، ثم لنخرج فنتناول غداءنا في الجزيرة!

*****

وغابتْ عن الحجرة، فحاول في غيابها أن يستأنف الترجمة، ولكن بصره وقع مرة أخرى على الفقرة الفرنسية المقتبسة من "**لامارتين**":

- إن مآل الطفل إلى البيت الذي وُلِد فيه...

فتوقف عن القراءة من جديد.

لقد كانت "**أديث**" على حق، فإن الحاضر لم يكن كافيا له، ولن يغنيه قط عن الماضي. لقد تواطأ الشريكان على إقصاء المستقبل عن ذهنيهما، ولكن الماضي.. الماضي الذي لم يجدا جرأة على الكلام عنه. لقد كانت نظراتهما تغوص فيه، في الوقت الذي يظل لساناهما فيه مغْلولَيْن، حتى لقد غدا الصمت- بالنسبة لـ"**موريس**"- نوعا من العذاب.. تُرَى ماذا "هم" يفعلون في هذه الساعة، وراء الجبال المتقاربة.. "هم"، أولئك الذين لا يعرف أنباءهم؟!

وما لبثت "**أديث**" أن ظهرتْ عند مدخل الحجرة، فقالت تَسْتَجِدى إعجابه:

- أتُرانِي جميلة في هذا الصباح؟

وكانت ترتدي ثوبا صيفيا من التَّيل الأبيض- يَشي بمفاتن قامتها، وإن لم يَهْصِر عودها بضيقه- وقبعة يعلوها ريش أبيض أضفى عليها بهاء ورواء. لقد جدَّد العام- الذي قضياه معا- شبابها، وإن لم تعد عيناها المتأجِّجتان تُرْسلان ضرَاما كعهدهما فيما مضى.. كما ازدادتْ استدارة خدَّيْها وقلّ شحوبها. أما جسمها النحيل، فقد بدا أنه ازداد وزنا. وبوجه عام، شمل شخصها كله تغيُّر نمَّ عن ارتواء بالحب.. وتأملها "**موريس**" بإعجاب، دون أن يوجه إليها الإطراء الذي كانت ترجوه!

ويمَّما شطر ميناء "**أورتا**" خلال طريق شديدة الانحدار، رُصفتْ بقطع من البلاط المستدير، نمتْ الأعشاب خلالها عن قلة من كانوا يسلكون تلك الطريق، واعترضتْ سبيلهما- في الميدان الممتد أمام الساحل الرملي الذي تجمعت عنده القوارب- فتاة صغيرة يعلو شعرها القصير قلنسوة (بيريه) حمراء، كثيرا ما صادفها العاشقان في نزهاتهما، مما أوحى إليهما بأنها

تقيم في مكان قريب. وحملقت الفتاة إلى وجهيهما- ولا سيما وجه "**موريس**"- طويلا، دونما استحياء. حتى إذا تجاوزتهما. قال "**موريس**":

- إنها لطيفة.

فندت عن زميلته زفرة أسى نمّتْ في لحظة خاطفة عن حقيقة سنها وقالتْ:

- لا تنظر إليها، فإنني أغار!

فراق له أنْ يداعبها لهذه الفورة العاطفية، قائلا:

- تغارين؟ أو ليس هذا من حقّي أنا الآخر؟

فتساءلتْ:

- يا الله! وممّن؟

فأجاب:

- من ذلك الإيطالي الأسمر ذي الشاربين، الذي يقيم في الفندق، والذي يَنْسَى عشيقته- أثناء الوجبات- ليُحَمْلق إليك بنظرات مأخوذة!

وأغرقت المرأة في الضحك هاتفة:

- "**لورنزو**"؟

فصاح:

- أراك تعرفين اسمه.

وإذ ذاك قالت:

- لقد ذكره لي. لقد أفصح لي، بعينيه المحملقتين، عن عاطفة أثارت ضَحكي!

واصطنع "**موريس**" الضَّحك اصطناعا. على أنهما لم يكادا يستقران في أحد القوارب، ويجْدفَان مبتعدين عن الشاطئ حتى غَشِيهُما من جديد ذلك الشعور بالقلق وعدم الاطمئنان.. كان الحاضر، الذي يرعيانه ويصونانه بكل حيلة ومهارة، والذي أقصيا كل الذكريات والاحتمالات حتى لا تَشُوبه شائبة.. كان هذا الحاضر يرتج من أساسه لأتفه حادث عارض! تُرَى أية أسوار يجب أن يُحَاط بها هذا الهوى لوقايته من الناس، ولما ينقض بعد عام واحد على مولده؟! كان هذا الحب- الذي ضحيا من أجله بكل شيء- محاصرا بضغط الحياة من كل جانب.. بل إنه كان محاصرا بقلبيهما الخافقين أيضا، كتلك الجزيرة التي تبدتْ أمامهما محاصرة بالماء!

وكانت المرأة أول من أحسَّتْ بالأسى الذي ران عليهما فنهضت عن مجلسها ودنت منه، وبدلا من أن يُسَرِّي عنها راح "**موريس**" يروي لها أسطورة القديس "**جول**" التي لم يكن فيها ما يهم أيا منهما.. وراح يقول:

- لقد كانت هذه الجزيرة فيما مضى مأوى للأفاعي، فلما أراد القديس "**جول**" أن يذهب إلى "**أورتا**"، رفض أصحاب قوارب الصيد أن يعيروه قاربا، فما كان منه إلا أن بَسَط معطفه

على الماء وجَدف بعصاه..
فقاطعته "**أديث**" مُحْنقة:
– يا لك من عالم!
ولكنه استطرد قائلا:
– إنني أواظب على قراءة هذه الأسطورة.
فصاحتْ:
– لكَمْ أكره كتابك!
وأدرك السبب في كراهيتها الكتاب؛ ففي ذلك اليوم الأخير من العام الأول لهواهما.. في ذلك اليوم، كانت مشاعرهما من الإرهاف بحيث كان يجرحها كُل شيْء ويؤلمها كل قول.. حتى أكثر الأحاديث براءة وسذاجة!
ورسيا بقاربهما عند سُلّم يفضي إلى الشاطئ، فربطا القارب إلى حلقة حديدية مثبتة إلى البر لهذا الغرض، وولجا الكنيسة الرومانية العتيقة التي ضَمَّت تحفا أثرية بيزنطية اكْتُشفتْ حديثا تحت طبقة سميكة من الطلاء. كما كان هناك منبر من الرخام الأسود، وتابوت، ولوحات من نقش "**فيراري**" و"**لوينو**". ولم يشعرا بمتعة وهما يريان مناظر الماضي في الكنيسة، فما أجدر العشاق بمناظر دائمة الجدَّة والطرافة؛ لأنهم يخشون الأحاسيس الفاترة ويصدونها بدافع من خوف غريزي. فضلا عن أن هذين الحبيبين كانا يسلكان في الهوى دربا ضيقا لا عهد لهما به، فلا غرابة في أنْ يخشيا أنْ ينتاب عواطفهما ملل أو فتور!

*****

وكانت قمة المرتفع الذي تتألف منه الجزيرة مشغولة بأكملها بمباني مدرسة للاهوت، تشبه الحصن في طرازها. ودار العاشقان مع انحناءة في الطريق الضيقة، فإذا هما قد انتقلا إلى بقعة منعزلة تماما، بين جدارين شاهقين، في جزيرة.. وبَدَا لهما أن ليس في العالم إذ ذاك سواهما.. أو ليست هذه أمنية العشاق جميعا؟ لقد كانا يتوقان– في العام الماضي– إلى أنْ يقضيا بقية عُمْريهما في مثل هذه العُزلة، فلما وجداها إذا بهما يَفرَّان منها معا، متجهين إلى الشاطئ! وهناك كان ثمّة شيخ يَصْطاد السمك في غمرة من أشعة الشمس. وتحت ظلّة– على مقربة– جلس طفلان حافيان، يقذفان الأحجار إلى الماء. بينما بدت المنازل الريفية بين الأشجار الممتدة على طول الشاطئ، والتي أخذ الخريف يجرِّدها رويدا من أوراقها، وانعكست صورة "**أورتا**" على مياه البحيرة الهادئة، فإذا منظر الحياة الوادعة في هَدْأة الظهيرة يبعث ارتياحا في نَفْسيْ العاشقين القلقين!
وتناولا الغداء على درج السُّلّم المُؤدي إلى الهيكل. ثم قَضَيا فترة من الأصيل يطوفان بزورقهما في البحيرة، بحثا عن مكان مجهول يبعث النشاط في أحاسيسهما، وما لبثا أن يَمَّما

شطر الميناء. حتى إذا بارحا الزورق راحا يفكران في طريقة يقضيان بها بعض الوقت. فقال "**موريس**" لـ"**أديث**"، حين بلغا الميدان الصغير:

– هلا عُدْنا إلى الفندق؟

فصاحتْ محتجة على هذا السِّجْن الاختياري:

– أوه، لا! ماتزال الشمس مرتفعة فوق الجبل، فلنسرْ متمهلين في الطريق العامة. وكانت الطريق– بعد المدينة الخالية من الأرصفة– تمتَدّ بمحاذاة البحيرة، متدرجَة في الارتفاع، حتى تُطوّق "**مون ساكريه**"– الجبل الذي يشرف بأشجاره وكنائسه الصغيرة على شبه الجزيرة– وتمتد على طول أسوار الفيلات التي ازدانت مداخلها بالنخيل وأشجار البرتقال، وحين بلغ العاشقان فيلا متواضعة تكاد تتداعى– كانا قد لمحاها من الطريق خلال بابها الذي تُرِك مفتوحا– تنسَّمت "**أديث**" أريج وَرْد وأزهار، فأهابت بحبيبها:

– انتظر.. إن لهذه الزهور شذى بديعا، وإنها لآخر زهور الموسم.

فقال:

– لندخل، وسأطلب لك بعضا منها!

ودخلا، فإذا بهما في حديقة حوت مجموعة بديعة من الأعمدة المهشمة، والأبراج الصغيرة نصف المحطَّمة، وأرْوِقة ناقصة، فكأنها صورة مُصغَّرة لمدينة من مدن الفن غدت أنقاضا.. ولكنها كانت حُطَاماً مُنتظِما، منسقا، في شكل زُخْرُفي. وفي وسط الأحجار المتناسقة المتراصة بنظام خفف من آثار الزمن الهدامة، قام تمثال صغير من الرخام تُحيط به شجيرات الورد.. تمثال "**الحب**" الذي استوى مُبتسما على قاعدة عالية وقد شدّ قوسه أمامه. ولم تر "الشابة" سوى هذا الحب المحُوط بالورد، فقالت:

– إنه لفاتن، وكأني بضوء النهار يعانقه!

فقال "**موريس**":

– كأننا في سوق للتحف القديمة.. ولعلنا في دار فنَّان يَهْوَى العاديات الجنائزية.. فإن الإيطاليين لا يحجمون عن الجمع بين الجمال والموت!

واقترب منهما رجل في باكورة الشيخوخة، يرتدي قميصا أبيض، ويمسك في يده إزميل النحاتين، فحياهما بإشارة تَنم عن وقار يمتزج بالإكرام والنبل، وراح يتحدث بالإيطالية مع الشاب، بينما انهمكت "**أديث**" في اقتطاف الأزهار بإذن منه. وما لبثت أن انضمت إليهما وفي يدها باقة، وقالت:

– ها هي ذي باقتي. سأمنح كلا منكما وردة.

فَطفق ربُّ البيت يشكرها ويعبر عن عرفانه بصنيعها، دون أن تفقه حرفا؛ وإذ ذاك قام "**موريس**" بتقديمه إليها قائلا:

– السيد "**أنطونيو سيكاردي**".. إن السيد يقلد التحف الأثرية.. وإنها لمهنة جميلة!

فتطلعت "**أديث**" إلى عشيقها مُتسائلة؛ إذ ذاك قال:

– سأوضح لك ذلك فيما بعد.

وفيما كانا منصرفين– بعد أن استأذنا مضيفهما– أخذت المرأة الشابة تتندر هازئَة بهذه المهنة غير المألوفة:

– صانع تُحف مقلّدة؟!

فقال "**موريس**":

– ولِمَ لا؟ إن هذه التحف تُستخدم في تَزيْين الحدائق. ولو أننا أقمْنا بجوار المقاعد– في الحدائق الغناء– عمودا مُهَشّما، أو تمثالا لإحدى الحوريات الخرافيات، أو حجرا ذا طابع خاص لكان ذلك بديعا جدا. إنني أعرف رجلا فاضلا– في الحيّ اللاتيني– كان يصنع خيوطا كنسيج العنكبوت، تُوضع على زجاجات الشراب التي تُقَدّم في السهرات أو المآدب الكبرى؛ لتُوحِي بأن الشراب مُعتّق!

– وهل يربح كثيرا من المال، من مهنته هذه؟

– أجل، كثيرا.

– هذا مستحيل!

– لقد روى لي أن جميع الأغنياء المحدثين– وكَمْ من محدثين أثروا من التجارة وما إليها– قد شغفوا بفنه، وأصبحوا يُزيِّنون المنازل الجديدة التي يُشيِّدونها بتُحف مقلّدة!

– حسنا. ولكن.. تمثال الحب؟ لماذا يقوم الحب وسط هذه الأطلال الزريّة؟ كان من الممكن الاكتفاء بالزهور.

فقال:

– لقد سألت الرجل عن ذلك.

فسألته:

– وبماذا أجابك؟

– أجابني وقد ارْتسمتْ على شفتيه ابتسامة غامضة، كابتسامة "**الجيوكندا**"، بأن من المؤكد أن "الحب يَسْتمْرِئ العيش بين الخرائب والأنقاض!".

وصاحتْ "**أديث**":

– عجيب هذا.. فبينما نرى الإيطاليين يَنْحتُون الرخام ليضعوا قطعا منه في مقابرهم فيُحيلوها إلى قاعات استقبال أنيقة، إذا بهم يختارون التحف التي تشيرَ إلى الموت ليزينوا بها حدائقهم!

وراحا يصعدان في بطء جبل "**مون ساكريه**"، الذي كان يرتفع على مستوى المدينة بحوالي مائة متر. فلمّا بَلغَا القمة كان الليل قد أَرْخَى سُدُوله فاضْفى بهاء سِحْريا على غابات الصنوبر والشربين والكستناء والأرز، التي كانت تحتضن معابد القديس "**فرانسوا الأسيسي**"

العشرين المتناثرة التي شُيِّدت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، على أطرزة متباينة، منها المربَّعة ومنها المستديرة، ومنها ذات القباب ومنها التي بدون قباب، ومنها القوطية والرومانية، وأكثرها بيزنطية. وكان في مكان الهيكل- في كل معبد- منظر يمثل فترة من حياة القدِّيس، تبدو في تمثال من الفخار بالحجم الطبيعي فكأنه استعراض تاريخي صامت جامد، ومما كان يُكْمِلُ قداسة المكان تماثيل لأطفال رفعوا أيديهم في ابتهال إلى السماء، أو إشعاعات رسمت بخيوط ذهبية موحية بوجود الله!

ولم يكن "**موريس**" و"**أديث**" يَدَعان يوما يمُرُّ- منذ استقرارهما في "**أورتا**"- دون أن يذهبا إلى "**مون ساكريه**"؛ إذ لم يكن يبعد عن فندق "**بيلفيدير**" بأكثر من بضع خطوات. وقد اختارا المعبد الخامس عشر دون بقية المعابد؛ إذ كان يُقَال: إن الرسوم التي ضمّها من صنع "**ميشيل أنج**" (**ميكائيل أنجلو**)، وكان هذا المعبد على شكل أسطواني، تعلوه قبة وبُرْجُ قائم على أعمدة صغيرة من الجرانيت؛ مما كان يذكِّرهما بكنيسة "**كالفير دي ليمنك**"، حيث اتخذا قرار الرحيل. أما الأقواس ذات الاحديداب الخفيف- التي كانت تقوم على طول الردهة المرتفعة على مستوى الأرض ببضع درجات- فكانت كالإطارات، تبين خلالها مناظر الغابة، أو المعابد الأخرى الجَاثمة بين الخضرة، أو فوهة إحدى الآبار، أو جزء من صفحة السماء، أو ركن من البحيرة، أو جزيرة القدّيس "**جول**" التي كانت، ببُرْجها القائم في المقدمة، أشبه بحصن كبير وسط البحيرة الصغيرة!

*****

وكان من الطبيعي أن يتجها إلى معبدهما المختار، فراحا يصعدان الدْرب الموصل إليه، وقد بدتْ أشجار الأرز كأطياف سوداء على صفحة الأفق الضَّاربة إلى الحمرة. وهنا وهناك كانت المعابد البيضاء تتوارى تحت الأفنان، كأنها بيوت تَفيضُ بالودّ والصداقة.. وأمسكتْ "**أديث**" وردها بإحدى يديها بينما أحاطت كتفي حبيبها باليد الأخرى، وتنهَّدت هامسة:

- لقد كانت أمسية جميلة كهذه؟

فتساءل:

- أية ليلة؟

وكان جوابها:

- منذ عام.. أفتراك نادما على شيء؟

فقال وهو يُشيحُ بوجهه:

- لا.

ولكنها عادت تسأله:

- ألن تندم أبداً على شيء؟

فأجاب في شيء من الجفاء وقد ضاق بإلحاحها:

– نعم.. مطلقا!

ومالتْ إلى الأمام لتَسْعى إلى شفتيه؛ وإذا بها ترى في عينيه نظرات بعيدة أثارت مخاوفها.. كان ذاك الذي قام بينهما طوال هذا اليوم الأخير من العام الأول في غرامهما يبدو واضحا في عَيْني "**موريس**"! وإذ ذاك نَطقتْ بما كانت الحكمة تصدّهَا عن قوله:

– أين "**شامبيري**" يا "**موريس**"؟

فأجاب بسرعة وفي إيماءة صدرت عن ثقة زادت من هلع "المرأة:

– هناك!

إذن فقد كان يصوِّبُ نظراته– في أكثر الأحيان– نحو هذه الوجهة.. إذن فحبه لم يُنْسه شيئا! وانْبثقَتْ الدموع من عيني المرأة، ولم يُعْنَ الشاب بسؤالها عن سبب البكاء، ولكنه حاول أن يُسَري عنها بأن عانقها متسائلا:

– لكَمْ أُحبُّك يا "**أديث**"!

فأرسلت أنّة أسى. وسألته:

– أكثر من أي شيء؟

– أكثر من أي شيء!

– وحتى الموت؟

– أجل.

– أو لا يفوقه شيء؟

– محال!

فصاحت في رَغْبة ضارية:

– ولكنني لا أريد أن أموت.. إنما أريد أن أعيش، فهل ستحبني غدا إلى هذه الدرجة؟

فتساءل في دهشة:

– ولماذا غدا؟

فقالت:

– لأنني خائفة! ألا ترى معي أننا لن نستطيع أن نستمر على هذا المنوال؟

وإذ ذاك هتف "**موريس**":

– آه! هأنتذي تعترفين! لا، لن نستطيع المضي في العيش على هذا النَّسَق. فليس بوسعنا أن نتغلَّب على المستقبل، والماضي، والناس.. ولكنك كنت ترفضين الخوض في هذا الأمر!

فصاحتْ:

– اسكت يا "**موريس**".. صه!

ووضعتْ يدها على فمه، ثم عادت تقول ضَارعة:

– غدا.. غدا أعدُكَ.. سأُطيعُك، ولك أن تُقرّر مصيرنا.. ولكن، غدا وليس الليلة.. هذه الليلة الأخيرة من حقي أنا!

وحَلَّ فمها محل يدها على شفتيه!

ومرّ النهار سريعا. وأخذ الوهج الأحمر الذي كان يصبغ الجبال في الاضمحلال شيئا فشيئا.. ورانت على مياه البحيرة غلالة رمادية، كانت أشعة الشمس الآفلة تتخللها فتبعث فيها رمقا من الحياة. وما لبث "**موريس**" أن هبط درجات المعبد، وسار صوب الاتجاه الذي أشار إليه منذ لحظات، وكأنه مسلوب الإرادة لا يفطن إلى ما كان يفعل.. ثم التفت فرأى حبيبته واقفة بلا حراك، بين عمودين، وقد تجلّى قوامها الأبيض على الجدار الذي كان أقل بياضا.. تماما كما كانت تقف منذ عام على هضبة "**كالفير**" تنتظره.. وغُلِب مرة أخرى على أمره، فغمغم:

– ما أجملها!

أما هي فكانت تشم الورد وتتأمل المساء، وارتَدَّ ذهن "**موريس**" إلى الزيارة الغريبة التي قاما بها في الأصيل، فقال لنفسه:

– الحب ووروده!

ثم صاح:

– "**أديث**"، ألست قادمة؟ لقد أخذت البرودة تشيع في الجو، وليس معك معطف!

وفيما كانت في طريقها إليه اتجه ببصره نحو الأفق، وتصور بلده فهتف لنفسه:

– إن الأطلال باقية هناك!

ولكن ألم يقل له فنان "**أورتسا**" بابتسامته الغريبة إن الحب يَسْتَمرِئُ العيش بين الخرائب والأنقاض؟!

٢- العيد الأول

أراد "**موريس**" – في يوم عيد الميلاد الأول لحبهما– أن يحمل زميلته على الرحيل.. فبعد أن تناولا غداءهما اصطحبها إلى الطريق التي تُفْضِي إلى "**مون ساكريه**"، والتي تتخللها شرفات صغيرة مَحُوطة بسياج من الحجر، أُقيمت لمن يستطيعون تأمُّل البحيرة من عل، وكانت الشمس حامية، ولكن المرء يستطيب– في شهر تشرين الأول (أكتوبر)– أشعتها بدلا من أن يتحاشاها.. ولم تَنْبسْ "**أديث**" ببنت شفة، سواء عن حزن أو عن شرود بال، ولكنه ما لبث أن كان السباق إلى قطع حبل الصمت الذي أصبح يفرّق بينهما بدلا من أن يُوحد بينهما.. إذ قال:

– كان لابد أن يأتي هذا اليوم يا "**أديث**". لقد كنا سعيدين هنا، ولكن هناك من ينتظرني في "**باريس**"، وسيكون هذا بداية حياة جديدة.

وكان يرجو منها تشجيعا فلما لم يتلقَّ شيئا استطرد في ارتباك:

– سنهيِّئ لحبنا جوا عائليا، وسيكون لنا بيت. ثم إنني ساعمل على تَعْديل وضعنا، والحصول لك على طلاق من زوجك. وهو ما لم تكوني ترغبين حتى الآن في أن أشغل به. لقد فَصمْنا جميع العُرى دون أن ننظر إلى الوراء!

وأرادت "**أديث**" أن تَرُوغ من هذا القرار؛ فقد كانت تفزع من مغادرة "**إيطاليا**"؛ ومن ثمَّ تظاهرت بعدم الاهتمام بالمشروع إطلاقا، وقالت:

– ما أجمل الطقس في هذه الساعة! لقد كنت أحسُّ أمس ببرودة!

فجاراها في صبر قائلا:

– برودة؟ إن الهواء عليل حتى ليَخَال المرء أن الوقت لم يزل بعد صيفا!

فعقبت قائلة:

– ومع ذلك فقد حان الخريف. انظر! كانت شطآن البحيرة– المرتفعة، الموشَّاة– تترامى تحت أقدامهما، وقد ظهرت في مواجهتهما تضاريس الجبال ذات الانحرافات المتناسقة بينما انْتَثَر هنا وهناك هيكل، أو قرية، أو برج يُحددُ معالم المناظر الطبيعية. أما الأشجار والغابات فقد تبدل لونها في أيام معدودات، فلم تحتفظ بالخضرة الناضرة سوى أشجار الصنوبر التي كانت محوطة بغلالة ذهبية من الضياء..

ووقف العاشقان متكئين على سياج إحدى الشرفات، وقد أشاع جمال المناظر– التي كانا يوشكان أن يفتقداها– شَجَى كان يثير الألم في نفس "**أديث**، كما جرى لها من قبل في الـ"**سافوا**"، وأخذت تستنشق عبير الخريف– الذي كان موشكا على الفناء– وقد اتسعت طاقتا أنفها، وتوتَّرت أعصابها، وسرت في بدنها رعدة. أما "**موريس**" فلم يستطع أن يُحوِّل عينيه عن ذلك الوجه الذي لم يكد يذكر أنه رآه قط هادئا، بل كان دوما حافلا بالعواطف وكان يبدو وكأن ثمة نارا مستعرة تلتهم ما في نفس صاحبته، وتنعكس خلال العينين.. لقد تجمّعتْ في صفحة ذلك الوجه الصغير بعض خطوط دقيقة رقيقة، تنمُّ عن حركة الدم وهو ينساب في العروق تحت بشرة صفراء، وأريج ينْبعثُ من شعر أسود، و.. وجمال الدنيا بأسرها.. واستطاع "**موريس**" أن يلْمحَ– بنظرة واحدة– أثر العام الماضي على المرأة.. كان الشباب المستعاد، والحرية، واللهو، والمدن الغاصة بالفنون– التي زاراها– قد ساعدتْ على ازدهار حسنها..

كان قلبها يضْطَرمُ– عندما رحلا– بشهوات مُسْتَعِرة، أما الآن فقد هدأت واكتملت في وقت واحد.. قط لم يحدث له أن قدَّر سحر إغرائها كما قدَّره إذ ذاك.. بل إنه كان يشعر بحزن مُستعذب كلما فكر في أنه قد يفقدها!

وأحسَّتْ "**أديث**" بنظراته المُلِّحة، فابتسمتْ وأشارت إلى الأفق بحركة واسعة من ذراعها، وكأنها تحتويه بينهما، وقالت:

– هذا أجمل مما أتيح لنا في الأيام الأولى.

فلم يتمالك أن يَجْهر بآخر فكرة عنتْ له:

– وأنت أيضا . . إنك أجمل مما كنت!

وعجبت لهذه التحية غير المرْتَقبة، فأجابت:

– أصحيح هذا؟

فقال:

– أجل . . انظري إلى الأشجار . . إنها أخف مما عهدناها، كأنها تخففت من حِمْل لا نفع له . ومن الممكن الآن التطلُّع خلال أفنانها إلى مسافات شاسعة . وكذلك النظر إلى عينيك يقود إلى أغوار أعمق من ذي قبل .

– حتى أغوار قلبي؟!

– حتى أغوار قلبك!

وابتسمت وهي تستعرض كل ما يجهله أي شاب عن قلب أية امرأة، ولما كانت لا ترتاب في مدى سلطانها عليه فقد رأت أن الفرصة مُواتِية كي تثير من ناحيتها أمرا كانت تنأى عن الخوض فيه منذ زمن . كان غرضها أن تتخفَّف من جميع الأكاذيب، وأن تشدّ عشيقها إليها برباط لا انفصام له، وذلك بأن تحمله على أن يقبل أن يشاطرها ذنبا يستحيل عليها أن تكتمه بعد الآن . فإن قبوله خليق بأن يكون أعظم دليل على الحب الذي يصيبها من "**موريس**" . ولو أنها كانت في مكانه لما أحجمت عن أن تهبه ذلك الدليل . ولكن المرأة حريَّة بأن تكون على حذر من الرجال، إلى أبعد مدى؛ لأن رأيهم في الشرف عجيب!

إن حقها في أخذ ونقل المبلغ الذي منحها إيَّاهُ السيد "**فرازن**"، كان أمرا لا يحتمل أي شك في نظرها . فأية منحة هذه التي يملك المانح استبقاءها لديه؟ لقد ذهبت إلى درجة التحلل من أي لوم قد يثيرُه ضميرها إزاء الطريقة التي استولت بها على المبلغ . . ففيم تهمها الطريقة؟ إن النساء لا يفهمن جميع ما يتعارض مع مصالحهن فهما كاملا! لقد قيل لها: إن المال يخصّها، فوجدت في هذا ما يكفيها . . إنها ما شعرت بأي حَرَج عندما سرقت زوجها؛ فقد كانت تكرهه بل إنها لم تعتقد قط أنها سرقته، فهي لم تأخذ سوى المبلغ الذي كان من حقها فقط، مع أنه كان في وسعها أن تَسْتولِي على أكثر منه . ثم إنها قدَّمت – من جانبها – شبابها وجمالها، ودفعت الثمن من حياتها مُرَطَّبا بالدموع . أفيستطيع أَحَدٌ أن يرد لها تلك السنوات التسع التي قضتها في نُفورٍ مكبوتٍ، واشْمئْزاز مُترَاكم؟!

✽✽✽✽✽

ومع ذلك، وفي اللحظة التي همَّت فيها بأن تجهر بكل شيء، تولاها نوع من التردُّد . وما لبثت أن قالت في أعذب صوت:

– إذن فالسعادة تخلع على المرء جمالا؟ إن هذه أولى سني السعادة في حياتي، منذ طفولتي! آه! ليتك تعرف ماضي حياتي!

فهتف بها:

- لطالما سألتك أن تحدثيني عنه يا "**أديث**".. ارويه لي.. إنك لم تعودي تقوين على صوْن الأسرار!

وكان ما روته قصة معدة ومُنقحة، ككل سيرة في التاريخ: طفولة سعيدة مُدَلَّلة، في وسط راق مُترف. ثم إفلاس أبيها الذي ابتلي بالميسر، وكان إفلاسا لم يتحمله، فقاده سريعا إلى القنوط، والإفراط في الشراب، فالمرض، فالموت.. ثم الانزواء في الريف، مع أم مُضعْضعة القوى، حزينة. والثورة النفسية التي اجتاحت "**أديث**" على هذه الحياة الرتيبة.. وحمّى الشهوة- المتَأجِّجة. تأكل قلب الفتاة الشابة التي ورثت عن أبيها تهوُّره وإسْرافه، والتي هوت إلى درجة الاضطرار إلى تدريس العزف على "البيانو" لأبناء القادرين من الجيرة، وهي تَرْتَقبُ بفارغ الصبر ذلك الحب الذي كانت تأمل في أن يواتيها بالحرية!

وقاطعها الشاب متمتما:

- تلك كانت حياة تعسة.

وظنّتْ أنه يرْثي لها، فابتسمت شاكرة. وإذ كانت مُسْتغرقة في ذكرياتها، فإنها لم تفطن إلى الانتباه الذي راح يبديه نحو كل صغيرة وكبيرة من كلامها.. وقالت:

- تقريبا!

فسألها:

- وهل كنت إذ ذاك جميلة؟

فأجابت:

- ما أظن ذلك، فقد كنت نحيفة كجذع الكرْم!

ولكنها كانت تعرف فتنتها، إذ أردفت في دلال:

- الذي يستخدم في إيقاد النار!

وعادت تستأنف قصتها. فقد أخذ "**فرازن**" يلاحقها، وكان يثير اشمئزازها بعينيه الغائرتين، والعناد الذي استشعرته وراء ما كان يتظاهر به من دعة، وثارت عليه فقرر أن يكون أول من يتقدم- من كل الذين كانوا يتقربون إليها- لطلب يدها. وكان يمتلك ثروة طيبة، ومركزا محترما في "**باريس**"، وفي وسعه- لو شاء- أن يتخذ مكتبا للتوثيق في "**جرينوبل**" أو أية بلدة مجاورة.. وكان زواجها منه "زواج مصلحة" في أبشع صوره.. فقد كانت تكره الفقر، وكانت أمها- التي لم تَألفْه- تمْقُتُه هي الأخرى وتَخْشاه. فالمسنُّون من الناس لا يشغلون بغير الحياة، أما الحب فلا يُحرّك فيهم ساكنا! وهكذا كانت الظروف العائلية تَسدُّ على الفتاة كل المنافذ..

واختتمت قصتها قائلة:

- وهكذا.. بعْت نفسي!

ولم يكن "**موريس**" قد قاطعها خلال ذلك، بل راح يُنْصت ودقات قلبه تتسارع كشخص

يَنْحَدر إلى هاوية. حتى إذا كفّت عن الكلام، لفظ في جهد الكلمات التي كانت على طرف لسانه منذ لحظة:

– وصداقك؟

فأجابت:

– مهلا، فسوف تفهم كل شيء. وكان ثمة نفر قليل من الناس قد خرجوا للتريض في الطريق المشمسة.. كما كان ثمة أطفال يلعبون في الغابة، بعيدا عنهما؛ وبذلك كانا وحيدين تقريبا ولكن وجود الناس في تلك اللحظات الحرجة التي كان العاشقان يجتازانها، والتي كانت المرأة قد أرجأت أوانها بلباقة حتى ذلك الوقت.. كان وجود الناس– وإن لم يضايقهما في شيء– قد حرم المرأة سلطانها الأكبر في الجدل.. سلطان القبلات! ولقد أدركت– إذ لم يكن في وسعها سوى أن تدرك– سر قلق حبيبها واهتمامه. وكم فكرت في ذلك من قبل. كان هذا الموضوع مبعث عذاب لهما منذ وقت طويل، ولطالما حاولت استبعاده بجهود كثيرة، وبأكاذيب، وبإعراض عن الحديث في الماضي، فإن المحبّ لا يحسب للنتائج حسابا.. وكان كل ما يهمها هو أن تقصي ذلك الموضوع عن نطاق هنائها.. بل كانت في قرارة نفسها ترى أن التخلّص من هذا الموضوع ضمان لدوام ارتباطهما!

وبينما كانت تشحذ ذكاءها بهمة، وكأنه سلاح تحاول أن تفرض به تبريرا كانت تبغي– مخلصة، صادقة– أن يحسم الأمر، عاد "**موريس**" يقول بصوت محتبس:

– صداقك؟ ألم يكن لك صداق؟

وفي نفس اللهجة الآمرة التي أخذها عن أبيه، قال:

– تكلّمي.. يجب أن تتكلمي.. هيا!

ورَمَقَتْه مذهولة، مرتبكة، وقد داخلها نوع من الذُّعْر. إن هذا الشاب الكبير، الذي بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة، والذي كان جد لطيف– بل جد محبوب– والذي خالت أنه في قبضتها.. لكَمْ تحوّل فجأة إلى سيد آمر. إذن، فهي لم تكتشف بعد كل أركان القلب الذي استَحْوذت عليه.. ودفعتها الغريزة إلى الإفضاء بأقل ما كان لديها من الحقيقة، حماية لحبهما، فقالت:

– صداقي يا "**موريس**"؟ إنه مِلْكِي فعلا!

ولكنه تساءل في إصرار:

– ومن أين جاءك؟ إنه لم يكن من أهلك إذن؟ آه، لقد فهمت! ألم يكن هو الذي نُصَّ عليه في عقد زواجك؟ أجيبي!

وحاولت أن تَسْتَرضيه بمجاراته، فقالت:

– أجل، هو الذي منحني إيَّاه. وماذا في ذلك؟ إنه ملْكي!

وتمالك نفسه– مراعاة لوجود المارة– وقد استبد به ذعر يفوق ذاك الذي تولاها. على أنه شاء أن يختتم استجوابها قائلا:

– لا، أيتها التعسة.. إنه ليس ملكك، فأنا خبير بهذه العقود. لقد كان منحة تتقاضينها

إذا عشْت بعد موت زوجك. هكذا هو، وإني لموقن من ذلك، فاستجمعي أفكارك، واحذري!

فجمد كل كيانها إزاء هذا الإنذار الذي انساب من بين شفتيه الحبيبتين.. الشفتين الرقيقتين، الحمراوين! إن الأمر لم يعد- بالنسبة لها- سعيا إلى تحويل عشيقها إلى شريك في الذنب؛ ليكون ذلك أعظم ضمان للحب، وإنما أصبح الأمر يَقْتصِر على إنقاذ هذا الحب! ولم تكن تملك سوى نبرات صوتها التي كانت تُدرِك مدى تأثيرها عليه.. ثم، ألم يكن ما اعتزمت أن تؤكده هو الحقيقة بعينها؟

وهتفت:

- لا تعاملني هكذا يا "**موريس**"، فأنت مخطئ. إن صَداقي ملكٌ لي، إذ آل إليّ مباشرة بفعل إصرار أحد أصدقاء أبي، فهل تريد دليلا؟ لقد كنت أعطي أمي- أثناء وجودها على قيد الحياة- رِيعَهُ، وكان لي الحق في سحبه. أفرأيت خطاك؟ لا تعاملني بهذا الشكل!

وأخذ الموظف السابق بمكتب "**فرازن**" يستعيد- في غَمْرة الارتباك- كل معلوماته في القانون، باحثا عن سند، ثم قال:

- إنها منْحة، على أية حال.. منحة منه. والمنحة عُرْضة للإلغاء في حالة الطلاق.

ولكنها راحت تؤكد له في حرارة:

- لم يكن صداقي من هذا النوع.. أُقْسِمُ لك!

فقال:

- حاولي أن تفكري بدقة يا "**أديث**"، فالأمر خطير إلى درجة تجعل حياتي مهددة.

فهتفت:

- حياتك؟

وكان جوابه:

- نعم.. أو شرفي. وهما سِيَّان! أكنت تستغلين بنفسك هذا الصداق، وتستولين على ريعه؟

فأجابت:

- هكذا كنت.

ومن حديثه اهتدت إلى الطريقة التي يخلق بها أن تَتَّبعَها في الإجابة، فأقبلت على الكذب في شراهة. لقد كان من المتفق عليه فعلا، أن المائة ألف فرنك- التي منحها إياها السيد "**فرازن**"- ملك لها، ولكن استثمارها كان بإشراف الزوج.. ولم تكن لتبقى بعد دعوى الطلاق! وفي كل الأحوال، لم تكن للسيدة "**فرازن**" الحرية في التصرُّف فيها، ولا في استثمارها، ولا في أن تسحبها وحدها. ولكن ما الذي يهمّ من كل هذه الحجج؟ على أن "**موريس**" ظلّ سادرا في أسئلته، وكأنه من قضاة التحقيق.. فقال:

- أين كان ذلك الصداق مُودَعا؟

فأجابت:

– في مَصْرَف "**يونيفرسال**"، في شكل سندات عملت على تحويلها كما سبق أن رويت لك. فدَعني!

ولكنه مضى في تساؤله:

– أكانت مودعة باسمك؟

وأجابت في إصرار:

– باسمي.

فسألها:

– أمن هذا المصرف سَحَبْت المبلغ قبل سفرنا؟

وكان جوابها:

– من هناك...

وعاد يتساءل:

– أكان بوسعك أن تَسْحَبِي من فرع "**شامبيري**" هذا المبلغ بتوقيعك وحدك؟

وأكّدت له ذلك، فقال:

– إذن فقد تزوجت على أساس انْفصَال ممتلكات الزوجين؟

وكان جوابها في هذه المرة أيضا:

– هو ذلك!

*****

وكان قد سألها مرارا في هذا الصدد– منذ باحت له بحبها، ثم منذ فرارهما– مُسْتَفْسرا عن مصدر ثروتها الشخصية، فكانت تلقي في رَوْعه أنها ميراث عائلي. فلما ابتكرت خرافة المصرف– وقد توهمت أنها لا توقظ شُكوك الشاب– حرصت جاهدة على التشبُّث بها.. وكانت إجاباتها الدقيقة، السريعة، تطابق إيضاحاتها السابقة، وجَديرة بأن تلقى في مجموعها تصديقا. فلم يكن من البعيد عن الصدق أن مستشار الأسرة– "**دانيماري**"– قد تدخل قبل توقيع العقد، مستغلا حب السيد "**فرازن**"؛ للحصول على هبة مباشرة، مُطْلَقة، نهائية، بغية ضمان مستقبل الفتاة؛ وليكفل لها– في ذلك الحين– مزيدا من الاستقلال والكرامة.

فلماذا ارتاب "**موريس**" في مثل هذه الحقائق؟ ألم تقض هذه الحقائق على هنائه بما فيه الكفاية؟ لقد كان شططا منه أن استسلم لمثل هذه الغواية التي أفاق الآن منها ثائرا، وإن قبل– في رضا مشين– أن يؤخر السعي للحصول على عمل، حتى انقضاء هذا العام من عمر حبه. على أنه لم يكن يعتقد لحظة واحدة أن ثروة "**أديث**"– التي كان يتوق إلى عمل كي يُتمّ نقصها– نبتت من ذلك الأصل المسمم.. ولكن، ها هو ذا الأصل يتكشَّفُ له ليُحَطم عزة نفسه؛ وليهدم فيه كل احترام لنفسه.. وحتى إذا كانت هذه الثروة حقا خالصا لزميلته إلا أنها

جاءت في الواقع من رجل هدم هو حياته العائلية؛ ومن ثمّ فإن أتفه قدر تسرب منها إلى حياته إنما يعتبر خزيا لا يَقْوى على تحمله، مهما يكن الثمن!

وراح- في حيرته- يحسب الرقم الذي بلغه دينه، ثم سألها:

- إن نقودك مودعة في المصرف الدولي بـ"**ميلان**" . فهل تعرفين كم نَقصت؟

فأجابت "**أديث**" :

- إنما أنت الذي تتولاها.

فقال:

- لقد بلغ النقص ثمانية آلاف فرنك تقريبا..

وإذ ذاك قالت في ليونة، متظاهرة بالاحتجاج:

- إذن فنحن لم نبذِّرْ كثيرا.

والواقع أن هذا المبلغ، إلى جانب ما كان يحمل هو، كان قليلا بالنسبة إلى نفقات عام كامل انقضى في رحلات وأسفار. ولكن الحياة كانت رخيصة في "**أورتا**"- حيث قضيا ستة أشهر- كما أن الملاهي كانت قليلة، وزهيدة النفقات. ولقد ارتدت "**أديث**"- بعد فترة قصيرة من التبذير- فباتت تؤثر البساطة والاعتدال، وتقنع بالقليل من النفقات.. مكتفية بالحب!

تُرَى كيف، ومن أين يحصل على هذه الآلاف الثمانية من الفرنكات؟ لسوف يرى نفسه مُجَرّدا من الكرامة والشرف ما لم يردَّها، ولسوْف تصبح الحياة عبْئا يثْقلُه، وأخذ "**موريس**" يوسع صاحبته قسوة، نتيجة ما داخله من شعور عميق بالضعة:

- هذا حسن.. إنني مَدينٌ لك، وسَأوفي الدَّين، ثم ننظر في الأمر بعد ذلك!

فتنهدت وقد خارت قُواها، وخَبَتْ عزيمتها، وغلبتْ على أمرها، وقالت:

- أيُّ حديث هذا الذي يدور بين حبيبين.. وفي عيدنا الأول؟

وأخفتْ وجهها في راحتيها، فسار إليها- وهو أشدّ منها تعاسة- وحاول أن يُقْصِي راحتيها عن وجهها قائلا:

- اسمعي يا "**أديث**" إنني لا أتهمك أنت بالذات. فنحن نعيش معا كما لو كنا زوجين؛ ومن ثمّ فلست أفكر إلا في غرامنا. لقد أخطأت.. إنني ما زلت شابا صغير السن!

فأسلمته يديها دون أن تخشى أن يرى عينيها المغرورقتين بالدموع، وقالت:

- أو لست أتقبَّل كل شيء منك بالشكر والعرفان؟

فقال:

- ولقد كنت أودُّ أن تكون هذه حالي.. ولكن أن يكون ما تقبلته منك أنت، وليس منه هو! لقد ثار لنفسه، وإذا كنت قد قوَّضْت بيته فإنه قد طعن هنائي.

فتساءلت:

- أو تُرَاني أُفَكر فيه؟

ولكنه استطرد في أسى وإصرار أليم:

– لقد كنا نعيش في غير هَمٍّ ولا شاغل. ولكن هذا العهد قد انتهى!

وكان في لهجته من القنوط ما حملها على أن تلقي بنفسها بين ذراعيه هاتفة:

– اصمت!

وأرادت أن تجره إلى خارج الشرفة التي تركا فيها ثقتهما تتسرَّب وتتبدّد، فقالت:

– تعال إلى الغابة يا "**موريس**".. تعال، اجلس في الظل، خلف معبدنا. فهناك نكون في خَلْوة، ويخفُّ شقاؤنا!

فقرر في التو أن يستجيب لها، وقال:

– أجل.. لننصرف من هنا!

وكانت الأشعة تتخلل أشجار الصنوبر راسمة هالات مضيئة حول أوراق الشجر الذابلة المتساقطة على الأرض، فبدتْ هذه الهالات على الطريق الظليلة، وكأنها بقع رخوة يجب تخطيها. ودارا حول المعبد، ثم اختارت "**أديث**" ركنا ظليلا منعزلا، حملت حبيبها على الجلوس فيه، ثم احْتوتْ وجهه بين راحتيها وأغرقته بالقبلات. وبدا الشاب مُسْتسْلِما لغزلها في البداية، ولكنه ما لبث أن دفعها عنه فجاة، وصاح:

– لا، دعيني! انصرفي.. إن إرادتي تتلاشى عندما تُلاَصِق شفتاك شفتيَّ. إنني لم أعد شيئا مذكورا.. لم أعد أكثر من قلب يَنْبُضُ بين جوانح ميتة!

– إنني أحبك.

– وأنا أحبك كذلك!

واسْتَوَى على قدميه، كمن ذهب عقله، وأومأ إلى البحيرة التي كانت تتألق خلال الأفنان، فارتعدت أوصال "**أديث**"– إذ أدركت ما كان يَرْمِي إليه– وهتفت:

– ولكنني أحبك أكثر من ذي قبل. ما عليك إلا أن تَأمُر فأطيعك وأصغي إليك.

– أتجيئين معي؟

– وإلى أين تقودني؟

فقال مُومئا نحو البحيرة:

– هناك!

فانكمشت بحركة غريزية وهتفت:

– اسكت!

وكما أقنعته بالرحيل، على هضبة "**كالفيردي ليمنك**" أخذ هو– في هذه المرة– يحاول إقناعها:

– تعالي، فإن العام الأول في هوانا قد مات! تعالي، فإن حبنا قد مات. ولن يفتقدنا أحد. إن الماء ليس قارسا، ولننزلق إليه من أحد القوارب! لقد غدوت مَجَرَّدًا من الشرف، فهل تجيئين معي؟

وأمسكت "**أديث**" بذراعه بقوة، وصرخت مذعورة:

– لا، لا.. إنني أحبك، وإذا أحب الإنسان فإنه لا يرغب في الموت. إن الإنسان إذا أحب لا يتورع عن الكذب، والسرقة، والقتل، ولكنه لا يرغب في الموت! والعشاق الذين ينتحرون، لا يحبون غرامهم!

وتخلَّص "**موريس**" من قبضتها دون أن يشفق من أن يجرح شعورها، وصاح:

– دَعِيني.. لا تَلْمسيني!

وانطلق هاربا. وبنفس سرعته، هرعت المرأة في أثره.. وكفّ الأولاد عن لعبهم في الغابة؛ لينصرفوا إلى متابعة السباق!

على أن "**موريس**" كان قد ابتعد عنها، فلم يعد في وسعها اللحاق به. ويمّمَ لفوره إلى فناء "**بوتشيوني**"، وهو مكان كان قد اكتشفه في نزهاته مع "**أديث**" يقوم فيه برج مربع عال، هو الطلل الباقي من قصر قديم، وقد حفّت به جدران مهدمة، تخللتها الأعشاب والنباتات المتسلقة.. وكان موقعه في الطرف الأقصى لبحيرة "**أورتا**" على تلّ اكْتَسَى بأشجار الكستناء، وأطلّ على مساحة شاسعة تنتهي في الجنوب عند "**نوفار**"، وهي مدينة بديعة تقوم في نهاية سهل يليه جبل "**مون روز**" الذي تشرف قمته النائية على سهول أخرى تحفّ بها جبال بدت ثلوجها متألقة تحت الشمس.

وكان المكان قفرا، لا مثيل له في البطاح المجاورة، من حيث انبساط الطبيعة وتجلّيها أمامه، وكان "**موريس**" يُكْثِرُ من التردد عليه، عندما كانت صاحبته تتركه لنفسه بضع ساعات، وقد برح بها التعب.. وهناك كان يحلو له أن يسرح البصر صوب بلده. وهو يَسْتَشْعِر وطأة الغربة!

ومكث "**موريس**" في تلك البقعة طويلا، وهو ينكأ جراح نفسه ويُحْيِي مواتها.. تُرَى لماذا لم يداخله في تلك الساعة سوى الشعور بالشقاء، برغم ما كان ينبغي أن يَغْمُر شبابه من عواطف جياشة؟ لابد إذن أن هناك شيئا آخر غير الحب.. شيئا بلغ من سلطانه أنه كان من القوة بحيث نزل بالحب إلى المرتبة الثالثة– وإن لم يستطع القضاء عليه– فأفسد بذلك ما كان في الحب من ألوان السعادة.. إن الحب لم يكن يشغل الحياة بأسرها قط، بل إنه لم يَقْوِ يوما على أن يعيش في معزل. منفصلا عن بقية الحياة.. وهو إذا تُرِكَ وشأنه لم يَعُدْ سوى قوةٍ جامحة هدَّامة! وهكذا وقر في نفس "**موريس**" أن حبه قد أوقع– ولابد– كارثة حلّت بمن كانوا في الجانب الآخر، خلف تلك الجبال التي كانت تحجب الأفق.. فهل في وسعه أن يلقي التبعة على الظروف وحدها؟ لا إنه لو استعاد الماضي في صراحة لوجد أن هذا الماضي يدينه. لقد تكشّفتْ له نفسه، فرأى أنه مسؤول عما بدر منه من رعونة وضعف: مسؤول عن قبول الرحيل مع تلك المرأة، في حين أنه كان خليقا بأن يدرك أن موارده لن تلبث أن تنضب قبل مضي وقت طويل.. مسؤول عن التبريرات التي أدلت بها "**أديث**" إليه دون أن يطالبها بدليل واحد عليها، مع أنه كان من السهل عليه أن يلمس ضعفها.. مسؤول عن انصياعه لغوايتها،

وموافقته على الاستمتاع معها بالحاضر، دون أن يربط بين هذا الحاضر وبين أي ماض أو مستقبل.. ومسؤول كذلك عن استسلامه لضراعاتها عندما ألحتْ عليه في أن يمنحها من حياته عاما يقضيه في نسيان.. عاما يقضيه في هناء.. عاما يقضيه في كسل وخسّة!

وتجلّى له أنه إذا أراد الإبقاء على شرفه فلن يتسنّى له الإنقاذ إلا على أيدي أسرته.. فقد رأى أنه بغيرها ضائع؛ لأنه لن يستطيع- وقد لا يستطيع لأمد طويل- أن يُسَدِّدُ تلك النقود التي لم يكن راغبا في إنفاقها، ولم يداخلْه شك في أن الأسرة ستَخف إلى نجدته لو أنه استغاث بها؛ إذ كيف تَنْكُصُ عن ذلك؟ أو ليست متضامنة معه في عاره؟ لو أنها كانت متضامنة في عاره فهو إذن مطالب إزاءها بالتزامات هرب منها.

لقد كان الابن المفضل في أسرته منذ مولده، وقد ارتبط نحوها بالتزامات أهملها، فَحُكْمها إذن حُكْم العقد المفسوخ! هذه الأسرة التي نَدينُ لها بالعوْن في أوقات المْحَن، وفي الخطر. بأي حق نسيها في انطلاقه وراء سعادة أنانية تكاثفت تبعاتها كلها ضده؟ لقد فرّقت كبرياؤه بينه وبين أبيه، ولكن أمه خليقة بأن تكون موضع ثقته، فيطلب منها المبلغ اللازم لتحريره.. فإن هذا المبلغ هو كل ما ينبغي أن يناله في الحال، حتى يستردَّ كرامته وشرفه في نظر نفسه، قبل كل شيء!

وما إن عقد النيّة على ذلك حتى عاد إلى الفندق فكتب إلى السيدة "**روكفيار**". ولم يكد يتم الخطاب ويسلمه إلى البريد حتى عادت "**أديث**"، ونحها في نهاية الردهة؛ فبهت إذ رآها بهذه السرعة ولم تمض إلا ساعات قليلة على ابتعاده عنها. لقد ظلّت- منذ عام- تشغل كل أيامه، وكل خفْقَة من قلبه، فهل تُرَاها قد وجدت نفسها مجردة من هذا السلطان بهذه السرعة؟

أما هي فقد وقفت حين وقع بصرها عليه، وقد انْعقَد لسانها، ثم هرعت إليه فالقت بنفسها بين ذراعيه هاتفة:

- أهذا أنت؟ أهذا أنت؟

فأجاب في حنان ضاف:

- يا حبيبتي.. يا عزيزتي!

وقالت:

- إذن فأنت هنا.. ما أسعدني!

وأومأت إلى البحيرة في ذُعْر؛ لتوضّح له عمّا جال بخاطرها، وقالت:

- لقد جئتُ من هناك.. سرتُ على طول الساحل الرملي. لنجلس.. ألا تريد؟ لم تعدْ ساقاي تقويان على حَمْلي.. لكم استبدّ بي الخوف.

ولم تكف عن التَّحْديق إليه، فوجد في منظرها الفتنة القديمة. وكان الخريف يلفهما بإغراء ناعم، فوقف الحب منتصرا على الأطلال! وأقبلا على ارتشاف هناء كانا يعلمان أنه مَسُوقٌ إلى الفناء!

ولم يعودا- منذ ذلك الحين- يتحدّثان عن الماضي، وكان "**موريس**"- من ناحيته- ينتظر

ردا على خطابه. أما "**أديث**" فلم تجسُر على سؤاله، وإنما راحت تضاعف من فتنتها كي تَرُوقَ له. بيد أن هذه الفتنة ذاتها كانت قد تغيَّرت، فلم يعد فيها إثارة ولا احتدام دائب؛ إذ إن خوفها من فقدان حبيبها جعلها وادعة خانعة، تذوبُ ضَعْفًا وحنانا، وكانتْ تسْعى لاجتذابه إلى الحديث، وتجهد في البحث عن الموضوعات التي تلذّ له قراءتها، وتعْزف له المقطوعات الموسيقية التي يؤثرها في حين أنه لم يعد يعاملها إلا في ترفّق، وكان كل منهما ينعم بهذا الوئام الناعم المتجدّد، ولكن.. في شيء من الضيق؛ إذ إن وجودهما معا بات مجردا من البهجة، ومن الثقة، ومن الاطمئنان!

وكان ثاني أيام شهر تشرين الثاني (نوفمبر) قاسيا عليهما أكثر من سواه؛ فقد أراد "**موريس**" أن يَخْرجَ للنزهة وحيدا كي يستعيد ذكريات أسرته في ذلك اليوم الذي كان يحتفل فيه بإحياء ذكرى الأموات. ولكن "**أديث**" توسّلتْ إليه أن يصطحبها، فقَبل في غير ابتهاج، وذهب ينتظرها عند "**مون ساكريه**" ريثما تستكمل تأهبها وتلحق به.

وسألته حين وافته:

– إلى أين نذهب؟

فأجاب:

– إلى المقابر، كما يفعل كل الناس اليوم.

وكان عليهما أن يجتازا– في طريقهما إلى المقابر– حقلا غير مزروع، كان فيما مضى جزءا من مقبرة "**أورتا**" ثم أزيلتْ منه الأضرحة، وفصل عنها، وكانت المقبرة تضمّ قبورا غير ظاهرة، ولا يعرف أصحابها؛ إذ لم يكن ثمة ما يبرزها للنظر: فلا أسماء، ولا صُلْبان، ولا ارتفاع فوق مستوى الأرض. ولما كان ذلك اليوم هو عيد جميع القديسين فقد نثَرتْ أيد مجهولة باقات البنفسج هنا وهناك، فحولت القفْر إلى حديقة!

ووقفت "**أديث**" و"**موريس**" في ذلك المكان المنْعزل الذي أحاطتْ به أشجار الكستناء، وقد بدتْ أوراقها معلّقة في الهواء. تكفي لفحة من نسيم لإقصائها عن الأغصان. وهبّتْ مع دنو الليل نسمة عليلة، فتساقطتْ بعض الأوراق، وراحتْ تدور حول نفسها في الهواء ثم استقرَّتْ إحداها على قبعة المرأة الشابة وأثار مشاعر "**موريس**"– في ذلك اليوم المفعم بالانفعالات الجيّاشة– أن رأى هذا الرمز الحزين، فوق ذلك الوجه الساخن البَشْرة، ذي العينين اللتين تشعان لهيبا.. وفوق ذلك القوام الذي كان– برغم وقوفه بلا حَراك– ينضح بحرارة الحياة!

وإذ طال صمته أومأتْ "**أديث**" إلى الزهور وقالت:

– ما أجمل الزهر!

وأخذ فكراهما يحومان حول الموت الذي غطاه الزهر. وأفاق العاشقان إلى نفسيهما على مهل، فتأمّلا الأشجار التي كانت تقوم في صَفٍّ حجبهما عن الأنظار، ثم دنا كل منهما من

الآخر.. وتعانقا.. فوق القبور!

٣- الأطلال

اسْتُدْعِيَ "**موريس**"- في اليوم الثاني بعد تلك النزهة- إلى مكتب الفندق. وقيل له: "إنّ ساعي البريد يطلبك، بشأن خطاب مسجل".. وعرف "**موريس**" الظروف الصفراء التي يستعملها أبوه فأسرع إلى فض الأختام بينما كانت مديرة الفندق تتأملها في عجب، بعد إذ قرأت بيانات التّسجيل، وكان الخطاب المجلَّلُ بالسّواد يحتوي على ورقة مالية من ذات المائة فرنك، وإذْن مصرفي قيمته ثمانية آلاف فرنك، على المصْرف الدولي بـ"ميلان" بتوقيع أخته "**مرجريت**". وهتف الشاب لنفسه:

- الآن أصبحتُ سيد نفسي!

كان الاعتزاز بالنفس هو أول ما خامره بعد الهوان. وحين اطمأن، فطن إلى حافة الخطاب المجللة بالسواد، فانقبض قلبه. لقد وقع حادث سيئ هناك أثناء غيابه. والمرء في مَيْعة الشباب- وبعد ذلك أحيانا- لا يتصور قط احتمال فقدان أولئك الذين يحبهم، بل إنه يَنْأَى عنهم وهو واثق بأنه سيجدهم عند عودته. ثم يتبدّدُ هذا اليقين في المستقبل، عند وقوع أول مصاب. ولما كان "**موريس**" قد فارق أهله، وحرم أنباءهم، وانْصرف إلى نزوات الحياة واسْتغرقته أنانية الهوى فقد كان حَريّا بأنْ يجهل ذلك القلق الذي يَنْهشُ الصدر في نَهَمَ وَحشِي عندما تعاوده الذكريات. وكثيرا ما كان يتذكّر أسْرته- بل كثيرا جدا- فيتمثل الفراغ الذي خلفه فيها.. ولم يكن وجود "**أديث**" كافيا لطرْد أطياف الذكرى دائما، ومع ذلك فإنه لم يتصور قط حدوث وفيّات في الأسرة. على أنه منذ بضعة أيام- أي منذ بدأ فصل الخريف يَخْلعُ تقلباته على هناء العاشقين- كان "**موريس**" يتمثّل وجه أمه الشاحب، أكثر من ذي قبل، ويحسّ على وجهه اللمسة الأخيرة التي ربتتْ بها يدها الباردة وجهه، فعاد يسْتشعرها برغْم مرور عام!

ولم يكن متأهّبا لتلقّي الصدمة.. ما السبب في أن "**مرجريت**" هي التي كتبت له؟ ثم على من تفْرض كل هذا الحداد؟ ولم يجْرؤ على الإجابة عن هذا السؤال.. فقد كان الجواب يفرض نفسه فرضا. وتناول "**موريس**" قبّعته وغادر الفندق والخطاب في يده.. كيف يقرؤه في مكتب الفندق؟ لا ولم تكن الشّرفة بالمكان الملائم، ولا الطريق المحْفوفة بالأشجار، ولا الغابة.. فقد تلحق به "**أديث**" بعد هنيهة، فتفاجئه، في حين أنّ الحزْن الأليم الذي حمله الخطاب كان حزْنه الخاص، وما كان راغبا في أن يقتَسمَه مع أيّ شخص.. فإنّ اقتسامه يخفف من حدّته، في حين أنه كان يريد أن يَحسّ بوخزاته!

وحين أصبح خارج الفندق قرأ السطور الأولى، ثم انطلق في الطريق كوحش جريح مطارد. وأخذ يواصل انطلاقه كلما لمح أثرا للمنازل؛ إذ كان ينْشُد خلْوة يبكي فيها دون أن يراه أحد؛ ومن ثم يَمَّمَ شطر برج "**بوتشيوني**"، ولم يتوقف إلا عند قمة التل، في أسفل البرج، وكان

لاهث الأنفاس، فتهالك على العشب النامي بين الجدران المنهارة؛ إذ ظل يعدو وكأنما كان في وسْعه- أو في وسْع أي امرئ- أن يفرَّ من القدر المحتوم! وما إنْ استردَّ أنفاسه حتى استبدّ به الخوف، وراح يعْتصره، وكان الخطاب المؤلف من بضْع ورقات قد تجعّد في قبضته.. ولم يجْرؤ على قراءته كله؛ فقد كان يعْوزه جُهْد عظيم حتى يسْتطيع أنْ يواصل القراءة؛ ومن ثم أخذ يقرأ على دفعات.. كانت الرسالة تحمل إليه من الفواجع فوق ما كان بوسعه أن يحدس. وقد جاء فيها:

"**شامبيري**"، في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر)

"عزيزي "**موريس**": عُهِد بخطابك إليَّ، فكنتُ أنا التي فضضْتُه، وكنت أنتظره منذ أمد طويل؛ إذ كنت موقِنَة من أنّه سيجيء، أو تجيء أنت.. لقد أنبأَتْني أمنا بذلك؛ لأنه ما كان بوسْعك أن تنسانا إلى الأبد! ولقد أدركت وأنا أقرأ خطابك، أنك لا تعرف عنا شيئا منذ رحيلك، فوجدت في ذلك تعليلا لصمْتكَ المستمر. ولعلك فهمت الآن أنه لم تعد لنا أم. وأنا إذ أنبئك بهذا، أستجمع كل الأسى الذي لا أريد أن أفقده؛ لأنه يقربني منها. فابك معي يا أخي المسكين.. ابك بدمع سخين وعوِّضْ ما فاتك من بكاء. ولكن، لا تدع القنوط يجْرفُكَ، فإنها لا تريد ذلك..

لقد غادرتنا في الرابع من أبريل الماضي، أي منذ سبعة شهور. فقد أخذت قواها تتضاءل طيلة الشتاء في بُطْء ورفْق. ولم تكن تتألم، أو تشكو على الأقل! ولم تكُف عن الصلاة. وفي ذات مساء فاضت روحها وهي تُصَلّي، دون أن يبدو عليها ما يُنْذر باحتمال موتها، وكنت وأبي معها، فتطلعت إلينا، وحاولت أن تبتسم وتمتمت باسم أدركنا معا أنه اسمك.. ثم مال رأسها إلى الوراء، وانتهى كل شيء! وكانت قد حدَّثتني عنك قبل ذلك ببضعة أيام، وكأنما كانت تعلن رغباتها الأخيرة، على ما فهمت فيما بعد. وكانت تتكلم ببساطتها المعهودة، فقالت لي:

- لسوف يعود "**موريس**". إنه تعس أكثر مما هو مُذْنِب. إنه ما يزال يجهل الأمر، ولكنه لن يلبث أن يعرفه، وسيحتاج إلى كل شجاعته. فَعديني أن تُحْسني استقباله إذا ما عاد، وأن تُصْلحِي بينه وبين أبيه، وأسرته، وأن تدافعي عنه.. وأخيرا، ألا تتخلي عنه مطلقا، مهما يحدث! وما كنت بحاجة إلى أن أعد، ومع ذلك فقد وعدتُها. ولما وصل خطابك لم أتردد في فَضّه، وإني لأنوب عن أمي.. ومع أنني لا أضارعها، إلا أنني أحاول بكل قلبي.

واعلم أن أمنا لم تكن تراك مذنبا، وكذلك أنا.. وكذلك أبونا، وإني لواثقة بذلك. ولكنه قال لنا: إن الضعف نوع من الذنب، وإن ذاك الذي كفلته أسرته في سني عمره الأولى، حتى بلغ مبلغ الرجال، ليس حرا في أن يجُر عشيرته كلها إلى الهوان بأعماله. على أنه لا يتحدث الآن عنك قط. ولكني أُوقنُ أنه كثيرا ما يفكر فيك، ويُعَانِي هذا التفكير. فتذكره بدورك يا "**موريس**"- كما تتذكر أمنا في مرقدها الأخير- إذ إنه قد تغيّر.. وتغير كثيرا. لقد أدركه الهرم

في أيام قلائل، وهو الذي كان يحتفظ بشبابه في مشيته، وأساريره، وصوته. وهو يعمل دون هَوَادة، إذ يجد في العمل سلوى ونسيانا للمحن وقد وعدت بألا ألومه على ذلك. وفي الوقت ذاته، جدير بك أن تعرف ما حلّ بنا جميعا، مادمت لم تتلق أنباءنا منذ عام، فما يزال أبونا يتمتع بمكانته حتى إن أحدا من عملائه لم يسحب منه ثقته..

أما "**هوبير**" - الذي كان من حقّه أن يمكث عامين في "**فرنسا**" - فقد حصل على إذن بالعودة إلى المستعمرات، ورحل في شهر مايو الماضي قاصدا "**السودان**"، حيث يحْتلُ بحاميته مركزا أماميا في داخل البلاد، عند "**سيكاسو**"، وهو موقع مُعَرّض للأخطار، ولكن "**هوبير**" هو الذي طلب أن يُعيّن فيه. أما "**فيليسي**" فماتزال في مستشفى "**هانوي**"، وهي شديدة القلق من أجلك. وقد روت لنا أخيرا مصرع اثنتين من المبشّرات البلجيكيات، ذُبحَتا على حدود "**الصين**".. وبدلا من أنْ تجزع فإنها مُغْتبطة لاسْتشهادهما، وآسفة لأنها لا تمْلك أنْ تجود بحياتها من أجل ذاك الذي تدعوه "**الابن الضال**"، وما أظنك إلا تعرفه.. لقد ورثَتْ عن أُمنا تقواها العارمة. فليحفظها الله لنا في مقرّها بالطرف الآخر من الدنيا!

أما أسرة "**مارسيلاز**" فقد بارحتْنا، برغم توسُّلات "**جيرمين**".. إذ إن "**شارل**" باع مكتبه ليتّخذ مكتبا آخر في "**ليون**"، وكان رحيلهم هذا قاسيا علينا، وإن رأى أبونا أنه أمر معقول؛ لأنه أتاح لزوج أختنا أن يصبْح على مقْربة من أسرته التي تقيم في "**فليفرانش**" - كما تعرف - وفي ذلك نفع له! وقد قضوْا الصيف معنا في ضَيْعَة البرج، وتورّدت وجنات "**بيير**" و"**أدريين**"، وإن ظلّ الصغير "**جوليان**" - وهو أحبهم إليّ - شاحب اللون قليلا. على أن هواء "**سافوا**" أكثر ملاءمة له من هواء "**ليون**" الملبّد بالضباب؛ ولذلك، تركته "**جيرمين**" ليقضي الشتاء معنا. وهو يشيع الحياة في بيتنا الذي خيمّ عليه الحزن..

وبهذا أختم عَرْضي للأنباء. لقد كانت أمنا - في الماضي - هي مجمع أخبار الغائبين، ومصدر أنباء الآخرين لهم، وهأنتذا ترى أنني أحاول أن أحلّ محلها. أما ما بَقي فسأذكره دونما عتاب؛ إذ يبدو لي أن هذا خير أسلوب، وسأفضفض لك في البداية، ولن تلبث أن تدرك أن شقاءنا، هو شقاؤك، ولابد أنك لا تعرف ما جرى عقب رحيلك مباشرة وإلا ما لَزِمْت هذا الصمت الذي أضنانا. لقد رفع السيد "**فرازن**" دعوى ضدك - أجل، ضدك أنت - مُتّهما إياك بسوء استغلال ثقته. وهكذا تُوصَف الدعوى التي كانت موضوع لغط القوم. وهو يتهمك بأنك أخذت من خزانته مائة ألف فرنك. وقد ادّعى بالحق المدني ليجبر العدالة على تعقُّبكَ. وبما أنك غير موجود هنا فقد صدر الحكم عليك غيابيا، وسأشرح لك الأمر بنفس الكلمات التي اسْتُعْملتْ: لقد رفض المستشارون إدانتك، ولكن موظفي المكتب - لاسيما السيد "**فيليبو**" - شَهِدُوا ضدك في الجلسة، وصرّحوا بأنك كنت تعلم أن الخزانة كانت تضم المبلغ. ثم إنك كنت آخر من غادر المكتب، وكانت المفاتيح في حوْزتكَ، كما كنت تعرف الأرقام السرية لفتح الخزانة؛ ومن ثَمّ فقد قضي بإدانتك، وبسجنك عاما، مع مراعاة الظروف المخَفّفَة.

ويبدو أن هذا هو الحد الأدنى، إذ روعيتْ المؤثرات التي كنت خاضعا لها. ولكن عليك أن تفهم أنهم أدانوك.. وكان هذا في الشهر الماضي، ولم تكن أمنا على قيد الحياة. وعندما أنبأني أبي كان وجْهُه ممتقعا حتى إنني خشيت أن يصاب بضُرّ، ولكنه كظم أساه كعادته دائما.. وكنت أفضل لو أنه بكى، ولكنه ليس ممن يبكون، بل هو يكتم آلامه. وهذا أسوأ ما في الأمر..

ولقد أُلصقَ الحكم على باب بيتنا، ونُشر بالصحف. ويبدو أن القانون يقضي بذلك! إن كل الخدمات التي أداها آل "**روكفيار**" السالفون للوطن، لم تشْفَع في تفادي إلصاق هذا الحكم على بابنا.. وهناك كذلك المائة ألف فرنك التي يجب أن تسدّدهَا للسيد "**فرازن**"، ومن رأي أبي أن يبيع الضَّيْعة ليدفع المبلغ. وهو يقول إن مدة غيابك تُثْبتُ- لسوء الحظ- أنك أفدت من هذا المبلغ، وأن عملك- من وجهة الشرف- شبيه بالسرقة! أما "**شارل**" فيرى عكس ذلك؛ إذ يعتبر أن الدفع اعتراف بذنبك، وأن هذا ما يجب أن نتجنبه بأي ثمن. ولكنه لا يراعي شرف الأسرة؛ ولذلك، فإنني من رأي أبي. وعلى كل حال فقد عيّنتْ المحكمة حارسا قضائيا أجرى تقسيم ثروة أمنا، ليحصل على حصتك. ولما كنت قد بلغت رُشْدي فإنني طلبت إلى أبي أن يُسَلمَني حصتي، وهي التي أرسلها لك الآن. ولقد دهش أبي لطلبي هذا، ولا أدري ما إذا كان قد أدرك الباعث. على أنني عرضت عليه خطابك فأبى أن يقرأه، وقال ما أنقله لك بنصه:

- لا.. إنه في نظري ميت، ما لم يعد ليثبت براءته!

لذلك، أضفت مائة فرنك لنفقات عودتك. فعليك أن تعود.. وهأنتذا ترى ما سببت لنا من متاعب: فباسم أمنا التي كانت عودتك آخر رغباتها وآخر أوامرها.. وباسم والدنا الذي طعنتَ قلبه، هذا القلب البالغ النبل والحنان.. وباسم "**فيليسي**" و"**هوبير**" اللذين يتألمان من أجلك.. وباسم "**جيرمين**" وأختك الصغرى.. وباسم جميع أهلنا الذين لم يأتوا على مرّ السنين سوى كل عمل مُشرِّف، والذين يَسْتَحْلفُونك ألا تهدم في يوم، عمل جيل بأسره.. باسم هؤلاء جميعا: عد! إنني أنتظرك، وستجدني دائما بجوارك، وسأساعدك، فإنني أثق بك.. فعد، ومن الميسور إصلاح كل شيء بعد ذلك، ما دمت غير مُذْنِب.. بل من المستحيل أن تكون كذلك..

وإنني لأرى جليّا- خلال رسالتك- أنك غير مذنب وحتى إذا كان ثمة خطر يتهددك فإن عودتك واجبة؛ لأن من العدل أن تنال نصيبك من العذاب، وما أظنك من الجُبْن بالدرجة التي تجعلك تتهرب، بهذا أختتم خطابي، وكم أرجو أنْ أوفّق إلى إقناعك. أما إذا كانت "هي" أقوى سلطانا منا جميعا، وإذا لم تر العودة فورا- برغم كل تضحياتنا وآلامنا- فسأظل أنتظرك طيلة حياتي.. حياتي التي كرَّسْتها لأبينا ولك، فاعلم أنني لن أتخلّى عنك قط. أفلم أعد أمنا بذلك؟ لقد كنتَ آخر من فكرتْ أمنا فيه، فإذا أحزنك خطابي فتذكّرْ وَصيّتَها لك بأن تكون

دائما شجاعا، وتذكَّرْ قول أبينا: ما ضاع حق ما دام صاحبه لم يمت..
"وداعا يا "**موريس**".. وإني لأقبلك: أختك- "**مرجريت**".

*****

ما كان أضأل الحزن والهوان اللذين اسْتحوذا على "**موريس**"- بعد اعترافات عشيقته الناقصة- إذا قيسا بذلك السيل من العذاب الذي انصب عليه من رسالة "**مرجريت**"!

وكيف يتحمل الصدمة وهو الذي أصاخ لحظات لنداء الموت لمجرد شبهة مشينة تمسُّ الشرف؟ كانت البحيرة القابعة تحت قدميه سادرة في مناداته، تعرض عليه النسيان، والصمت، والسلام! ومع ذلك فإنه لم يرها إذ ذاك فإن نداء العشيرة أخذ يتردد في صدره، وبدلا من أن يستسلم للضعف استجمع كل قواه ليواجه النكبة التي أحاقت به. إن التفكير في الموت أمر طبيعي لدى العُشّاق إذا ما خامرتهم الشكوك في خلود هنائهم. ولكن "**موريس**" لم يفكر في سعادته، فهي شيء شخصي يتعلق به وحده- وإن كان قد فكّر في أن أسرته بأسرها كانت مهددة، ومصيرها متوقفا عليه؛ وإذ ذاك شعر بأنه لم يَعُدْ مِلْكَ نفسه، وأنه مرتبط بأهله- شاء أو لم يشأ- وأن العزلة التي ضربها حول نفسه لم تكن سوى سراب وهباء. على أنه في الوقت الذي فقد فيه خيال المحبين الأزلي الذي يُصوِّر لهم الحب عزلة تباعد بينهم وبين الناس جميعا.. في هذا الوقت بالذات، راح يَنْهَل العزاء والراحة النفسية من ذلك التضامن الذي كان يفرض نفسه عليه فرضا، كما ينهل الإنسان من معين فياض بالطاقة والنشاط!

وكان أقسى آلامه هو عجزه عن أن يَبْكي أمه بحرارة وحُرِّية وأن يبكيها وحدها. وشعر بحسد للأبناء الذين يتركون العنان لأحزانهم- أمام توابيت أمهاتهم- دون أن يتمالكوا أنفسهم. ألم تكن له يد في هذه النهاية التي لم تجل بخاطره قط؟ وتذكر أن الطبيب لم ييأس من المريضة، وإنما ذكر أن شفاءها كان يتوقف على إخلادها للراحة والهدوء، فكيف كان لهذا الكيان الواهن أن يقاوم العاصفة؟ إن العاصفة التي أثارها قد اجتاحت "**البيت**" وقوضته، وشَتَّتتْ شمل الأسرة، فرحل آل "**مارسيلاز**"، وانطلق "**هوبير**" يَنْشد قسطا من الشرف لاسم أصبح مُضْغة في الأفواه.. وها هي ذي الريح تحمل نذير الخراب ممثلا في بيع الضيعة العريقة. ولم يعد في البيت سوى أبيه المكتهل و"**مرجريت**".. ولكن، لماذا لم تتزوج "**مرجريت**"؟ أتُرى خطيبها كان من الخِسّة بحيث حاسبها على وزْر غيرها؟ إنها لم تتحدث قط عنه في خطابها.. بل إنها نسيت نفسها، وهي تعدد مصائبهم، وكان كل ما قالته هو: "حياتي التي كرستها لأبينا ولك"، ولم تشر بأية إشارة أخرى إلى تضحيتها. لم ينج من الكارثة شخص واحد، اللهم إلا المذنب الذي راح يتذوق كل ملاذ الحياة، تحت سماء صافية!

ذلك لأنه وإن لم يكن مسؤولا عن التهمة المشينة التي رماه بها السيد "**فرازن**" إلا أنه قد أَثم في حق أسرته عندما اعتقد أنه حرّ في أن يخونها.. ولقد اتهم عشيقته التي كان تهورها

من أسباب العار والخزي، والتي كان حبها سببا في دفعه إلى الحضيض. ولكن، هل كان الحب حقا هو الذي هوى به إلى الحضيض؟ ذلك الحب الذي طالما اشتهاه في شبابه الحافل بالعواطف المشبوبة والدراسة الدائبة، والذي كان يهب على قلبه كتلك النسمات الشذيَّة التي كانت آلات الموسيقى المعلقة على الأشجار- كما ورد في الأساطير- ترتقبها لتمس أوتارها؟ لقد كان يعزو إرهاف مشاعره إلى الحب، كما كانت تُعزى نغمات الأوتار إلى النسيم! ولقد كان يعزو إليه النضوب والاندفاعات التي كانت تعتري المعين الدافق في أعماقه.. وفي هذه الرحلة الخاطفة خلال حياته، تذكر عيني "**أديث**"، وفمها، وحركاتها.. أجل، لقد كانت نغمات قلبه ناجمة عن دلال هذه الحركات، وعذوبة هذا الصوت، واللهب المنبعث من تلكما العينين.. إنه قد يهجر هذه المرأة، ولكنه لن يتنكر لحبه!

ومن ناحية أخرى ما الذي يأخذه على "**أديث**"؟ هل دار بخلدها أن مأساة أليمة ستُحيق بأسرة كاملة بسبب زلّتها؟ لا، بكل تأكيد! لقد استوْلت على تلك النقود كما تسْتوْلي على القلوب، دون أن تفكر في شر، وإنما عن يقين بأنها تمارسُ حقا من حقوقها. ولو أنه أفضى إليها بما حدث لتولاها الذهول، ولما أحجمت عن العودة معه إلى "**شامبيري**" لتُعْلنَ أمام القضاة- بأعلى صوتها- براءة عشيقها. ولكنه لم يكن راغبا في هذا الكرم. بل كان من الأفضل أن تظل دائما في جهلها، وألا تعرض نفسها لأي خطر. فهل يسافر الليلة؟ لا، ليس الليلة، وإنما غدا صباحا، ودون أن ينْبئها.. وبعد أن يكمُل صداَقها غير المشروع فلا ينْقُص منه شيء! ولكن.. ماذا يكون مصيرها إذا هجرها هكذا؟ أما تزال عليه واجبات نحوها، وهي التي كان الحب جماع حياتها؟ وحاول "**موريس**" أن يتصور مستقبلها، فإذا هو يراها ممزقة القلب، مشتتة النفس، تلعنه، ثم تعود فتبكيه، تباعا.. وتشكوه إلى الغابة المقدسة، والهياكل، وإلى كل شهود غرامهما. لسوف يساعد فعلا على تعذيبها.. ولكنها- من ناحية أخرى- كانت تمتلك في نفسها موْردا قويا: مرونة، ورغبة جامحة في الحياة تُمكنُها من المقاومة والصمود والبقاء على قيد الحياة! ألم يرها تقاومه في وَجَل، وفي ثورة، عندما تكلّم عن الموت؟ وأحسّ بقلبه يتلوّى حين فكّر في أنها قد تجد عشيقا آخر، وأن اللهب المتأجّج في جوَانحها قد يدفئ يوما رجلا سواه.. فهتف لنفسه:

- لا.. كل شيء إلا هذا.. لست أريد هذا!

وكانت هذه هي المعركة الأخيرة في سبيل حبه، وهو قد اعترف في الواقع، منذ اللحظة الأولى، بهزيمته. فإن موت أمه ونداء أسرته، والحكم المشين الذي صدر ضده، لم تكن تدعُ له مجالا للاختيار؛ ومن ثمّ لم يبق له سوى أن يدبّر أمر سفره، بحيث يُخفّف من شقاء "**أديث**" ما استطاع.. إنه لم يعد يَبْغي البقاء معها، ولكنه كان يتعذب إلى درجة تكاد تدفعه إلى الأنين، وهو يتخذ قرارا سريعا بفراقها!

وكانت "**أديث**" تنتظره على درجات سُلّم الفندق بصبر نافد، فما إن رأته حتى هرعت للقائه، وغَمْغمتْ وفي لهجتها شيء من الشكوى، لا التأنيب:

– أخيرا!

وحاول أن يبتسم قائلا:

– نهار سعيد يا "**أديث**".

وراحت تتفرّس في وجهه بكل حنان واهتمام، فلاحظتْ آثار الدموع، وإذ ذاك قالت:

– لقد أصبحتُ في خوف دائم من أن تنأى عني!

– خوف من ماذا؟

– من ألا تعود!

فهتف:

– يا عزيزتي..

ولكنها قاطعته مستأنفة حديثها في لهجة جادة:

– إنني أعرف أنك ستخرج فلا تعود يوما ما.. ألا قل لي إن هذا اليوم لم يَحُن بعد!

فصاح:

– كَفَى يا "**أديث**".. لسوف أظل أحبك على الدوام!

– دائما؟ ومهما يحدث؟

– مهما يحدث!

وتناولت يده فرفعتها إلى شفتيها في تبتّل، ثم قالت في استحياء:

– قيل لي: إنك تلقيت أنباء من "**فرنسا**"، هذا الصباح.

فقال:

– أجل.

وإذ ذاك سألته:

– وهل هي طيبة؟

ووجد من الشجاعة ما مكنه من أن يومئ بالإيجاب.. أما وقد احتفظ بأساه لنفسه، فقد أحسّ بأن هذا فراق بينهما فعلا. على أنها عادت تقول:

– أما أنا فلا أرتقب أنباء أبداً.. إنك كل فؤادي وحياتي!

وبينما تقدمته إلى الشرفة، حيث وضعت مائدتهما الصغيرة في وقاء من الهواء، راح يسائل نفسه:

– تُرَى هل لديّ القوة على الرحيل؟

٤- العودة

كانت "**أديث**" في فراشها، وقد رفعت رأسها فوق حافة السرير، واعْتدلتْ لتتمكّن من مشاهدة عشيقها وهو يُسوّي هندامه، وقد وضع المصباح على الأرض؛ حتى لا يسقط النور

دي كـــاتـر " (المجمع الرباعي المقدس) إن الفتاة صغيرة لا نرغب في أن تتزوج من شخص يفوقها كثيراً في العمر، كما أننا لن نحرمها من حق الاختيار.

إن الـ"**آنسيان**" لهم العديد من النساء ولابد أن يكون لأبنائنا كذلك. "**ستانجرسون**" له ابـن و"**دريبـــر**" له ابن وكلاهما استقبلا ابنتك في منزليهما. وعليها أن تختار بين الاثنين. إنهم في أوج الشباب وأغنياء ويدينون بالإيمان الصحيح. ما رأيك في ذلك؟

أخيرا قال "**فيرييه**" :

– امنحوني فرصة. إن ابنتي صغيرة جدا. لقد بلغت سن الزواج منذ فترة قليلة جدا.

قال "**يانج**" وهو ينهض:

– أمامها شهر عليها أن تعطي جوابها في نهايته.

وبينما هو يتخطى عتبة الباب وإذا به يلتفت، وكان وجهه بلون القرمز وعيناه يتطاير منهما الشرر.

قال بنبرات رعدية:

– من الأفضل لكما الآن يا "**چان فيرييه**" أنت وهي أن تُطرحا الآن – في موضع الهياكل العظمية المبيضة– على الـ"**سييرا بلانكا**" من أنكما تقاومان وصايا وأوامر (القديسين الأربعـة) "**ليه كاتر سان**" برغباتكما الواهية ثم ابتعد عن الباب بإشارة مهددة، وسمع "**فيرييه**" صوت خطواته الثقيلة فوق حصى الممر.

كان "**فيرييه**" مازال جالسا، واضعا كوعيه على ركبتيه. يتساءل كيف سينقل هذا الكلام إلى ابنته، وإذا بيد رقيقة تربت كتفه. رفع عينيه ورآها واقفة بجواره. نظرة واحدة ألقاها على وجهها الفزع جعلته يدرك أنها سمعت ما دار بينهما من حديث بشأنها.

قالت ردا على سؤاله الصامت:

– لم يكن في إمكاني التصرف بخلاف ذلك. لقد كان صوت هذا الرجل يرن في كل أنحاء المنزل. آه يا والدي! والدي، ماذا سنفعل؟

جذبها إليه واضعا يده القوية فوق شعرها الكستنائي قائلا لها:

– لا تضطربي سنتصرف بطريقة أو بأخرى، إنك لا ترغبين في الخضوع لهذا المخلوق أليس كذلك؟

ظلال سوداء على الحائط، وصعد الشاب الدرج، ثم استدار ليسْتوعب للمرة الأخيرة المنظر الطبيعي المألوف، وكانت حواف الآبار، ومباني بعض المعابد الظاهرة تتواثب حوله وكأنها أطياف، وتبين الجبال القائمة في مواجهته، وبعض أجزاء من البحيرة. ولم يكن في وسعه أن يرى فندق "**بيلفيدير**" الذي كان المنحدر يحجبه، مع أنه كان يَنْشدُه بالذات، وراح يحْفُر المنظر على صفحة ذاكرته: هذه الأحجار التي كان يرْكلها بقدميه، والأشجار، والمعابد، وكل هذه المعالم غير الواضحة لن تلبث الشمس أن تعيد إليها بهاءها.. لسوف يراها ماثلة بأكملها أمام عينيه- مادام محتفظا بذاكرته- لما كان لها من فتنة خاصة، فكأنها المعالم الإضافية التي تحيط بصور أصلية لتميزها وتبرزها.. وكانت تلك الصورة الأصلية- زهرة الشباب الفريدة- ما تزال تبسط سحرها عليه، على البعد.. وبدلا من أن يهرب، وأن يمْضي في فرَاره دون أن ينظر إلى الوراء، مكث جامدا في ذلك المكان الذي كانت "هي" تحبه، والذي جاءته ممسكَة بالورد بين يديها، في اليوم السابق، لعيد حبهما الأول، اليوم الأخير في عمر هنائهما!

لقد كانت نائمة في غرفتها، مستسلمة للخمول العذب. وعندما تنهض للحاق به- بعد ساعة أو اثنتين، أو قبل ذلك- ستجد على منضدة الزينة خطاب النعي الذي يُعْلن إليها الفراق بكلمات حنون.. ولن تفهم الخطاب لأول وهلة، ولكن الأوراق التي يضمّها المظروف ستجلو لها الأمر. فهناك بيان حساب الفندق، مؤشرا عليه بأنه دفع.. وبعض أوراق النقد، وإيصالات بالمبلغ الذي أودع باسمه في المصرف الدولي بـ"**ميلان**"، مضافا إليه الإذن المصْرفي الذي أرسلته "**مرجريت روكفيار**"، وقد حوله "**موريس**" إلى "**أديث**". إذ ذاك ستدرك الانقلاب الذي انْقضَّ عليها- فإن الأسرة التي تغلبت هي عليها من قبل قد استردّت منها الآن حبيبها- وستطلق صيحة ألم مدويّة، ولسوف يسمعها تتردد في أعماقه، مهما يكن بعيدا عنها!

وأخذ نور القمر يذوب في ضياء الصباح. ومرت ساعة و"**موريس**" مستند إلى أحد الأعمدة، يكاد يعجز عن أن يحمل نفسه على الرحيل، وهو يقول لنفسه: "من أين تُرَاني استمددتُ الشجاعة على أن أحطم قلبها وقلبي؟ إنها ما تزال جد قريبة مني، ولو أنني عدت إليها فلن تعرف من الأمر شيئا، ولسوف تستيقظ في لين ودعة. ولكن، لا.. لن أراها بعد اليوم أبداً، فهناك من الأواصر ما لا يستطيع الحب فصمها. إنني أدرك أن السعادة ليست حقا.. وإنني لأعذب "**أديث**" وأحبها. أما الأذى الذي ألحقته بي فلم يكن عن طوع خاطرها! إنني لا أذكر سوى أنني أحسُّ الحياة في قربها، ومع ذلك فإنني لم أعد أَقْوَى على العيش معها! "**أديث**"، أفتذكرين الماضي؟ لقد أعطيتني زهورا في الليلة الأولى، ثم منحْتني شفتيك الشبيهتيْن بالزهور في غير تردّد. وعندما قلت لي: "سأكون لك، ولك وحدك، عندما تشاء" أحسستُ مقدّما بلمسات يديك الناعمة تتغلغل في جَسَدي. آه! إن الوجد الملتهب الذي يشوب لمساتك المدللة، والألم الذي سينتابك بسبب خطئي أنا، وضعفك.. كلها تجعلني أرتعد من المستقبل. فلا تظني أن حبي قد نقص، وأنني سأنساك يوما يا "**أديث**".. إن هذا لن

يخطر ببالي، بل إنني قد أزداد حبا لك! تُرَى أية ذكرى ستحفظينها لي؟ لقد عاش حبنا بين خريفين، وإنك لتفضلين هذا الفصل الذي يتّقد فيه إغراء الطبيعة.. لقد وجدت لونه الذهبي في عينيك، ووقدته المحمومة في أحضانك، حيث اكتشفت اللذة العارمة.. أما الآن، فإني أرى الخريف ممثلا في زهور الأقحوان في مقبرة "**أورتا**"، وهي تخفي الموت تحتها.. أجل، الموت، فهلا أدركت؟ إنني لم أودعك، فقد انتهى كل شيء. وهكذا الموت بالنسبة إلينا. لسوف تبكين، وستتكلمين، وستمشين، وستكونين في نظر الغير مخلوقا حيّا فياضاً بالدلال والشباب.. أما بالنسبة لي- أنا الذي لن أعرف عنك شيئا- فستكونين ميّتة؛ لأنك لن تلعنيني إذ ذاك، أنا الذي أحبك، والذي اضطررت إلى أن أذبح هوانا ذبحا!

*****

وانتزعه من أساه- الذي كانت إرادته تتبدّد فيه رويدا- صفير قطار.. **فهل تُرَاه غفل عن** الوقت؟ لا، لابد أن هذا هو القطار السريع القادم من "**نوفار**"، والذي يسبق القطار الذاهب إلى "**دومودوسولا**" بدقائق. وقد جاء هذا التنبيه في الوقت المناسب ليرده إلى عزمه، فغادر المعبد، واجتاز الغابة راكضا، حتى بلغ المحطة وقد بدأ الصباح يُشْرِق على القمم، وأخذ ضوء القمر يتلاشى في الفضاء. وابتاع "**موريس**" تذكرة إلى "**كوركونيو**" - وهي محطة جد قريبة من "**أورتا**"، ولكنها في اتجاه مضاد لمقصده- خشية أن تهتدي "**أديث**" إلى اتجاهه إذا حاولت اللحاق به!

وكان الخط الحديدي يمتدّ عبر البحيرة حتى مدينة "**أومينا**"، فجلس "**موريس**" في عكس اتجاه القطار- في العربة- واتّكأ على النافذة ليلتقط ببصره صور هذه الأماكن الحبيبة، وسرت في مياه البحيرة رعْشة خفيفة مع مقْدم الصباح، ولاحت أشجار شبه الجزيرة فارعة، وارفة.. هناك ذاق طعم السعادة.. وغادر القطار مدينة "**أومينا**"، فحاول عبثا أن يمُدّ بصره ليلقي نظرة أخيرة على "**أورتا نوفاريس**"، وأن يستوعب بعينيه وفؤاده هذا المنظر الطبيعي الذي كان يولي منه. وكانت الثواني التي تزيد من ابتعاده أشبه بأحجار يلقي بها إلى هاوية، فيسمع ارتطامها حجرا إثر حجر.. وإن هي إلا ساعة حتى بلغ "**دومودوسولا**"، وهي مدينة إيطالية صغيرة، تَقْبَع على جبال الألب الكبرى، وتشرف على نهر "**توسا**" السريع الانحدار، الذي يصب في بحيرة "**ماجير**". ومن هناك كانت العربات ذات الجياد تنطلق لتربط بين "**إيطاليا**" و"**سويسرا**"، مجتازة المنطقة العليا من ممر "**سمبلون**". وكانت هذه العربات تقطع المسافة التي تفصل وادي "**أوسولا**" عن حوض "**الرون**" - وقدرها أربعة وستون كيلو مترا- في اثنتي عشرة ساعة، بفضل جيادها القوية التي كانت تُستبدَل بانتظام على طول الطريق.

ولم يتكبد "**موريس**" في السفر- إلى "**دومودوسولا**" - سوى فرنكات قلائل. وكان الشاب قد أنفق مُعْظَمَ نقوده؛ كي يُرْضي ضميره تماما نحو "**أديث**"؛ ومن ثم استعان بدليل

السكك الحديدية، فتبيّن أنّ السّفر عن طريق "**تورين**" أبهظ نفقة. وبقليل من الحساب وجد أنه إذا دفع نفقات سفره في الدرجة الثالثة من "**أورتا**" إلى "**دومودوسولا**"، ومن "**برييج**" إلى "**شامبيري**"، فلن يتبقى له سوى ثمن ثلاث أو أربع وجبات متواضعة.. وهكذا تكون عودته "**عودة الابن الضال**" حقا! وتحمّل- في غير تذمّر- هذه الفاقة التي حشرته مع صغار العمال؛ إذ اضطر لأن يُشاركهم مقاعدهم في القطار، وكان اهتمامه بهذه الصّغائر يباعد بينه وبين اللوعة التي كان خليقا بأن يعانيها لو لم يجد ما يشغله.. فقد كان عليه أن يعرف الطرق التي يسْلُكها ليقتصد في نفقات السفر، وكان عليه أن يتجنب الفنادق الغالية في "**برييج**".. فوجد أن ثمة بيتين للضيافة فوق الجبل هما مأوى "**سمبلون**" ومأوى "**سان برنار**" اللذان كانا يسْتضيفان الفقراء من عابري الجبال دون أجر، بل إن السّياح أنفسهم لم يكونوا يتحرّجون عن الإفادة منهما. وكان جاره في الرحلة من أبناء مدينة "**بيمونت**"، فزوده بما كان ينقصه من معلومات، وقال:

- إن الملجأ مفتوح دائما.. ليلا ونهارا، ونهارا وليلا! وفوق ذلك تستطيع الحصول في الليل على حجْرة في الطابق الأول دون أن تستأذن أحدا!

وهكذا هانتْ عليه مصاعب الرحلة.. فما كان عليه سوى أن يجتاز ممر "**سمبلون**" على قدميه، وينام في المأوى؛ لذلك، بارح القطار في "**دومودوسولا**"، ومرّ في أنفة بجوار العربة التي تجرها الجياد، والتي كانت واقفة أمام المحطة، حتى إذا امتلأت بالركاب لم تتأخر في اللحاق به، تجرها جيادها الخمسة بقوتها المألوفة، وكان "**موريس**" إذ ذاك في بداية الطريق الصاعدة إلى القمة، فَحَمَلق الحوذيّ إلى ذلك الشاب الأنيق الذي حمل حقيبته في يده، وانطلق دون أن يخشى على حذاءيه من أن يتلفهما السير! ولوّح الحوذيّ بسوْطه في الهواء ليسترعيَ نظر "**موريس**"، ثم أشار بحركة رشيقة- كتلك التي تقدّم بها باقة ورد إلى أحد السادة- وعرض عليه مكانا في العربة، فأجابه "**موريس**":

- شكرا.. إنني ماض على قدميّ.

فصاح الحوذيّ:

- هذا مسْتحيل.. هذا مسْتحيل على ساقي "السيد"! ثم إنك ستتأخر كثيرا، وأعتقد أنّ "السيدة" في الانتظار!

ولكن الشاب قال:

- ليس هناك من ينتظرني.

وإذ ذاك قال الحوذيّ:

- آه! هذا من سوء الطالع، فما أحلى أنْ يجد المرء عند وصوله نارا مشتعلة، وحساء ساخنا، وامرأة!

ثم جمع أعنة الجياد، واستحثها، فإن هي إلا لحظات حتى غابت العربة عن بصر "**موريس**"،

وأصبح وحيدا، فاستأنف السير، صاعدا في بطء، وقبل أن يبلغ دروب الألب الضيقة، التفت يملي بصره بالابتسامات الأخيرة المنبعثة من الجمال الإيطالي الرائع، الذي تجلّى في الوادي المتعرّج- حيْث يجْري نهر "**توسا**" - وفي المنحدرات المكتظة بالأشجار، بل وعلى الحواف الجبلية الوعرة التي كانت تكسوها الأدغال الذهبية اللون.. كان منظر هذه البطاح- تحت الشمس- حبيبا إلى النفوس، برغْم مشاق الجبال الوعرة! وكانت الفلاحات الساعيات إلى الكنيسة- إذ كان اليوم من أيام الآحاد- يُحطْن أعناقهن بمناديل ملونة، تدلّت أطرافها على ظهورهن، كما ارتدين ثيابا مزركشة. وكن يبادرن المارة بتحية الصباح في بشر مسّ شَغَاف قلب الشاب، فانتابه شعور بانه قد قضى على نفسه بالنفي طواعية.. ألم تكن "**أديث**" وطنه؟ "**أديث**"! لابد أنها استيقظت الآن وعرفت كل شيء!

وإذ تذكر ذلك أسرع في مشيته لينسى في الإجهاد لوعته! وقسّم الكيلو مترات الأربعة والستين إلى ثلاث مراحل:

- الأولى طولها ١٨ كيلو مترا- وتنتهي عند "**إيسيل**"- والثانية: طولها ٢٢ كيلو مترا- وتنتهي عند القمة- والثالثة: طولها ٢٤ كيلو مترا وتنتهي عند "**بريج**"، وخطر له أن يتناول الغداء في "**إيسيل**"، ثم يسعى إلى القمة- التي ترتفع عن سطح الأرض بألفي متر- في موعد العشاء، ويبيت هناك في المأوى، على أن ينحدر إلى "**بريج**" مبكرا، في صبيحة اليوم التالي؛ ليتمكن من اللحاق بقطار "**لوزان**" و"**جنيف**"، الذي يتصل بإقليم الـ"**سافوا**" عند الحدود الفرنسية. وبهذا يصل إلى "**شامبيري**" في الساعة السادسة من مساء يوم الاثنين.

أما "**إيسيل**" التي تقوم على مشارف سهل صغير مزْدَهر. فهي آخر قرية تسبق "**سويسرا**"- وفيها يحسن الإنسان فعلا بان عليه أن يودع "**إيطاليا**" محسورا- وهي مشيدة بشكل مستطيل على حافة طريق "**نابليون**"، يحفّ بها جداران جبليان يتراوح ارتفاعهما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف قدم. ويكفي أن تتطلع إلى الخلف كي تبصر المروج الخضراء، ومجموعات من الشجر كالباقات، وما يشْبهُ فجوة من نور خلال الجبال. ولم يكن ثمة ما يبعث الحياة في القرية الصغيرة سوى جلجلة العربة التي كانت تُبدّل جيادها في "**إيسيل**"، وتوفر عملا لرجال الجمارك الذين كانوا بادي اليقظة والمهابة، كأنهم جنود، مما دعا إلى تسميتهم بحرّاس الأموال. إلى أن كان شهر آب (أغسطس) من سنة ١٨٩٨، فبُدئ في مدّ الخط الحديدي عبر جبال الألب، فازداد عدد سكان القرية إلى أربعة أمثالهم بسحر ساحر، وأُقيمتْ مساكن للعمال، وفيلات صغيرة ذات حدائق للمهندسين ورجال الأعمال. وقد اجتمع كل هؤلاء في شوارع البلدة في يوم الأحد. فلما بلغها "**موريس**" كانت الأجراس تدق مُؤْذنة بالخروج من الكنائس. فاخترق موكب النساء العائدات إلى بيوتهن والمسابح في أيديهن، بينما انصرف الرجال إلى لعب الكرة. وتصاعدتْ من المشارب- مع أبخرة المطابخ- أنغام "الجيتار" و"**الهارمونيكا**".

وتناول "**موريس**" غداءه في مطعم حقير، مقابل ثمن بخس. ومع أناس صاخبين،

صائحين. وبدلا من أنْ يسْتغلّ فرصة النهار للتعجيل بالرحيل- إذ كان الليل يَحُل مبكرا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) - أخذ يتلكأ عن غير قصد، وكأنه كان يؤثر البقاء وسط هذا الصخب المزري على الوحدة.. أو كأنه كان عاجزا عن المضي في اجتياز الحدود؛ لأنه رأى في هذا الاجتياز صورة مادية لانفصام عُرَى حبه.. الحب الذي كان متعلقا به إلى درجة الجنون. وفي ذلك المطعم الذي تكاثف فيه الدخان- والذي كان الضجيج المنبعث منه يلهيه عن آلامه- خُيِّل إليه أنه ما يزال على صلة بـ"**أديث**".. وإن بعدت!

وقبيل شلال "**كوندو**" الجبلي، حيث تتدفّق المياه من مساقطها، وجد الحد الفاصل بين الدولتين، فلما اجتازه أحسّ بالظلام يطبق على فؤاده، ولما بلغ المنطقة الضّيقة التي يجب أن يجتازها بين صخرتين. ورفع رأسه فرأى فلول الشفق الوردي تتلاشى. وباغته الليل مبكرا- أكثر مما توقع- فلم يتمكن من سلوك الطريق المختصرة التي تجنّبه طريق "**الجابي**" الطويلة، واضطرّ إلى سلوك هذه، فبلغ قرية "**سمبلون**" مكدودا، في ساعة متأخّرة.. وهناك تناول عشاءه واسْتراح. حتى إذا اسْتأنف السّرى كان الظلام والصمْت ينتظرانه عند نهاية القرية، فاستقبلاه كما لو كانا رفيقيه الطبيعيين في رحلته الحزينة، وأحسّ بأنه كان يؤدِّي واجبا لا مناص منه برغم كل الظروف.. أفلم يقتل بيديه هناءه؟ أو ليس على القتلة أن يكفروا عن ذنوبهم؟

وكان مَوْعدُ بزوغ القمر قد حان.. على أنه لم يظهر إلا حين اقترب "**موريس**" من القمة، حوالي الساعة الحادية عشرة. وعلى ضوئه الزاهي ألفى "**موريس**" نفسه وحيدا في مكان مُقْفر مُوحش، تحيط به الثلوج وكأنها تخلع على الأشياء كلها لباسا موحدا. ولم يكن يسمع حتى وقع قدميه، بينما كان ظله يتْبعه كرفيق مزعج يستطيل، ثم يتضاءل.. ويختفي، ليعود إلى الظهور. وقضى الشاب وقتا طويلا وهو يتطلّع بعينيه نحو الأفق، يْستكشفُ المأوى، وقد تقطعتْ أنفاسه، وتخاذلت ساقاه. أيكون قد مرّ به دون أن يراه؟ لقد بلغ به الإعياء حدا لم يَعُد معه يُحسُّ تقدير المسافات! ومع ذلك، فما جدوى هذه الجهود التي كان يبذلها؟ ما عليه إلا أنْ يتْرك نفسه ليهوى على جانب الطريق.. فعلى الثلوج يحلو النوم.. أو الموت! وبهذا وضع حدا للتفكير، وللمسير. وصاح بأعلى صوته:

- "**أديث**"! وما إن رجع الصّدى صوته حتى كفّ عن السّرى منْتفضا، وقد خُيِّل إليه أن أحدا كان يناديه.. ألم تكن هي التي نادته مرة أخرى.. بل مرة أخيرة؟ إنه لم يعد يُحسّ لقدميه وجودا، فليدع نفسه تنساب إلى "**أديث**" في هدوء، كما تنساب أشعة القمر في الثلوج. وأصابه الإعياء المفرِط والبرد وخفة كثافة الهواء- واليأس أيضا- بهذيان. والذي يتوقف عن السير في مثل تلك الحال من الإعياء يكون هلاكه مؤكدا، ولا يُقدر له أن يقدم قدما على أخرى؛ إذ يغدو كآلة تحطمت تروسها..

وهتف مرة أخرى:

- "**أديــــث**"! ثم ابتسم. ولم يكن ثمة ألم ينتابه.. وكان من أسهل الأمور أن يجلس وينتظر، وكانت في مواجهته- إلى اليمين- جبال "**مونت ليوني**" الثلجية ترسل وميضا مُرْتَعشا، وكان ثمة حركة تَسْري في كيانها.. وخُيِّل إليه أن الأفق كله كان يتحرك متقهقرا، متطلعا إلى "**إيطاليا**".. وبعث الاسترخاء في نفسه شعورا مستعذبا، ولكن غريزة البقاء، أو لعله حب الاستطلاع، أبقى عينيه مفتوحتين برغم هجوم النعاس عليهما. إلا أنه لم يحس برغبة في الإتيان بأية حركة. وخُيِّل إليه- في سكون الجبال- أن ضياء القمر والثلوج تتسع حتى لتملأ الفراغ كله، وترقى إلى النجوم، وفي غَمْرة هذا الاستغراق اضطر إلى قطع تأملاته؛ إذ هوتْ الحقيبة من يده دون وعي، فأفاق من غشيته على صوْت سقوطها. وفَطِن- حين أحسّ بعناء تحريك أعضائه إلى الخطر المحدق به. وقال لنفسه فجأة:

- هل أموت هنا؟ وحيدا، في هذه القفار؟

إنه يموت، يا "**أديث**، وهو الذي يظن أنه راجع إليك!

وغابتْ "**أديث**" عن خياله، كطيف يغيب في أعماق البحر، ليحلّ محلها منظر البلاد التي نشأ فيها، والهضبة التي تقوم عليها المزرعة، وأسرته.. وهتف لنفسه:

- إنهم ينتظرونني! أفكانت ذكرى هذه السنين الأولى من حياته- التي حلتْ محل رؤى فترة الغواية والشهوات- تميمة سحرية ضد الموت؟ لقد خفّ شبابه إلى نجدته، فاستردّ شيئا من القوة والنشاط، وأخذ يرفع قدميه- واحدة بعد أخرى- وكأنه ينتزعهما من وحْل سميك غاصتا فيه، وسار- أو بالأحرى جرّ نفسه جرا- ليقطع مسافة لم تزد على بضعة أمتار؛ وإذ ذاك شعر بالخوف، فَصمَد إزاء الخطر الذي أحسّ بوجوده إلى جواره، يصحبه في كل خطوة، في هذه العُزْلَة، كعدو يتربّص مترقّبا لحظات ضعْفه وخَوره. وكان يعرف أن ثمة أكواخا من الخشب أقيمتْ على جانب الطريق- بالقرْب من القمّة- ليلوذ بها السائحون إذا فاجأتهم العاصفة أو الريح الزّمهرير.. فبات كلّ مطمعه أن يعثر على أحد هذه الأكواخ. وفي تلك اللحظة لمح في أسفل "**مونت ليوني**" ضوءا خافتا، لا يكاد يَبين في الليلة المشرقة.. ذاك هو الملجأ الصغير، الملتصق بالجبل، والذي تُرك بابه مفتوحا، بل ووُضع عنده مصباح يرشد إليه.. إذن فقد كتبت له النجاة! ولم يحوّل بصره عن ذلك البريق المشجع وما لبثت معالمُ المبنى أنْ ظهرت بوضوح فإذا هو مبنى كبير، مرْتفع، من الأحجار الضّخمة..

وصعد أخيرا درجات السلم، ووَلَجَ المكان. وأعلن وصوله نباح انبعث من حظيرة نائية للكلاب. ولم يصادف أحدا في الرَّدهة التي كانت أشعة القمر تنفذ إليها.. فهل سيترك وحيدا مع قنوطه وهمومه، وقد بلغ مَرْساة الأمان؟ وهمّ بأن يسْتلقي على الأرض لولا أن تذكّر ما قاله له الرجل الذي كان يرافقه في القطار:

- فالمرء- إذا ما جن الليل- يستطيع أن يأوي إلى حجرة في الطابق الأول، دون أن يستأذن أحدا!

وصعد إلى الطابق الأول، فلجأ إلى أول باب، ولكنه وجده موصَدا.. وعالج الباب الثاني ففتح، وإذا به في حجرة بسيطة، ولكنها مريحة، ضمّت سريرا ذا ملاءات نظيفة وغطاء كاف، ومنضدة للزينة، وأخرى ذات أدراج، ومقعدين أو ثلاثة، وبساطا.. وابتسم مُغْتبطا بهذا الأثاث. وبدت المبالغة في الكياسة والكرم، إذ كانت هناك زجاجة شراب وكوب به سكر، وُضعَا بشكل يلفت النظر. وهدّأ الشراب من روعه.. وما أسرع نسيان الخطر لدى شاب في الخامسة والعشرين من عمره! وقال لنفسه في غبْطة:

- كأنني في بيتي.. ومع ذلك، فكأنني لص!

وتأهب ليستمرئ الحياة من جديد. ولكن الفكرة جعلته يَجْفُل.. كأنه "لص" حقا! ألم يحكم بإدانته في قضية سرقة؟ ونغّصتْ عليه الذكرى العابرة سروره، فسارع إلى النوم. وبعث دفء الغطاء السميك في جسده حرارة عذبة، وكان التعب قد هدّه، فواتاه النُّعاس في الحال، دون أن يخطر له أن تلك أول ليلة يقضيها بعيدا عن "**أديث**"، وبعيدا عن "**إيطاليا** منذ هجر منزل الأسرة!

*****

واستيقظ في اليوم التالي بعد الموعد المناسب للسفر إلى "**بريبج**" بكثير. وما إن علم رُهْبان بيت الضيافة بتطورات رحلته حتى استبقوه في رعايتهم يوما آخر. على أنه رفض أن يستقلّ عربة البريد في سفره، وإن أبتْ عليه عزة نفسه أن يبوح بالباعث.. وقضى اليوم في راحة، وشبه نسيان. وتَولاهُ في هذا المكان المنعزل، القائم على ارتفاع ألفي متر مرح يشبه مرح الأطفال، تخللته فترات مفاجئة وقليلة من الأسى والوجوم. وراح يأكل كالوحش المسعور، كما تمشّى في رحاب بيت الضيافة؛ ليخفف من التيبُّس الذي أصاب قدميه، وأخذ يُداعب كلاب الصيد- ذات الشعور الطويلة- وهي في حظائرها، ويتأمل تأثير الشمس على الثلوج، وتباين أشكال قطع الجليد الناصعة الدقيقة، وتولته الرغبة مرارا في أن يبْقى في الجبل أمدا أطول، ثم أوى إلى فراشه مبكرا. وما كان في وُسْع من يراه أن يتصوّر أنه قد فارق- منذ أمد وجيز- أعز حبيبة، وأنه كان في طريقه إلى "**فرنسا**" ليُسَلِّم نفسه إلى السجن.. ففي غمرة الأحزان المتكاثفة، تسوق إلينا المصادفات واحات غير مُرْتَقبة، تُعالِج ما في فطرتنا من ضعف يعرقل صمودها للألم، وتذكي غريزة حب البقاء الجامحة التي تعضدنا على الرغم منا!

وغادر "**موريس**" بيت الضيافة في الساعة الرابعة من صباح يوم الثلاثاء، بعد أن تناول قليلا من الخبز والجبن، كان الأب الراهب المكلف برعاية الأغْراب قد أصرّ على أن يحملهما معه إلى الغرفة في الليلة السالفة، ليكونا له فطورا في الصباح. على أن "**موريس**" رأى من الحكمة أن يحمل معه نصف هذا الزاد من قبيل الحيطة؛ إذ لم يكن مطمئنا إلى أن ما تبقّى في جيبه يكفل له زادا بعد أن يدفع نفقات السفر، ولم يكن أحد ممن في المكان قد استيقظ بعد، فرحل

متسللا كما حضر، وكان الباب مفتوحا على مصْراعيه كما وجده ليلة وصوله. واستقبله الظلام- بدلا من القمر الذي كان يرجو أن يسير على هُدَى نوره- وأحسّ بالجليد متراكما على السلم وهو يهبط الدرج.. وكان مضطرا إلى أن يسير مُسْرعا؛ إذ كان هبوط الجبل أقل سهولة من صعوده، وعندما بلغ الطريق التفت ليتأمل المبنى الأسود في الظلام.. وخالجه الأسف وهو يُودِّعُه!

وسار إلى المستقبل المجهول في غير وجَل، وقد استردّ ثقته بنفسه.. فقد سكب السّلام- المخيم على الجبل وعلى الرهبان- سكينة وطمأنينة في قلبه، دون أن يفطن. وانطلق بخُطًى ثابتة ليستعيد مكانه في "بيت الأسرة" الذي أضلتْه عنه نزوة عارضة.. كانت المصادفة التي يَدين لها بنجاته قد ردّت إليه- في الوقت ذاته- صوابه.. وكان في عودته إلى الحياة العادية ينْهجُ نهجا خياليا جريئا- يتحاشاه سواه عادة- ويَستَمْرئُ تضحيته في حماسة وشغف.. وكان الجليد قد تساقط ساعات طويلة خلال الليل؛ إذ إن الطريق لم تكن ممهدة بصورة واضحة، فواصل السير وهو يخشى أن يضل، واجتاز نفقين أو ثلاثة نُحتتْ في الصخر، وكان الظلام فيها كثيفا، حالكا، حتى إنه ظن- عندما بلغ نهاية أحدها- أنه قد فقَد بصره، فراح يتلمّس طريقه بطرف عصاه التي أمسك بها في يده اليمنى، بينما بسط ذراعه اليسرى إلى الأمام، برغم أنها كانت تحمل الحقيبة، ومضى يغوص في مسْتنقعات الماء المتساقط من الصخر. وأدرك أنه بلغ نهاية النفق عندما أحس بالهواء البارد قبل أن يرى النور بفترة طويلة. على أن صعاب الطريق شَحَذَتْ همّته ذلك لأن المحن شيء لا غنى عنه للشباب، وهُمْ إذا سعوْا إلى الحب فإنما يسْعون عن رغبة متأجّجة في الحياة، أكثر مما يسعون عن رغبة في المتعة.. وما أشبه ذاك الذي يهرب من الهناء بمتسول لا يأسى على فقدان كل النعم!

وهكذا راح "**موريس**" يكافح البرد والثلج والليل والخوف بجَلد قوي، فإذا الصّراع يذكي في كيانه حرارة الحياة، وأقبل نور النهار رويدا، ولكن الشاب لم يفد منه كثيرا؛ إذ كان الضّباب الأبيض قد أحاط به من كل جانب، كما يحيط البحر بالجزيرة الصّغيرة! وبدتْ له الطريق البديعة، التي تكشف للبصر عن جبال الألب البيرينيّة، وجبال "**اليتشي**" الجليديّة، والمرتفعات الرائعة المحيطة بوادي "**الرون**".. بدتْ له هذه الطريق وكأنها شُقّتْ وسط قطن متراكم، وكان يرى أحيانا شجرة من أشجار الصنوبر تهْوي من مكانها تحت ثقل الصقيع، وتَستَلقي على بعد عشر خطوات منه.. وفي غَمْرَة هذه المناظر الرتيبة، فطن إلى أنه قد وصل إلى "**برييج**"، خاتمة هذه المرحلة من كفاحه!

وقضى في القطار يوما بدا طويلا مُرْهقا، برغم اقترابه الحثيث من مسقط رأسه، وفي الساعة السادسة مساء، هبط في "**فيفييه**" وهي أقرب محطة إلى "**شامبيري**"، فإن الخوف من أن تُكْشَف شخصيته فيُقْبَض عليه وهو يغادر القطار في البلدة، أوحى إليه بهذا القرار؛ ومن ثمّ سار على قدميه في طريق "**إكس**"، فلمّا مرّ بأسفل هضبة "**كالفير دي ليمنك**"، توقّف،

وهتف مُتَأوّها:

– "**أديث**"!

وفَطن إلى مدى ما باعدت هذه الأيام الثلاثة بينه وبين "**أديث**".. ولما كان يحبها فقد أخذ يلوم نفسه على قسوته. ثم اقترب من الحاجز الذي كان مُقاما على حافة الهوّة الجاثمة تحت الهضبة.. وكانت أنوار "**شامبيري**" تتألّق، فاجتذبته. ولكنه قال لنفسه:

– المقبرة، ثم البيت!

ومن ثمّ آثر أمه بالزيارة الأولى، ولكنه وجد دار الموتى مغلقة، فلم يستطع أن يلجَها. ثم سَلَكَ بعض الطّرق الملْتَوية، حتى بلغ البيت. وكانت ثمة ساعة تدقّ الثامنة.. وكان "**موريس**" مقرورا، جائعا، فإلى أين يُولّي وجهه إذا لم يُوَلّه نحو هذا المكان؟

وضغط زر الجرس وقلبه يدقُّ بعنف، ففتحت له الباب خادم جديدة. وبدلا من أن يدخل في غير كلفة سألها بصوت متَحشْرِج:

– الآنسة "**روكفيار**"!

فقادته إلى البهو، وتركته. وفكر في الهرب– تحت وَطْأة الذل والخزي – إلى أي مكان آخر في الدنيا. أية قوة غريبة تلك التي راحتْ تَدْفعه دَفْعا حتى انتهت به إلى بيت أبيه.. وما لبثت "**مرجريت**" أن أقبلت، فارتمت عليه هاتفة:

– أنت.. أهذا أنت يا "**موريس**"؟

وبينما كان يُغَالبُ البكاء، قالت له:

– إنني أنتظرك منذ أمس!

وقادته إلى غرفة المائدة، فاسْتَسْلَمَ لرعَايتها وهو مُحَطّم، خائر القوى ولم يكن غطاء المائدة قد رُفعَ بعد العشاء..

وسألها في شيْء من الوجَل:

– وأبي؟

فأجابت:

– لقد احْتَبسَ نفْسَهُ في مكتبه بعد الْعشاء، وانْكَبّ على العمل بينما انْهمكتُ أنا في تغيير ثياب "**جوليان**" الصغير.. سأُخْطرُ أبانا بمَقْدَمك!

فهتف:

– لا يا "**مرجريت**".. لا تَذْهَبي

وسألته في دهشة:

– لماذا؟

ولكنه لم يُجبْ بأكثر من:

– لست أدري..

تمتم بعد صمْت ثقيل:

– أترينه قد تغيّر كثيرا؟

فأجابته:

– أجل.

وكان جائعا ولكنه لم يقْوَ على تَنَاوُل شيْء من الصّحاف التي أحضرتها "**مرجريت**" من المطبخ بنفسها. وأدركت ما به، حين رأته مُسْتَغْرقا، فتسللت ثم ركضتْ إلى حجرة مكتب أبيها، وصاحت به:

– أبي.. إنه هنا!

وكان السيد "**روكفيار**" منْكبا على أحد الملفات، فنهض فجأة بحركة عنيفة. إلا أنه تمالك نفسه مسرعا وقال:

– لقد تأخّر كثيرا.

وهتفتْ في ضراعة:

– ألا تقابله؟ إنه جد تعس!

ففكّر "**روكفيار**"، ثم قال في عناء:

– سأقابله غدا، في السجن، لأدبرّ الدفاع عنه.. وليس الليلة!

وإذ أجْهشتْ "**مرجريت**" بالبكاء، ضمّها إلى صدره قائلا:

– أما أنت، فاعْتني به، وإذا كان مكدودا فاسْهري على راحته. فلن يزجّ به في السجن قبل غد!

– ألا تصْفح عنه يا أبي.. من أجل خاطر أُمنا!

– آمل يا "**مرجريت**" أن يثْبت يوما أنه أهل لصفْحي. أما الآن، فلستُ أقوى على أن أنسى بهذه السرعة ما ألحقه بنا من ضرر برحيله.. إنني أرغب في أن يُدْرك مدى هذا الضرر ويقدِّره، فإن هذا ضروري لنا– بالنسبة لماضينا– وله، بالنسبة لمستقبله.. لا تبكي، فإنني لم أكف عن حبه. بل، إن عودته تثلج صدري بل...

ولقد غادر "**روكفيار**" غرفته فيما بعد– بعد ذلك بوقت طويل– فتسلل إلى حجرة ابنه، على أطراف أصابع قدميه. وحجب ضوء المصباح الساهر بيده، ثم أنصت برهة إلى الأنفاس الخفيفة المنتظمة التي كانت تتصاعد من ابنه النائم؛ وإذ ذاك أضاءت ابتسامة رقيقة ذلك الوجه الذي عصَف به الأسى.. وهتف الأب لنفسه: "ها هو ذا ها.. هذه هي النقطة الجوهرية. ولسوف أُنْقذُه، وأُنْقذُ معه السلالة كلها!

القسم الثالث

١- رفيق الشدائد

عندما دخلت "**مرجريت**" إلى غرفة مكتب أبيها- كعادتها كل يوم- لتوقد المصباح، وتُسْدل الستائر على النوافذ، ولتُخفِّفَ عنه همومه- قبل كل شيء- وجدته يتتبع هبوط الظلام السريع. وقال لها حين رآها:

– أهذه أنت؟ إن الضوء لم يكن كافيا ليسْمح بالعمل!

واعْتذر عن شرود ذهنه كما لو كان قد ارتكب خطأ. على أن "**مرجريت**" كانت تعرف سبب انشغال باله الذي لم يشأ أن يُفْصحَ عنه. وتساءلت:

– إن هؤلاء السادة لم يحضروا بعد؟

– إنني أنتظرهم من لحظة لأخرى.. لابد أنهم رأوا "**موريس**" في السجن بعد ظهر اليوم.

– ومن الذي سيترافع؟ ألعله الأستاذ "**هاميل**"؟

– إن الأستاذ "**هاميل**" نقيبنا. ولما كان "**موريس**" مقيّدا في النقابة فقد طلبت من النقيب أن يتولّى الدفاع عنه.. وهو تقليد مَرْعيٌّ. ومع أن الأستاذ "**هاميل**" يرعى مهنتنا- بما يشرّفُها- منذ نصف قرن، إلا أنه يرى أنه قد تقدّم في السن، وأنه تخصّصَ في مسائل القانون المدني إلى حدّ لا يمكنه من تولي الدفاع في هذه القضية، وهو يريدنا أن نكل هذه المهمة إلى الأستاذ "**باستار**"، وهو أشهر من يترافع أمام محاكم الجنايات، كما أن له – في الواقع – تأثيرا كبيرا على المحلّفين.

وحين سمعتْ الفتاة اسم "**باستار**" بَدَا عليها شيْء من الامتعاض، وقالت:

– لقد سمعته وهو يترافع يا أبت. إنك تجيد الكلام خيرا منه!

فتأثر المحامي الشيخ لهذه الإجابة وقال:

– إنني لا أجيد الكلام يا صغيرتي.. إنني أقول ما أعرفه فقط!

– لماذا لا تتولى أنت الدفاع عنه؟

– ماذا؟ هذا مستحيل! ألا تُدْركين الأمر؟

فتقدّمتْ إليه ووضعت يدها على كتفه.. ثم أسندتْ رأسها على صدره وتمتمتْ قائلة:

– ألم تصفحْ عنه؟

– إنه لم يسألني الصّفْح!

– ذلك لأنه يتألم!

– نعم. ربما. إن القدر يضربه بقسوة، ولكنه هو الذي اسْتفزّ القدر!

– تذكّر أمنا!

فانحنى ليقبل جبهة ابنته قائلا:

– لا تطلبي مني أن أكون ضعيفا يا "**مرجريت**"! لقد زرته مرتين في السجن، فوجدته سادرا في كبريائه.. ثم إنه لم يُعبِّرْ لي عن أيّ أسف لمسْلَكه الذي جلب علينا كل هذه الأضرار! إنني لا أنتظر منه غير كلمة لأصفح عنه، ولكننا لا نتبادل غير عبارات تافهة!

– إنه يبكي أمنا عندما يكون معي.. أما معك فهو لا يجرؤ على ذلك!

– إن واجبي يقتضيني أن أنتظره.. وسأنتظره!

ولما كانت "**مرجريت**" مُطَأطئة الرأس فإنها لم تر العذوبة الحزينة التي انتشرت على الوجه الشائخ فخففتْ من صلابة أقواله. ورددتْ الفتاة قائلة:

– إنه يتألم! إنه تَعس!

فقال السيد "**روكفيار**":

– ونحن؟ ألسنا نتعذب؟!

ثم رفع رأس الفتاة برقّة، وسألها بدوره مغيّرا مجرى الحديث:

– ماذا فعلت بعد ظهر اليوم؟

فأجابتْ:

– لقد خرجت في نزهة مع الصغير "**جوليان**"، ثم كتبتُ خطابا مطولا إلى "**هوبير**".

– آه! لقد كتبتُ له أنا أيضا.

فلقد كان "**هوبير**" هو الآخر مبْعث قلق لهما؛ إذ تضمّن آخر خطاب ورد لهما من "**السودان**"، أنباء عن إصابته بالحمّى، ومرضه في كوخ منعزل دون أية عناية طبيَّة. ومع أنه هو نفسه كان يَهْزأ من هذه الوعكة التي لا خطر منها، إلا أن عبارة خاصة في الخطاب– صيغت في قلب وداع حنون– صدمتْ أباه وأخته وأحزنتهما حزنا عميقا؛ ومن ثم صَمَتا وقد انقبض قلباهما. ثم أشعلت "**مرجريت**" المصباح لتطْرُدَ الظلام الذي كان يملأ الحجرة بطوالع الشُّؤْم.. وبينما كانت تُسْدل الستائر إذا بطَرْقٍ على الباب، فقال السيد "**روكفيار**":

– ها هما قد جاءا.

ولم يكن لدى الفتاة متّسع من الوقت لتمْرُق مُنصرفة خلال الباب المؤدي إلى المسكن قبل دخول الضيفين.. بل إن أباها كان قد تقدّم بالفعل لاستقبالهما.. ودخل الأستاذ "هاميل" أولا، يتبعه الأستاذ "**باستار**".

كان النقّيب يتمتع في نقابة محامي "**شامبيري**" بمركز محترم، فرضته سنّه المتقدمة وغزارة مادته القانونية وحياته الوقور، وكان شيخا في الخامسة والسبعين من عمره، نحيفا بحيث يكاد يتأرْجَح في سِتْرَته الرسمية– (الردنجوت)– البالية، التي كان يؤكد في إصرار، أنها ستبقى ما بَقيَ هو على قيد الحياة. فإذا حلّ الشتاء، لم يَجدْ غضَاضَة في أن يلتَحفَ بمعطفه الذي بُليَ كمّاه، وكان يُجلّل وجهه الحليق تاج من الشعر الأبيض الأشعث، كما كانت وجنتاه الشاحبتان

تبدوان شفافتيْن. ومع أن قامته الفارعة انحنتْ كما تنحني الأشجار الهزيلة التي تعبث بها الرياح إلا أن خُلقَه لم ينْحَن قط. فما استطاع شيء أن يجعله يحيد عن مبادئه الراسخة، التي اعتنقها منذ شبابه وسار فيها مترسّما تقاليد أسرته! وكان فاتر اللهجة، مترفعا، ذا صوت آمر، يظهر من الصّلابة في التمسُّك بمبادئه نفس القدر الذي يظهره من المجاملة في علاقاته بالناس. وكانت عظمته تلك تتبدّى في الظروف العادية والظروف المهمة على السواء، فلم تتأثر نفسه بما تعاقب عليها من رخاء وشدة، على أنه عرف الشدائد– على الأخص– في سني حياته الأخيرة، وفي الوقت الذي يحقُّ للإنسان أن يخلدَ إلى الراحة. فلقد جلبت عليه تصرفات ابنه السيئة وإسرافه الخراب، فاستأنف الرجل عمله من جديد– ببساطة– ليكسب قوته اليومي!

على أنه قَلّما كان يترافع في قضايا؛ إذ كان "المستشار" الذي يلجأ الناس إليه فيما دقّ من الأمور التي ما كان يُبْدي فيها غير الرأي المتزن، الصائب.

ولم يكن يُرَى قط خارج مكتب استشارته الصغير، الحقير، الذي كان يَقْصدُه الناس ليعْرِضُوا على صاحبه– بصفة خاصة– قضايا الصُّلْح والتحكيم، كما لو كانوا يعرضونها على قاض عظيم! فإذا خرج ففي المساء ليذهب إلى الكنيسة بخُطَى لا تخلو من السرعة، وقد بدا عليه التأثّر والخشوع وعدم الاكتراث بالعالم الخارجي، مُصْغيا إلى صوت الله الذي كان ينتظر نداءه بصبر مستْسلم.

وبالرغم من فارق العمر بين "**روكفيار**" وبين "**هاميل**"، فقد توطّدَتْ بينهما صداقة من تلك الصداقات القديمة التي تُدعِّم أواصرها الحياة المتشابهة والكفاح المشترك، إلى الحدّ الذي يجعلها تتساوى مع صلات الدم.. فقد تعهّد "**هاميل**" نشأة "**روكفيار**" المهنية، كما آزر هذا "**هاميل**" في محْنة انْهيار مركزه المالي، مناضلا ضد الدائنين، حاصلا على تأجيلات وإمهالات، مُنَظّما على أحْسن وجْه عمليات البيع وسداد الديون. فلما أصيب ابن "**هاميل**" الأصغر– بدوره– بنفس الضّربة، كان أخوه الأكبر قد تخلّص من متاعبه وخرج من ورطته، إلا أن الأب كان قد بدأ يحسُّ بالعجز وبرودة السنين.

وقد فرضتْ عليه شهرة "**باستار**" أنْ يضعه في المكان التّالي له. وكان هذا الشاب– فهكذا كان يحلو للمحامي الشيخ أن يدعوه برغم سنيه الخمس والأربعين– لا يكف عن مضايقته بنوع من القحة في المناقشة، وبنظرته إلى القضايا من زاوية أتعابها. أما في ساحة المحكمة، فقد كان مرهوبا كجيش مسلّح! كان ساخرا لاذعا، مُستهزئا أو مُثيرا، يكيّف صوته كما يفعل أيّ مْغنّ قوي الحنجرة، وحركاته كأي ممثل بارع؛ ومن ثم أهّله كل ذلك لأن يقوم بالدور الأول في الجلسات! وبذقنه المرسل، وقسمات وجهه الدقيقة، وصلعته اللامعة– كاللافتات البرّاقة– واهتزازاته وارتعاشاته، كان يسيطر على الجلسة كلها، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يطوي المحلّفين والقضاة والخصوم في ثنايا ردائه الذي كان ينشره كالعلم.. هذا التفوّق الذي لا يمكن إنكاره، والذي كان يتمتع به "**باستار**" في محاكم الجنايات كان من الواجب أن يوضع موضع الاعتبار.

وعلى هذا، وبالرغم من أن "**هاميل**" كان "خادم الحقيقة المطيع" الذي يكره بَهْرج الفصاحة وزخرف المظاهر، إلا أنه آثر أن يطرح مبادئه الخاصة جانبا في هذه القضية، حتى يزيد بذلك من الضمانات التي تكفل تبرئة ابن صديقه.

ومع أن "**روكفيار**" لم يكن من المعجبين بـ"**باستار**"، كان كثيرا ما يتصدّى له في الجلسات– في غير هوادة– ليكشفَ عن تمثيلياته وألاعيبه بأسلوب سهْل يتمثل في الاتجاه مباشرة إلى الهدف، بسرعة الفرسان إلا أن ذلك لم يمنع "**باستار**" من أن يخفّ إلى معاونته، معاونة تفرضها الزمالة، وسارع إلى قبول الدفاع عن "**موريس**" بحماسة وإصرار!

*****

وبعد تبادُل المجاملات لخّص النقيب الموقف في بضْع كلمات:

– إنك تعلم يا صديقي العزيز أني رجوْتُ زميلنا "**باستار**" أن يخفّ إلى معاونتنا، بعد أنْ بلغتُ من الشيخوخة حدا لا أستطيع معه استثارة العواطف؛ وعلى هذا فسوف يترافع هو، على أن أتولى أنا مساعدته. وقد درسْنا ملف القضية معا، ورأينا ابنك في السجن، إلا أن ثمة صعوبة تصادفنا.

فقال الوالد في لهفة:

– وما هي؟

– إن "**باستار**" يستطيع أنْ يوضّحها لك أفضل مني.

فهزّ هذا رأسه "الجميل"! ولما كان يعلم أنه لا فائدة من اللجوء إلى العبارات الضّخْمة في هذا المكتب، فقد قنع بعرض واضح مختصر:

– نعم، لقد درستُ ملف القضية. إن الدليل المادي على إساءة استعمال الثقة ثابت من أقوال الموثّق ومحضر رئيس البوليس. أما أنا فلا أجد أدلة ضد ابنك، وإن كانت هناك قرائن خطيرة: فقد كان يعلم بإيداع المبلغ، وكان آخر من ظلّ في المكتب بعد أن حصل على المفاتيح، وأمكنه أن يكتشف سرّ الخزانة الحديدية من مفكرة رئيس الكتبة التي كان الرقم مقيدا فيها، ولم تكن له موارد خاصة كبيرة، وكان يريد اختطاف زوجة رئيسه. كل هذه الوقائع جعلوا منها مادة لإقامة الدعوى. ويضاف إلى ذلك: السفر إلى الخارج، والتزام الصّمْت، والعودة المتأخرة. ثم إن أقوال المدعو "**فيليبو**"– خاصة– مملوءة بالمرارة والحقد! ولابد أن تكون الغيرة قد ملأت قلب هذا الشاب من زميله الذي كان مُفضّلا عليه. ويخامرني الشك في أنه كان يحب السيدة "**فرازن**" حبا يائسا. فقد كانت امرأة لا تقاوم! حقيقة أنها نحيلة، ولكنها ذات عينين جميلتين! إن هذا النوع من النساء لا يستهويني!

ولما كانت نفس "**باستار**" قد صيغت من معدن رخيص فإنه لم يشعر بان ملاحظته هذه كانت في غير محلّها، وبان وجود والد المتهم كان يفْرض عليه أن يكون أكثر تحفظا.. وبعد أن

توقف برهة استأنف كلامه:

– لا يكفي "موريس" أنْ يعلن أنه بريء، فما دامت السّرقة قد وقعتْ فإن المحلفين سيبْحثون عن مذنب، ومن واجبنا أن نكشف لهم عنه. وقد لاحظتُ دائما أن الاتهام أقوى أثرا من الدفاع.. فهو يحوِّل الاهتمام من مكانه ليركزه في مكان آخر، وأنا أسْتخدم هذا الأسلوب بنجاح دائما. أما في الحالة التي نحن بصددها فإن المتهم مُعَيّن كل التعيين!

وتناول مجموعة المواد القانونية وراح يقلب صفحاتها، بينما كان مستمعاه يُصْغيان إليه دون أن يقاطعاه:

– اعلما أن السيدة "**فرازن**" لا تتعرّض لأي خطر.. فإن المادة ٣٨٠ تحميها: "الاختلاسات التي يرتكبها الأزواج بقصْد الإضرار بزوجاتهم، والزوجات بقصد الإضرار بأزواجهن.. لا يمكن أن تكون محلاً إلا لتعويضات مدنية.

فعقّب الأستاذ "**هاميل**" قائلا:

– إننا نعْرف ذلك!

– إنّ أفراد الأسْرة الواحدة لا يسْرقون بعضهم البعض؛ ومن ثمّ ليس في إماطة اللثام عن السيدة "**فرازن**" ما يعرّضها للعقاب. بل هناك ما هو أفضل! إنّ إحْساسي لا يخدعني أبداً! لقد حصلتُ على عقْد زواج "**فرازن**"؛ إذ فكرت في أنني لابد أنْ أعثر فيه على شيء، وقد حصلت على نُسْخة من العقد بوساطة أحد وكلائي في "جرينوبل" فوجدتُ فيه الدليل على أنّ السيدة "**فرازن**" بأخذها مائة ألف فرنك من الخزانة الحديدية الخاصة بزوجها، إنما ظنّتْ أنها تستوفي حقا لها!

وفي هذه المرة تكلّم "**روكفيار**" فقال:

– إنني لا أفهم!

فقال "**باستار**":

– سوف تفهم.. فإن الأمر من الوضوح بحيث يخْطف الأبصار! فلقد قرّر "**فرازن**" لزوجته في العقد، منحة قدرها مائة ألف فرنك.

فتساءل "**روكفيار**":

– في حالة بقائها على قيد الحياة من بعده؟

– لا. بل فورا! ولكن كان من الطبيعي النص على إلغائها في حالة الطلاق.. فإن النظام الذي تمّ الزواج في ظلّه هو نظام انفصال الممتلكات. ولما كانت السيدة "**فرازن**" تجهل القانون فقد افترضتْ أنها تملك هذا المبلغ، وأنها بتركْها منزل الزوجية يصبح لها الحق في أن تأخذه معها. إنه تعليل سخيف، ولكن لا عجب فهو تعليل امرأة.. ومن هنا أفهم السّبب الذي من أجله حرص السارق على ألا يسْحب غير مائة ألف فرنك، من مبلغ المائة والعشرين ألف فرنك الذي كان بالمظروف. إن هذا ليس سرقة، وإنما هو استيفاء حق.. وقد ظنّت السيدة "**فرازن**"

أنها تباشر حقا لها!

فقال "**روكفيار**" مُبديا اهتمامه بهذه الحُجّة الدامغة:

– نعم، إن العقد يفسّر كل شيء! فبدأ "**باستار**" يتّقدُ حماسة، ويحرِّك ذراعيه الكبيرتين، قائلا:

– إنّ هذا معناه البراءة المؤكّدة التي لا جدال فيها. فأي محلّف يستطيع أنْ يصْمد أمام دليل كهذا؟ إنني لم أحْصل إلا في النّادر على أمثال هذه الأدلة القاطعة، أمام محاكم الجنايات!

فغمزه النقيب قائلا:

– إنك لا تدافع دائما عن أبرياء!

– أبرياء أو مذْنبون.. إنّ الذي يُهمّ هو الدليل، والدليل هنا في أيدينا!

أما والد المتهم، الذي كان يريد ردّ اعتبار ابنه كاملا، فقد قال عندئذ:

– إنّ العثور على العقْد هو في الواقع عنْصر مهم لصالح الدفاع، وستعْرف يا "**باستار**" كيف تستخدمه– بفصاحتك– أحسن استخدام، وبهذا يمكننا إحراز النجاح النّهائي. ولكن ثمة نقطة أُلْحف عليك بالرجاء في أن تعالجها أثناء مرافعتك: فإن "**موريس**" لم يسافر وهو خالي الوفَاض مع السيدة "**فرازن**"؛ إذ حمل معه أكثر من خمسة آلاف فرنك، اقترض الجزء الأكبر منها من شقيقتيه وعم أبيه "اتيين" وزوجة عمه السيدة "**كاميل روكفيار**"، الذين سيشهدون بذلك إذا اقْتضى الأمر، وفي مدينة "**أورتا**" التي أوى إليها تلقّى شيكا بمبلغ ثمانية آلاف فرنك، من شركة "**شامبيري**" للتّسليف، التي يمكنها أنْ تقدم الكعب. وهذه البيانات ضرورية من وجهة نظر مزدوجة:

فأولا: هي تردّ مقدما على اتهام جديد قد يلجأ إليه استعمال الثقة، ليتذرع في هذا الاتهام بالمادة ٣٨٠ مكررة: "بالنسبة لجميع الأشخاص الآخرين الذين يكونون قد أخفوا أو استخدموا لمنفعتهم الأشياء المسروقة أو جزءا منها، فإن هؤلاء يعاقبون كمتهمين بالسرقة".. ومن ثمّ يجب ألا يكون هناك أي مجال للبس. وحتى إذا لم تكن هذه المادة موجودة فإنني ما زلت أحْرص حرصا أكيدا على حماية شرف ابني من تبعة الاشتراك في حياة لا يتحمّل هو نفقاتها!

فأمن الأستاذ "**هاميل**" على ذلك بقوله:

– حسنا جدا.

وردّد "**باستار**" نفس العبارة، ولكن بلهجة مغايرة. أما "**روكفيار**" الذي كان النضال قد ألهب وجهه بإشراقة الأمل في الخروج من هذه المحنة، فقد لخّص الموقف في كلمتين:

– الآن، نحن مسلحون، والنّصْر أكيد..

فنظر إليه النقيب بعينين حزينتين كستْهُما الشيخوخة بزرقة باهتة، وقال:

– هل تراك نسيت يا صديقي الصعوبة التي حدثتكَ عنها في بداية مقابلتنا؟!

فعادت الكآبة إلى وجه "**روكفيار**"، وقال:

– أية صعوبة؟

وهنا عاد "**باستار**" يحتلّ مكان الصدارة الذي لم يكن ليتخلّى عنه مختارا؛ إذ قال:

– هاك هي: إن خطتنا المحْكمة، التي لا يحْتَملُ نجاحها أي شك في رأيي، قد تفشل بسبب عناد ابنك!

فهتف الأب:

– عناد ابني؟

– تماما! فقد أوضحْنا له في السجن قبل مَجيئنَا ما انْتَوينا فعله لإنقاذه.. أفتعرف بماذا أجابنا؟

– آه! أخشى أن أكون قد استنتجتُ جوابه!

– إنه يعارض بشدة في أن يذكر محاميه اسم السيدة "**فـرازن**"، وهو يهدّد بأنه سَيُلقي التهمة على نفسه في الحال إذا حدث هذا.

فغمغم "**روكفيار**" في صوْت منخفض:

– هذا ما كنت أخشاه!

– لقد حاولت عبثا أن أقنعه بأن هذه شهامة (فروسية) مضْحكة، وأن ذلك الدفاع لا يُشَهّرُ بأي إنسان، ما دامت السيدة "**فرازن**" ليست معرضة لأية تبعات، وما دام أن ما فعلته يُعْزَى إلى عدم خبرتها بهذه الأمور، وإلى سوء تأويلها لعقد زواجها. ومع ذلك ذهبت كل جهودي هباء؛ إذ اصطدمت بعناد لا يُقْهَر.

– وهل قدّم لك أسبابا؟

– سبب واحد: الشرف!

– إنه سبب من بين الأسباب!

– لا. إنها مجرد عاطفة! ولكن أمام القضاء يجب ألا ننظر إلى أنفسنا من زاوية الشرف، وإنما من زاوية القانون!

أما النقيب الذي لم يحبذ هذه النظرية فقد عرض الأمر في شكل آخر؛ إذ قال:

– إن شرف السيدة "**فـرازن**" هو الذي يَعْنيه بصفة خاصة! ولكي يحافظ على شرفه هو يتعين عليه أن يُقيمَ الدليل على أنه لم يسرق مبلغا من المال، ولا انتفع من اختلاس وقع من شخص آخر. ويمكنه إثبات الأمر الأول بتقديم عَقْد زواج السيدة "**فرازن**"، وإثبات الأمر الثاني بالشهادة المحرّرَة من البنك الدولي بـ"**ميلان**"، حيث أودعت أموال السيدة "**فرازن**". ولكنه يرْفُضُ بشدّة تقديم هذه الأدلة!

– وهل أحطته أنت علما بذلك؟

– لقد أحطته علما به، وبأنه يُعرّض نفسه لخطر جسيم إذا مثل أمام المحلّفين وهو أعزل من السلاح!

– وبماذا أجابك؟

– بأنه لن يدع أبداً السيدة "**فرازن**" تُتَّهم بأي شيء كان، وبأنه يَحْظُر على المدافع عنه أن يلفظ ولو مجرد اسم هذه المرأة! وقد ألفيناه مُصرّا على ذلك إصْرارا لا يلين! وحين اعترض عليه "**باستار**" بقوله:

– إذن فَقُلْ لنا كيف تريدنا أن نضطلع بمهمة الدفاع عنك؟

أجاب في أنفة:

– كيف يمكن لإنسان أن يتصوّر أنني مذنب؟ فلينظروا من أية أسرة أنحدر، ومن أنا.. ويجب أن يكون في هذا الكفاية!

واستطرد "**باستار**" يقول، وهو يربت ذقنه الجميل في رضا:

– أيّ ابن هذا؟ إن شرف الأسرة حُجّة قوية من غير شك، وفي نيّتي أن أستفيد منها في المحكمة، ولكنها على أية حال حُجّة ثانوية.. فهي لا تمسُّ صميم الموضوع، ولا يستطيع الإنسان أن يتذرّع بأقربائه في المرافعة.. وإلا فلماذا لا يُستشهَد بالأموات؟!

فأجاب الأستاذ "**هاميل**" بشيء من الخشوع:

– لو طلبنا شهادة الأموات لشهدوا لنا!

– يجب ألا ننسى أن هناك متهما. وسيبحث عنه المحلّفون، فإذا لم يكن هذا المتهم هو العشيق فسيكون العشيقة.. وإذا لم يكن العشيقة فسيكون العشيق! وفي يدنا الدليل على اتهام العشيقة، فكيف نَأبَى أن نقدمه؟ إن هذا ضَرْبُ من الجنون! لقد حذّرتُ ابنك يا زميلي العزيز من أنني لا أسْتطيع قبول مهمة الدفاع عنه في هذه الظروف، وهأنذا أكرر لك الآن هذا القول. إنك تعلم جيدا مبلغ حماستي للاضطلاع بهذه المهمة، وبأية عناية سأتوفَّرُ على تأديتها. فإذا شُلّتْ حركتي فماذا عَسَايَ أستطيع فعله؟ إنك تراني شديد التأثّر من هذا القرار الذي اتخذته، ولكن من المستحيل عليّ أن أتقدّم إلى المحكمة وأنا مكتوف اليدين هكذا!

فمدّ الوالد التعس يده إليه وهو يقول:

– إنني أفْقد معاونة ثمينة، وقد تكون فيها نجاة ابني. إلا أن الدفاع يجب ألا يعوقه أي عائق في سبيل تأدية واجبه!

وبالرغم من أنه لم تكن ثمة مودة متبادلة بين المحاميين إلا أنهما كانا متساويين في درجة التأثّر.. فليس عبثا أن يشترك اثنان في مهنة واحدة، وفي معارك واحدة، وينشغل عقلاهما بمشاكل واحدة!

وقال الأستاذ "**باستار**" وهو يَهمُّ بالنهوض:

– فلتذهب أنت لرؤيته، وقد تُوفَّق في الحصول منه على ما لم نحْصل نحن عليه!

ولكن الأب قال:

– لا.. لا أعتقد ذلك!

ولم يسْتمعْ المحامي لرأيه، بل مضى يتم حديثه:

– فإذا أفلحتَ في إقناعه وَجَدْتَني رهن تصرُّفك، ويمكنك أن تعتمد على مجهودي الخاص. لقد قاربت الساعة العاشرة، فاعْذرْني؛ لأن عندي موعدا خاصا ببعض الأعمال.

فاقتاده "**روكفيار**" إلى الباب، وشكره على عَتَبته قائلا:

– لقد اختلفنا يا زميلي في بعض الأحيان، ولكنني لن أنسى أبداً أنك لم تَضن عليّ بإخلاصك وكفاءتك في أَحْرج ظروف حياتي!

فأجاب المحامي الكبير الذي دهش لحب نفسه للخير:

– لا، لا.. فقد ظننتُ أنني سَأُوَفّق أكثر من قبل. إنها قضية مثيرة! فلتقنع ابنك، وعندئذ أعود!

وعندما عاد "**روكفيار**" إلى مكتبه وجد الأستاذ "**هاميل**" قد اقترب من المدفأة وأخذ النار وهو شارد الذهن، فجلس أمامه. وظلّ الاثنان وقتا طويلا يفكّران في صمْت. وأخيرا قال النقيب متابعا استطراداته السابقة:

– إن صوتي لم يكن مجلجلا في يوم من الأيام، وقد حطّمَتْهُ السنون.. ولم أكن أَعْني في مرافعاتي بغير إظهار الوقائع، دون استثارة العواطف، ومع ذلك فسأكون هناك، وسأقول بضع كلمات عن أسرة المتهم، وعن المتهم نفسه. ولكن يجب أن يكون هناك محام أصلي؛ إذ ليس في مقْدوري سوَى مساعدتك فقط يا صديقي!

ولم يذكر رأيه في مَسْلَك "**موريس**".. ومن المحْتَمَل أنه لم يجد له تفسيرا. فقد كان يَطْوي نفسه على حذر– يَقْرُب من الاحتقار– من المرأة.. حذر كثيرا ما نلتقي به في ختام حياة متقشفة منظّمة.. إن شرف امرأة كالسيدة "**فرازن**" لم يكن يساوي في رأيه كل هذه الرعاية. وقد رُويَ عنه هذا الحادث البالغ الحساسيّة: في ذات يوم، حَيّا امرأة ذات سمعة سيئة، فاستغلت المرأة تحيته وراحت تَزْهو بها؛ إذ كان رجلا مشهورا بالوقار. وعرف هو ذلك فإذا به يكفُّ منذ ذلك الحين عن تحية كائن من كان في شوارع المدينة!

وفي صَوْت مرتفع تساءل "**روكفيار**" الذي كان أقْدَر من غيره على فهم ابنه:

– تُرَى هل سيُوفق المحلّفون إلى استنتاج ما ينطوي عليه صَمْت "**موريس**" من النُّبل والشهامة؟ إن هذا قليل الاحتمال!

فأجاب "**هاميل**" مُؤكّدا في وضوح:

– إن هذا مستحيل. إنّ ابنك يُلْقي بنفسه إلى التهلكة، في الوقت الذي لا تدعو الحاجة إلى إنقاذ هذه المرأة. ولكن، أليس من حقنا أن ندافع عنه بالرغم منه؟!

– وكيف يكون ذلك؟

– إنك تعرف – كما أعرف أنا – أن الدفاع إجباري في محاكم الجنايات. فإذا لم يحضر عن المتهم محام مُوكّلُ منه كان على المحكمة أن تُعَيّن له محاميا يختاره الرئيس. فإذا عُيِّن

الأستـاذ "**باسـتـار**" من المحكمـة- ويكْفي أن أشير على الرئيس بتعيينه بصفتي نقيبا- فإنه سيصبح مُطْلق الحرية في الدفاع، ولو أنه يكون مُعَرّضاً لخطر الرد من "**موريس**" في هذه الحالة!

- ولكن هذا الرد إن حدث، فسيؤثر في المحلفين تأثيرا سيئا!

- إنني لا أرى سبيلا آخر، إلا إذا..

وسكت الشيخ الوقور، ولم تفلح اسْتفسارات "**روكفيار**" العديدة في إخراجه من صمته. وما لبث هذا الأخير أن تمتم:

- إنها قضية خاسرة!

وعندئذ نهض "**هاميل**" قائلا:

- إنك تؤمن بالله مثلي يا صديقي.. فاضْرَعْ إليه يلْهمك سواء السبيل! إن ابنك بريء، ويجب أن يُحْكم ببراءته. إن غلطته الحقيقة لا تتصل بالعدالة الإنسانية.. فهي لا تضرُّ أحدا سواه.. وسوى أسرته مع الأسف!

وتأهب للرحيل متجها إلى الباب، ثم تراجع إلى الخلف وفتح ذراعيه لزميله فجأة، وأفصحتْ هذه الحركة الفريدة عن عمق الحنان الذي كان مُخْتفيا تحت الصّرامة منذ عدد كبير من السنين.. كانت حركة مدهشة، عذبة مثل التعبير الذي يرتسم نضيرا، طاهرا، على وجه امرأة عجوز، أو مثل تلك الأزهار التي تسْتمرّ في النمو حتى عندما تغطيها الثلوج.. وتَعانق الرجلان عناقا مُؤَثرًا، ثم قال "**روكفيار**" لصديقه:

- لستُ أنت بالذي يمكن أن يتخلّى عنا. شكرا لك!!

فردّ الشيخ:

- إنني ما زلت أذكر أفضالك!

ووضع على كتفيه معطفه الذي كان كماه الفارغان يتأرجحان، ثم خرج إلى الرّدْهة بخُطَى مُسْرِعة، بحيث وجد مُضيفه صعوبة في مرافقته حتى الباب الخارجي.

*****

وعندما ألفى "**روكفيار**" نفسه وحيدا جلس إلى المنضدة- التي طالما حُلّتْ عليها مشكلات مالية وأدبية- ووضع رأسه بين يديه، ثم راح يبحث عن طريقة يُنْقذ بها ابنه الذي يكون فقدانه فقدانا للسّلالة كلها.. ولما كان أقل صلابة وأكثر ترفقا وقُدْرة على فهم الحياة والناس من الأستاذ "**هاميل**"- المنْطَوي على مبادئه المتزمتة، كما لو كان يعيش في برج- فقد عرف في تشبث المتهم بموقفه، ذلك العناد وعدم التخلّي عن المسؤولية اللذين خلقا وشدّا من أزْر أسرة "**روكفيار**" جيلا بعد جيل.. ولكن ابنه يستخدم تلك الصفات نفسها لتحطيم قوة الأسرة: فلكي يُقيم صرح سعادته الخاصة عَرّض للانهيار والتقوّض ماضي أسرته ومستقبلها.. هذه الأسرة التي حافظ على صفاتها المميزة حتى في الخطأ الذي ارتكبه.. ولما كان الأب يَجِد

في ابنه إنسانا مجرَّدا من الجُبْن والحقارة فقد فكّر في أنه إذا قُدّر لابنه أن يحتلّ مكانه يوما ما في الأسرة والمجتمع فإنه لن يدعَ تقاليدُ الأسرة تَضْعُف، وسيوجّه إمكانياتها ومقدراتها– التي أساء استعمالها– إلى هدفها الطبيعي! ومن ثمّ يجب انتزاعه سليما من هذه النزوة– التي يأبى التخلّص منها– مهما يكن الثمن، "إلا إذا.."، وأعاد "**روكفيار**" التفكير في عبارة النقيب الغامضة التي صدمته.. تُرَى ماذا يَعْني هذا الاستدراك؟

ورفع جبهته، واستند بظهره على المقعد، ثم نظر أمامه. توقفت عيناه على خريطة المزرعة التي كانت معلّقَة على الحائط– وقد ظهرت غير واضحة لبعدها عن دائرة الضوء المنبعث من المصباح– فاستعاد معالمَ هذه الأرض كما يستعيد ذكرى أحد أجداده أو ذكرى مستشار ناصح، وفي الوقت نفسه استعاد حجج "**باستار**" المنطقية المفزعة: "إن هناك سرقة وقعت. وإذن فهناك مذنب. فمن منهما؟ إذا لم يكن هو، فتكون هي. وهو لا يريد أن تكون هي إذن فهو السارق!" بماذا يردُّ على هذا التعليل البسيط بساطة عقول المحلّفين الساذجة؟ وفجأة، وبينما كان يُحدّق إلى خطوط الخريطة المضطربة، وثَب إلى ذهنه خاطر كأنه البرق في جُنْح الليل: "إذا ألغينا وجود السّرقة فلن يكون هناك متهم، وسيُرْغَم المحلفون على الحكم بالبراءة. ولكن كيف نُلْغي وجود السرقة؟"!

وردتْ عليه "المزرعة"!

وبعد لحظات طرقتْ "**مرجريت**" الباب برفْق، فقال:

– ادخلي. إنني بمفردي.

فسألته بعد أن دخلتْ:

– والآن، ماذا قررْتَ يا أبي؟

فشرح لها المأزق الجديد، الخطير، الذي وضعهم فيه "**موريس**" بعناده، والذي يُعَرّضُه للإدانة، وقال:

– لقد تخلّى عنّا الأستاذ **باستار**". إنه يرفض الاضطلاع بمهمة الدفاع!

فتساءلتْ "**مرجريت**" في جزع:

– ومن سيدافع عنه إذن؟ وعلى أي وجه سيكون الدفاع؟

فأجاب:

– لا تنزعجي يا صغيرتي.. فقد تكون لدي وسيلة!

فتساءلت:

– وما هي؟

– سأخبرك بها فيما بعد، فدعيني أُعْمل التفكير فيها.. إنها تقتضينا تضحية كبرى!

فلمعت عينا الفتاة بلهيبٍ حاد، انعكستْ عليه روحُها الطاهرة الكريمة، وقالت:

– فلتسارع بها يا أبت!

فتمتم الأب في كبرياء:

– يا ابنتي العزيزة!

وابتسمتْ الفتاة لأبيها ابتسامة واهنة، كتلك التي ترتَسمُ على وجوه الذين يعيشون في شقاء وقْتا طويلا، ثم قالتْ:

– لقد كنت أعتقد دائما يا أبي أنكَ أنتَ الذي ستدافع عنه!

٢- مجلس الأسرة

وقفتْ "**مرجريت**" عند مدخل غرفة المكتب، بعد أن تبينت وجود عدة أفراد بداخلها، وقالت:

– هل ترونني مُتطفِّلة على مجْلسكم؟

فأجاب أبوها:

– لقد كنتُ أوشك أن أدعوك؛ إذ يجب أن تكوني بيننا.

وهنا صاح كهْل أعجف، أحكم أزرار سترته، واتكأ على حافة المدفأة حيث كانت النار تتأجج:

– إن النساء لم يكن يُسْتَشرْنَ في أيامنا.

وإذا بسيدة على شيء من البدانة، ناهزت سن النضوج، وارتدتْ ثيابا سوداء، تجيب– من المقعد الذي غاصتْ فيه– بحدّة وعنف:

– ومع ذلك فإن الذي عرّض البيت للخطر لم يكن من النساء!

على أن النقاش لم يتجاوز تقرير مبدأ؛ إذ ما لبث الاثنان أن كفّا عنه، ليرحبا بالفتاة في حفاوة وبشر. وحيّتهم "**مرجريت**" تبعا لترتيبهم: "**اتيين روكفيار**"، عم أبيها الذي كان أكبر سنا من السيد "**هاميل**"– إذ كان يقترب من الثمانين، وإن لم يَحْن عبء هذه السنين ظهره– ثم زوجة عمها، السيدة "**كاميل روكفيار**"، وابنها "**ليون**"– وكان من رجال الصناعة في "**بونتشارا**" بمقاطعة "**دوفينيه**"– وأخيرا، "**شارل مارسيلاز**"، الذي كان قد وصل في ذلك الصباح.

وكانت السماء– في الخارج– مكفهرّة، مثقلة بالغيوم، تبدو منحدرة نحو الحصن وكأنها تريد أن تنقض عليه فتسحقه، بل كادت لفرط انحدارها أن تمس البرج.. وبدت غصون الأشجار العارية من الأوراق كأذرع ممتدة تضرّع للسحب. ولم يكن يحتفظ بطابع الربيع الدائم سوى قمة برج المحفوظات. وبالرغم من نوافذ حجرة المكتب الأربع فقد خَيّمتْ عليها كآبة ذاك اليوم المقْبضة، فإذا خزانات الكتب، واللوحات، والمنظر الطبيعي الذي رسمه "**هوجار**" تُلْقي على المكان طابعا حزينا بينما صُفَّت آخر أعداد المجلة القانونية على نضد صغير؛ إذ لم تكن قد جُمعَتْ في مُجلّد واحد على نمط أعداد السنوات السالفة. أما المنضدة الكبيرة، المتخَمة

بملفات- كان أحدها مفتوحا، وقد كشف عن مستندات قانونية وعقود مدنية- فكانت تنمُّ عن عمل دائب لم تُعَرقلْه أقسى الهموم.. بينما وُضعتْ أمام صورة السيدة "**فالنتين روكفيار**"- أم "**مرجريت**"- باقة من زهر البنفسج اليانع، تدل على أن يدا نسوية تتعهّدُها بالعناية في كل يوم.

ورجا المحامي ضيوفه أن يجلسوا، وكان مُطرقا برأسه، وقد بدتْ عليه أمارات التفكير. لكَمْ اكتهل خلال عام واحد، فشاب الشعر الذي كان يُتوّج رأسه وشعْر شاربيه القصير الحاد وأحاط بفمه خطان غائران، كما تخلل مقدم عنقه الناحل خط متغضّن ظاهر، وكان تهدُّل وجنتيه واسْمرار بشرتهما يُكَملُ هذه المجموعة من أمارات التداعي التي لم تكن "**مرجريت**" تشهدها دون أن ينقبض فؤادها.. فما أشدّ اختلاف هذا الرجل الغارق في أفكاره وهو يجلس إلى تلك المنضدة، من ذاك الذي كان واقفا على التل- في موسم الحصاد من العام الماضي- وقد انتصبتْ قامته المتينة البنيان نحو السماء في جلال!

وكانت دعوته إياهم إلى الجلوس هي الإشارة الوحيدة التي نمّت عن أنه كان يفطن إلى وجودهم. ومن خلال أهداب عينيه العميقتي الغوْر، انبعثتْ تلك النظرة المهيبة التي يتعذّر الصّمود لها، والتي استقرتْ على الوجوه وكأنها تتغلغل فيما وراءها! وأكّد بمسلكه هذا- قبل أن يتكلم- أنه الزعيم، وأن المحن لن تجد طريقها سهْلة للنيل من قوة نفسه وعزتها. وتكلّم أخيرا قائلا:

- لقد دعوتكم؛ لأن الأسرة تتعرّض لخطر. ونحن جميعا نحمل اسما واحدا، ما عدا "**شارل مارسيلاز**"، الذي يتّخذُ منزلةَ الابن؛ لأنه يمثِّل "**جيرمين**" ابنتي. ومع أن "**فيليسي**" و"**هوبير**" أبعد من أن يُستشارَا إلا أن حياتهما حافلة بإنكار الذات والتضحية إلى درجة لا تستدعي وجودَهُما.. وإنِّي لأعلم مدى زهدهما في الحياة!

وهنا سألته السيدة "**كاميل**" "**روكفيار**":

- ألديك أنباء سارة من الكابتن؟

كان الزيُّ العسكري لابن أخي زوجها يستهويها دائما، كما أنها لم تكن تقوى على أن تفكر في أكثر من شخص في آن واحد؛ لذلك، نسيت كل شيء حين ذُكرَ الضابط!

وكانت "**مرجريت**" هي التي تولّت الإجابة قائلة:

- لم تصلنا منه أنباء منذ أمَدٍ ليس بالقصير، ولم تكن آخر الأنباء- قبل ذلك- طيبة؛ إذ إنه كان مصابا بالحمَّى.

وعاد السيد "**روكفيار**" إلى حديثه قائلا:

- لسوف تبدأ محكمة الجنايات جَلسَاتهَا في ٦ كانون الأول (ديسمبر)، أي بعد ثلاثة أسابيع، وسيُقدَّم إليها "**موريس**" في نهاية الدورة.

فقال "**ليون**"- الذي كان فخورا بأنه يدير مصنعا كبيرا وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين

من عمره؛ ومن ثم كان يحاول الظهور بمظهر رجل الأعمال والواقعي الذي لا يعْبأ من الأمور إلا بنتائجها:

- إنها مجرد إجراءات رسْمية؛ إذ إنّ البراءة أكيدة!

وإذا بكلمة "لا" تنطلق حاسمة من فم المحامي فتُغْلق فم الشاب. وارْتجفتْ "**مرجريت**" بينما تبادل الرجال نظرات الدهشة والقلق، ثم توالتْ أسئلتهم:

- كيف لا؟، و"مادام غير مذْنب"، و"مادامتْ السيدة "**فرازن**" هي المذْنبة".

وكان "**شارل مارسيلاز**" آخر من تكلم، وهو الذي ذكر اسم غريمة الأسرة، فهتفتْ الأرملة- السيدة "**كاميل**"- وهي ترفع عينيها إلى السقف:

- يا لها من تعسة!

قالتْها وهي تشفق على سمع "**مرجريت**" من أن يَخْدشَه ذكْر اسم المرأة. فقد كانت تقسِّم النساء- ببساطة- إلى فريقين: شريفات، وساقطات. ومع أنها كانت ترْعى ملجأ للأطفال فإنها لم تحاول- وهي تحدّد هذا التقسيم- أن تبحث عن أصل أولئك الذين كانت ترعاهم! وفي مهبٍّ تيارات الفكر المتحررة في هذا العصر ظلّ أفقها فقط- دون حبها للخير ودون إخلاصها- محدودا!

واستأنف رب الأسرة حديثه قائلا:

- إنّ البراءة ليستْ أكيدة؛ بسبب قُيُود يفرضها ابني على الدفاع، ولقد زرته مرارا في السجن ولكنه لم يتزحزح قط؛ فهو لا يوافق على أن نتولّى الدفاع عنه، إذا لم نتجنَّبْ ذكر اسم السيدة "**فرازن**"! وثار رجل الصناعة، ورجل القانون- "**شارل مارسيلاز**"- فصاحا معا:

- هذا مستحيل. إنه معْتوه!

وتوالت التعليقات: "هذه خيانة".. "ما ينبغي الإصغاء إليه!".. "فليكن، دعوه وتخلّوا عنه!".

وكان ابن العم "**ليون**"- رجل الصناعة- هو الذي عاد فنصح بهذا الرأي الأخير المنطوي على نذالة. فرمقه المحامي بنْظرة امتزج فيها الغضب والازدراء ثم انقلبا فورا إلى ألم مرير.

كانت الأسرة في حلّ من الأمر ما دام أحد أعضائها قد نقض تضامنها. على أن أكبر أفرادها سنا- العم "**اتيين**"- قال بلطف، في غمْرة الصمت الذي ران على المكان:

- أما أنا فأرى أن "**موريس**" على صواب.

وعلى أثر هذه الملاحظة غير المرتقبة استأنف الأستاذ "**روكفيار**" عرْضُه للأمر قائلا:

- هذه المروءة من "**موريس**" قد يقدِّرها مُحلّفون من أبناء الطبقة الوسطى في المدن ولكن المحلفين من الفلاحين السَّاذجين لا يفهمونها. وهم لا يَحْفلون في المداولة بغيْر نقطة واحدة، هي: اختفاء مبلغ مائة ألف فرنك.. وهو رقم يُذْهلهم.. إنهم أكثر اهتماما بالاعتداءات التي تمسُّ الممتلكات، منهم بتلك التي تمسُّ الأشخاص. ولسوْف يتّجه فكرهم على هذا النّمط:

"لم يكن في وُسْع أحد– غير الشاب أو المرأة– سرقة هذا المبلغ، فإذا كانت "هي" السارقة، فليقلْ لنا حتى نبْرئ ساحته. أما إذا تركنا للتخمين فسنحكم عليه من جديد.. وإذا لم يجرؤ على اتهامها فهو إذن السّارق.. ذلك لأنه ليس لدى هؤلاء فكرة أخرى عن الشّرف!

وهنا ردَّد "**ليون**":

– الشرف! الشرف!

كان ما خصَّه به المحامي من ازْدراء واضح قد أثاره، وكان يرى وُجوب تفادي أي حكْم يشين الشرف، قبل كل شيء؛ ومن ثم أردف قائلا:

– لستُ أرى أن المسألة مسْألة شرف، وإنما هي مسألة قانون!

ورمقه أكبر آل "**روكفيار**" سنا– بدوره– في ترفع، وتمتمَ بصوْت انبعث كالصفير لخلو فمه من الأسنان:

– إنني أرثي لك!

فصاح رجل الصناعة، في غير توقير للسن:

– ولماذا؟

فأجاب الشيخ:

– لسبب واضح هو أنك لم تعدْ تفْهم شيئا مما تَعْنِيه بعض الكلمات!

فهتف الشاب:

– تماما.. إنها كلمات.. مجرّد كلمات جوفاء تلك التي تستخدمونها!

وهنا أراد "**شارل مارسيلاز**" أن يوفّق بينهما، فأدلى بهذا الإيضاح القانوني:

– إن السيدة "**فرازن**" مذْنبة، ولكن جريمتها لا تقع تحت طائلة القانون؛ لأن السرقة التي تقترفها امرأة للإضرار بزوجها لا عقاب عليها؛ ومن ثم فإن "**موريس**" لا يدفع بها إلى أي خطر حين يَشي بها، ولكنه يقررُ الحقيقة!

ولكن العم "**اتيين**"– الذي كان شبابه البعيد عاصفا– قال وكأنما قوله فصل الخطاب:

– إنّ الإنسان لا يَفْضح امرأة كان عشيقا لها لأي عذْر من الأعذار! إنني أدْرك ابنك يا "**فرانسوا**"!

أما الأرملة التي كانتْ منذ بداية الاجتماع تلوم– بصوْت خافت– ابنها الذي أخذ عنها ذكاءها الرخيص دون طيبتها، فقد رأتْ أن تناصره ضدّ ذاك الشيخ الذي كان يبشر بمبدأ خلقي غريب، فقالتْ:

– أو تريدنا أنْ نحْترم هذه المخلوقات؟

وحسم زعيم الأسرة النقاش غير المجْدي بحركة من يده، قائلا:

– دعوني أتمّ كلامي، فإذا حانت اللحظة المناسبة فسوف أدعوكم للنقاش. إن "**موريس**" يعارضُ أي تشْهير بالسيدة "**فرازن**" ولسنا بصدد تحري الخطأ أو الصواب في رأيه ما دام

يتشبث به، مادمنا لا نملك شيئا إزاءه. وإذا نبذ الدفاع رغبته، فإنه سيتهم نفسه بدلا من أن يؤيد الدفاع، مفضّلا أن يتحمّل عبء الجريمة! وفي هذه الحال، ما الذي سيحْدث؟ هذه هي المسألة، ولا مسألة سواها. إن المحلفين- إزاء واقعة السرقة المادية التي لم تواجهْ بإنكار، وفي تأثرهم بضياع مبلغ كبير كهذا- سيبْحثون فيما أتوقّع عن متهم. فإذا ما كانوا مجردين من أي توجيه إلى السيدة "**فـــرازن**" فلابد أن يتحوّلوا ضد ابني. أما أنْ يعاملوه- أو لا يعاملوه- بمقتضى الظروف المخففة، فهذه مسألة ثانوية محضة!

وهنا أفلتتْ من "**مرجريت**" صيحة:

- أواه، يا أبت!

- إن الخطر جد جسيم، فهل تقدّرون مداه؟ على أنني فكرتُ في أنه قد تكون ثمّة وسيلة لتفاديه.

فداخل الأمل "**مرجـريت**"- التي لم يكنْ أبوها قد أنبأها قبل الاجتماع بما يعْتزم عمله- وصاحتْ:

- يجب استخدام هذه الوسيلة يا أبت، مهما تكبَّدْنا!

- ها هي: لقد لاحظتُ دائما في قضايا سوء استغلال الثّقة- أمام محكمة الجنايات- أنَّ تسْديد المبلغ يَشْفع للبراءة. فإن أهم ما يُؤثر في نفوس المحلّفين هو ضَياع النقود. فإذا أبعدتم هذا العنصر فلن يجدوا داعيا لإدانة المتهم. فلا عقاب مادام لا ضرر هناك.. ولا مُدَان إذا لم يكن ثمة ضحية! هذه الآراء مجتمعة تخامرهم في العادة.

واستخلص زوج ابنة "**روكفيار**" من حديثه النتيجة:

- أتُرَاك تبْغي أن تردّ إلى الأستاذ "**فرازن**" المال الذي سرقته زوجته؟

وأجاب "**روكفيار**":

- هو ذلك.

فصاح "**ليون**":

- مائة ألف فرنك! إنه لمبلغ جسيم!

وسارع "**شارل مارسيلاز**" يقول معْتَرضا:

- ولكن في هذا اعترافا بذنب "**موريس**". فهو مذنب ما دام يدفع.

ولكن حماه قال:

- لا، إن الضّامن الذي يدفع بدلا من المدين الأصلي لا يُعْتَبرُ في وضع المدين. ولسوف يبيّن "**موريس**"- على لسان محاميه للمحلفين- أنه لا يبْغي اتهام أحد، ولكنه يريد أنْ ينْأى بنفسه عن الشبهات. وإذا تسلّم السيد "**فــرازن**" المبلغ فليس هناك سرقة. أما إذا ترك السيد "**فرازن**" يطالب بماله فمعناه الزجّ بابني في السجن!

وهنا هزّ العم "**اتيين**" رأسه الشبيه برأس عصفور مجرد من الريش، وهتف محبذا:

– أحسنْت يا "**فرانسوا**".

فدفع هذا التقدير الأرملة إلى أن تُبدي ودّها؛ ومن ثَمّ قالتْ:

– لستُ أفهم هذه الحيل والإجراءات، ولكن الصّيت الحسن خير من الغنى! إنني معكم بكل قلبي يا "**فرانسوا**".

ولم يطمئن ابنها– وهو يصْغي– إلا إلى كلمة "قلب"؛ لأنها لم تكن تعني أي التزام. وتبادل مع الموثق– "**شارل مارسيلاز**"– نظرة تحمل في طياتها هذا المعنى:

– إن هؤلاء المسنّين يترفعون عن الثّروة، مع أنها هي وحدها التي تكسب الأسرات احتراما وتتيح لها الرّفعة!

أما "**مارسيلاز**" فقد تولته الحيرة. وما لبث أن تساءل في رفْق:

– وهل تملك أنْ تدْفع مائة ألف فرنك يا أبي؟

فأجاب السيد "**روكفيار**" في شيء من الخشونة، وقد بدأ الغضب يتولاه:

– هذه مسألة أخرى سأعالجها فورا.. إنما نبحث المبادئ أولا، ثم نعالج تطبيقها!

على أنه قلب ترتيب الحديث بنفسه؛ إذ كان قد اتَّخذ قراره، فقال:

– سأبيع مزرعة البرْج إذا دعا الأمر!

وكانت هذه أعظم تضحية، أدركت "**مرجريت**" مبلغ ما فيها من بطولة، فَشَحَب وجْهُها، وتردَّد "**شارل**" مُوزَّعا بين الاحترام والمصلحة، وبين الإعجاب والاستهجان، وراح يبحث عن منفث لهذه المشاعر المتضاربة. وما لبث أن قال مجادلا على أثر غمزة ساخرة من عيْن ابن العم "**ليون**":

– تبيع المزرعة؟! إنّ الوقْت لا يتّسع للبيع قبل ٦ كانون الأول (ديسمبر)، وإلا بعْتَها بثمن بخْس. إن المزرعة تساوى مائة وستين ألف فرنك على أقل تقدير، وبغير الغابات التي اشتريتَها في "**سان كاسان**" منذ أربع سنوات!

ولا شك في أنّ المحامي كان قد استعرض هذه المسألة أثناء البحث، فقد كان متأهبا للإجابة، وبادر قائلا:

– هذا ميسور. وتبقى أمامنا وسيلة أخرى هي القرض الرَّهْني.

– أجل، بفائدة قدرها خمسة في المائة، أو أربعة ونصف.. خمسة في المائة على الأرجح، نظرا للحاجة الملحّة التي لا يفوت رجال الأعمال استغلالها، لاسيما وأن الأرض لا تُغلّ سوى ريع لا يكاد يصل إلى ثلاثة في المائة، كما أن سقوط الصقيع أو الجليد قد يكْفي لإتْلاف المحْصول. إنّ لك من الخبْرة يا أبي ما لا يجْعلك تجهل أنّ القرْض الرّهْني– بالنسبة للأرض– مرَض عُضال، قاتل. إنّ العقارات الثّابتة أصبحتْ اليوم خطرا على أولئك الذين لا يعيشون في أراضيهم ويُفْلحونها بأنفسهم، أو الذين لم يؤْتوا ريعا طيّبا يسْتطيعون بفضله مواجهة تقَلبات الظروف والمنافسة.. إن هذا يعرض المستقبل لنوائب لا سبيل إلى إصلاحها. ثم إن المزرعة هي

تراث الأسرة.. التراث المقدس الذي يجب ألا يُمَسّ!

وتركه السيد "**روكفيار**" يتكلّم، حتى إذا عيل صبره قال بصوت مرتفع:

– ليس هناك من يفوقني حبا للأرض، وفهما لها، وسماعا للنصح، وكشفا لمواطن العلل التي تنتابها.. فأنا الذي أُلام إذا نسيت شؤونها! ولكن عليكم أن تعلموا– إذا لم تكونوا تعلمون– أن في ميدان الشؤون الإنسانية نظاما قدسيا يجب احترامه. إنني أقدم التراث الأدبي والمعنوي على التراث المادي. فليس الميراث هو الذي يخْلُق مكانة الأسرة، ولكن تعاقُبَ الأجيال هو الذي يخلق الميراث ويَصونُه. والأسرة التي تنزل عن أملاكها تستطيع أن تستردّ هذه الأملاك. أما إذا فقدتْ تقاليدها، وإيمانها، وتضامنها، وشرفها.. وإذا هي انحدرتْ إلى مجرّد جماعة من الأشخاص الذين تتقاذفهم المصالح المتضاربة، والذين يقدّمون مصالحهم الخاصة على رفعة المجموع فإن الأسرة تستحيل إذ ذاك إلى مُجَرَّد جسد خال من الروح.. إلى جُثَّة تفوح منها رائحة الموت.. ولن تستطيع أعظم الثروات أن تردّ إليها الحياة بعد ذلك! من الممكن شراء الأرض ثانية، أما فضائل السلالة فلا يمكن شراؤها إذا هي بُدِّدتْ؛ ولهذا فإنّ ضياع مزْرعة البرْج أقلّ أثرا عندي من تَعْريضي ابني واسْمي للعار. على أنه لما كانت مزرعة البرج ملْكا لأسرة "**روكفيار**" قرنا بعد قرن، لم أشأ أن أقطع هذا الاسترسال الطويل العمر دون إخطاركم، ودون استشارتكم.. فأدلوا إليّ بآرائكم– كل بدوره– في إخلاص، ولست أعد بأن أحَفلَ بها إذا كانت تعارض رأيي. إنني زعيم الأسرة المسؤول. ولكن أي قرار يحطم بضربة واحدة عمل عدة أجيال خليق بأن يُعْتَبر قرارا خطيرا؛ ومن ثمّ طاب لي أن أحصل على تحبيذ من مجلس يمثل الأسرة!

*****

وأظهر له الصَّمْت الذي أعقب كلامه أنّ جلساءه قد أدركوا أهمية القرار الذي يوشكون أنْ يتَّخذوه، وتطلع إلى خريطة المزرعة المعلقة إلى الجدار، والتي كانت تبيِّنُ المساحات التي وسعت من رقعتها، مع تواريخ عقود شرائها.. لطالما تأملها وهو يُعدُّ مرافعاته لا ليقرأ عليها حدودا وأرقاما وإنما ليتمثَّل الغابات والحقول والكروم والعمل الدائب وجَنْي العنب.. كان ذلك الإطار الضيّق– الذي لم يكن تأمّل مَعَالمهُ السوداء عبَثاً– يَضمُّ قطعة من الأرض، ومن الجهود الزراعية، ومن تعاقب الفصول.. وأشاح ببصره عن الخريطة، ونظر خلال النافذة فرأى تحت السماء المكفهرة حصن الدوقات القدماء– الذي شُيِّدَ على مَهل في كافة حقَب التاريخ– وقد انهار نصفه، وبَدَتْ أطلالهُ الباقية مهيبة، وكأنها تقوم على حراسة الماضي.. كانت هذه الأطلال شهود عيان تفوق جميع المستندات، وجميع المحفوظات، وجميع المراجع والتقاويم، وكانت تبعث في ذهنه– هو وحده– ذكرى الـ"**سافوا**" القديمة، وعصر الجدود والحروب الطاحنة بينما كانت قِباب الكنيسة المقدسة تمثل نزعات التقوى التي تعتمل في القلب.

ما الذي كان يتبقّى من الأموات– ومن أعمالهم ومشاعرهم– لولا هذه المعالم المادية التي

يتجسَّدُون فيها، والتي تذكِّرُ النَّاس بهم؟ وهذه المزرعة- مزرعة البرج- التي طالما فُلحَتْ، وأينعت، واتسعت، واسْتُصْلحت.. أَتُرَاها كانت شيئا عديم القيمة في مصير آل "**روكفيار**"؟ وإذا هي فقدت، أفلا تَحْرِمُ السلالة من نقطة ارتكازها، ومن الدليل المرئي على استمرارها؟ إن الأجيال- في الأسرات التي تعيش على ملكية الأرض- تتناقل الفأس، كما كان العداءون القدامى يتناقلون الشعلة.. وها هو ذا آخر زعيم للأسرة يترك الفأس تهْوِي من يده!

على أن المحامي رفع رأسه، وقمع كل تردد. فما كان التراث هو قوام الأسرة، اللهم إلا إذا كان البرج هو مصدر شجاعة المقدام، والكنيسة هي مصدر تقوى المصلي.. لقد كان "**هوبير**" و"**فيليسي**"- في غربتهما عن وطنهما، في "**السودان**" وفي "**الصين**"- يحملان في أطوائهما النشاط الحيوي والهمة اللذين ورثاهما عن عراقة أصلهما، ولو أن "**موريس**" رجع إلى الحياة العادية لكفَّر بعمله عن ذنبه. أما "**مرجريت**" فإن جذوة التقوى والوفاء تَذْكُو في أعماقها، وما لبث المحامي أن وجَّه الكلام لابنته، بوصفها أصغر الحضور سنا، ورغبة منه في أن يسمع منها صدى أفكاره:

- أنت الأولى في الكلام!

فقالت:

- أنا يا أبت؟ كل ما تفعله أنت حسن، فَأَنْقذ "**موريس**".. إنني أضْرع إليك! فإذا رأيْت أن بيْع مزرعة البرج ضروري فلا تتردّد في بيعها؛ إذ إننا لسنا في حاجة إلى الثروة. وعلى كل حال فإنني في صَفِّك، وينبغي ألا تشغل بالك بي.. فلست محتاجة في عيشي إلا للقليل، بوُسْعي أن أقنع بأيِّ وضع!

فأمَّن السيد "**روكفيار**" على قولها:

- كنت أدرك هذا.

ثم ربت يَدهَا في لطف، وهو يقول لابن أخيه:

- وأنت يا "**ليون**"؟

ولما كان سيئ الظن به، فقد أردف:

- تذكر أباك!

واصطنع الشاب مظهر الوقار الذي ينتحله الوصوليون الناجحون إذا ما تاهَّبوا لأن يُفْضُوا إلى الغير- دون مقابل- بخطتهم للنجاح.. وخُيِّل إليه أنه سيُلْقي درسا على هؤلاء الكهول الذين يجهلون الحياة العصرية؛ ليعلِّمهُم أن الظروف الجديدة في الحياة تقوم على السرعة والأنانية والواقعية:

- إنك يا عمي من رجال العهود العتيقة الذين كانوا يبحثون عن الحروب- من أجل المبادئ- في كل مكان، وينازلون طواحين الهواء! إن إفلاسك لن يجديك شيئا، فانظر إلى الأمور من ناحية إيجابية. إن "**موريس**" يشهر- في هذه اللحظة- سلاح الشّرف ضدك، في حين أن

شرف السيدة "**فرازن**" لا يساوي مائة ألف فرنك. إن ابن عمي الظريف يتظاهر بالشهامة في السجن، ولكنه لن يلبث أن يتخلى عن هذا التظاهر في لطف إذا ما وقف أمام المحكمة.. إنني لست محاميا، غير أنني كثيرا ما قرأتُ ما يقرؤه كل الناس في الصحف عن الجرائم العاطفية، فإن المتهمين دائما- لاسيما أكثرهم غطرسة- يميطون اللثام عن شركائهم أو ضحاياهم، ويشهّرون بهم أو يتهمونهم ليبرئوا أنفسهم. إن الخوف من الحكم هو بداية ركونهم إلى المحكمة. و"**موريس**" ولد ذكي، توّاق إلى المستقبل؛ ومن ثم فإنه لن يلبث أن يدرك مصلحته. فإذا قُدّرَ له ألا يفهم فليتحمل مسؤولية إصراره، آخر الأمر.. ومن المحزن أن أقول هذا أمامك يا عمي، وإني لأعرب لك عن أسفي وحسْرتي، ولكنه هو الذي أراد هذا لنفسه. وإني لأعرف أنك تحب الصّراحة. إن الخطر الذي يتهدّده لا يحوم إلا حول شخْصه، وتضامن الأسرة ما عاد يجرّ الانحطاط على الجميع، بسبب ذنب واحد منهم.. فتلك كانت نظرية سخيفة دفنها عصرنا نهائيا في أكفان الماضي. كل مسؤول عن نفسه. هذا هو الشعار الجديد. ولا يُلزَمُ أحد بديون الغير، ولو كان هذا الغير أباه أو أخاه أو ابنه! فالمال الذي أكسبه إنما أكسبه لنفسي! وكذلك حسناتنا وسيئاتنا. إن لدى المرء من أعباء تدبير سعادته الخاصة ما يُثْقل عاتقه، فلا حاجة به إلى أن يحمل أعباء عشرين جيلا! وبوُسْعكَ أن تمنح "**موريس**" نصيبه من ثروتكَ مقدما- إذا شئتَ- ولكنكَ جدير بأن تحتفظ لأخويه وأخواته بأنصبتهم، وبأن تحتفظ لنفسكَ بقوت شيخوختك. أما المزرعة فلك أن تبيعها إن وجدتَ ثمنا مغريا، ولكن.. لا لتبتاع بها رأفة المحلّفين، وإنما لأنّ الأرض لم تعُدْ ذات نفْع إلا للفلاح الذي يقضمها كما يقْضمُ الفأر الخبز اليابس. إن المستقبل للصناعة والآلات، فهي بالنسبة له كالفرد بالنسبة للمجتمع!

وعلى أثر هذا الخطاب، أطلق أكبر الحضور سنا ضحْكة لاذعة، وتمتم:

- إنه يحْسنُ الكلام.. صحيح أنه يسْهبُ، ولكنه يجيد القول!

واغتاظت الأرملة، فضمّت راحتيها لتدعو الله.. بينما تساءل السيد "**روكفيار**" في شيء من الاستهجان:

- هل فرغتَ من الكلام؟

فأجاب الشاب:

- أجل.

فعاد المحامي يقول:

- إذا كنتُ قد فهمتك حقا فإني أراك على استعداد لأن تُلقي بـ"**موريس**" من حالق!

وقال الشاب:

- معذرة يا عمي.. بل هو الذي يُلْقي بنفسه، وهذا الوضع يختلف عن ذاك. ولو أنه كان عاقلا لاستطاع أن ينجو بسلامته من براثن العدالة. ولكنه لا يريد أن يكون عاقلا.. وأنا في صفّ العقل دائما!

واتجه زعيم الأسرة إلى زوج ابنته متسائلا:

– وأنت يا "**شارل**".. أَتُرَاك من أنصار العقل كذلك؟

فتردد "**مارسيلاز**" قبل أن يجيب: كان يحتمل بصبر نافد سمو مركز حميه عليه، وكان تفوُّق مكانة أسرة زوجته على مكانة أسرته يثير حنقَهُ عند كل مقارنة، لاسيما بعد أن نقل أعماله قريبا من مسقط رأسه. ولما كان مجتهدا ومقتصدا فقد حرص على أن يعمل بحماس من أجل مستقبل أبنائه؛ ومن ثَمَّ كان يُبْدي غَيرَة في حماية ثروته المتواضعة التي اكتسبها بعناء. ولقد استغرقه العمل، فأورثه ذلك مرارة نفسية وصلابة ولكنه كان يحب زوجته "**جيرمين**"، وإذا كان قد أساء الظن ببعض تصرفات لها توحي بالترفع فما ذلك إلا لأنه كان محروما مما يدعوه للترفع! ومن ثمّ فقد انحرف عن الموضوع الأصلي؛ لينحي باللوم على الماضي، قائلا:

– لماذا يفضّل "**موريس**" السيدة "**فرازن**" علينا، حتى وهو في السجن؟ إنه لسخْف، لاسيما وأنها غير معرّضة لأية عقوبة. إنه يَغْدر بالأسرة متذرّعا بالشّرف في تعلل خاطئ.. مائة ألف فرنك! ألا ترى أنّ دفْع مائة ألف فرنك أمْر يفوق طاقتك؟! ليس من الواجب أن تقْدُم على المستحيل!

فقالتْ "**مرجريت**":

– بل من الواجب عمل المسْتحيل لإنقاذ "**موريس**".

وهنا قال السيد "**روكفيار**" الذي كان ينْشد جوابا واضحا محدّدا:

– مجْمل القوْل: إنك أنتَ أيضا يا "**شارل**" تنْصحني بأنْ أتخلّى عن ابني.. أليس كذلك؟

وطأطأ الموثق الشاب رأسه حتى لا يلتقي بصره بنظرات "**ليون**" الساخرة، وتمتم في خزْي:

– لا، لست أذهب إلى هذا الحدّ.

فلما رفع رأسه أدهشته النظرة التي كان والد زوجته يرْمقه بها، والتي تجرّدت من سطوتها المألوفة، وبدتْ غامضة، رقيقة، ذات لطف غير معهود.. كنظرة المرء الذي يكشف– تحت بعض الحشائش الندية– المنبع المتواضع الذي يتدفق منه نهر سيّال.. وما لبث السيد "**روكفيار**" أن قال:

– هذا دورك يا "**تيريز**".

وكانت المرأة لا تُصْغي إلى أي قول بعد أن ألقى ابنها خطابه، ولكنها حين سمعتْ اسمها بادرت إلى تلبية الدعوة، ولما كانت ذات فطرة ساذجة بسيطة فإنها لم تزج بنفْسها في مناقشة المبادئ– التي كانتْ تطبقها في حياتها دون أن تعرف لها كنها– وإنما عمدتْ مثل كثيرات من النساء إلى النظرات المتعلقة بالأمور الشخصيّة، الأمر الذي ساعد على إقصاء الحلول المبهمة، وعلى تبْديد الضّباب المتخلّف عن المناقشات الفلسفية، ولم تكنْ قد اسْتوعبتْ من كل الجدل سوى قول واحد ولكنه كان أفضل الأقوال؛ وإذ كانت لا تقوى على مواجهة أكثر من فرد واحد

بإجابتها؛ لذلك، وجّهتْ خطابها إلى "**ليون**"، غير حافلة بالباقين:

– هل قلتَ: إن كل امرئ مسؤول عن نفسه؟ لو أنّ عمك الجالس هنا اتّبع هذه السّنة يا بنيّ لما كنت اليوم تدير مصْنعا يدر عليك مئات ومئات!

فقاطعها الشاب وقد مسّ قولها اعتزازه بنفسه:

– أتهزئين بي يا أماه؟

ولكن السيدة الطيبة كانت قد انطلقتْ، فما من سبيل إلى إيقافها:

– لا، لا.. إنك لَتُدْرك تماما ما أريد قوله؛ لأنني قلته لك من قبل، وإذا كنت قد نسيت فإنني أذكّرك: كان ذلك منذ خمس عشرة سنة حين استثمر أبوك كل مدخراته في المصنع الذي أسسَه، ولما لم تصادف أعماله رواجا في الحال فإنه لم يلبث أن اضطر يوما إلى أن يتوقف عن دفع التزاماته، وكانت الصناعة إذ ذاك حديثة عهد في البلاد، ولا يثق بها أحد. فذهب أبوك إلى أخيه الأكبر– عمك "**فرانسوا**"– وأطلعه على ما كان يتهدّده فما كان من "**فرانسوا**" إلا أن أقرضه في الحال– وبغير فوائد– العشرين ألف فرنك التي كان في حاجة ماسة إليها؛ إذ كنا مهدّدين بالإفلاس وهكذا تمّ إنقاذنا يا صغيري! ومنذ تلك الساعات العصيبة تولّد عندي ذعْر طاغ من الفاقة. فليسامحني الله، إنّ الفاقة هي التي جعلتك أنانيا، سيئ النية!

فاعترف "**ليون**" في استياء وضجَر:

– حسن.. حسن، إنني لم أكن أذكر هذا!

ولكن السيدة "**كاميل روكفيار**" كانت مُفْعمة الصدر بما لديها فلم تشأ أن تتراجع، وهي التي اعتادتْ أن تنزل عن آرائها أمام حجج ابنها، بعد مناوشات هينة. فإن المرء إذا عاش إلى جوار غيْره لم يفطنْ إلى نفسه؛ ومن ثمّ فإنّ الدّهْشة تأخذه أحيانا– إذا أتاحت له الظروف العصيبة فرصة– حين يتبيّن أنه في عزْلة، ويزداد هذا الشعور في عصْرنا، جيلا بعد جيل، بسبب تفكك الروابط العائلية، وسرعة انتقال الآراء من مكان إلى آخر!

وتحوّلتْ السيدة "**كاميل**" تقول لأخي زوجها:

– لست قريبتكم إلا بالنّسب يا "**فرانسوا**" غير أنني لا أنسى أنني أحمل نفس الاسم الذي تحملونه؛ ومن ثمّ فإني أضع تحت تصرفك عشرين ألف فرنك، إذا كنت بدورك في حاجة إليها.. لست أفقه من أحاديثكم شيئا ولكنني أُدْرِك أنك تعس. أما السيدة "**فرازن**" فامرأة مُسْتهترَة!

وهتفتْ "**مرجريت**":

– لكَمْ أحبك يا زوجة عمتي!

فأضاف السيد "**روكفيار**" إلى حديث ابنته:

– شكرا يا "**تيريز**". من المحْتمل ألا أحتاج إلى هذا المبلغ، ولكنني سعيد وأنا مُدْرك أن بوسعي أن أركن إليك إذا دعا الأمر.

وحان دور العم الأكبر فأدلى برأيه في بُطْء، وبصوت واضح جازم، كان يجد عناء في إرساله

أحيانا، فيبدو كرنين جرس مُصدّع:

– إن الأب هو خير من يحكم على ممتلكاته يا "**فرانسوا**". فأنت وحدك المسؤول، ولست مُقيَّدا بأحد. لقد كنتُ أنا الأخ الأصغر لأبيك، وتيتَّمْنا معا منذ صبانا.. وكان أبوك هو الذي كفلنا، وأرشدنا، وساعدنا؛ إذ كان هو الوريث وزعيم الأسرة، وكان المتبع إذ ذاك أن الفتيات لا يرثْن سوى نصيب ضئيل؛ إذ لم يكن الرجال يتزوجونهنّ من أجل الصداق. أما تراث الأسرة، فكان يئول إلى فرد واحد، بكل تبعاته التي لم يكن الوريث يملك التخلُّف عن أدائها، مثل تغذية، وتمويل، وتنشئة الصغار، وكفالة العجزة والمحتاجين والمكتهلين! إنّ شباب اليوم يجْهلون ما كان يعنيه الميراث، وهو القوة المادية للأسرة.. لكل الأسرة، مجْتمعة حول زعيم واحد، آمنة من العوْز، بفضْل تماسكها. أما اليوم، فما جدوى الاحتفاظ بتلك الضَّيعة؟ إذا أنت لم تبعها فسيتولّى القانون تفتيتها.. فإنّ التقسيم الإجباري للميراث لم يتْرك مجالا للتراث العائلي بل لم تعد هناك أسرة بفضل مبدأ "كل مسؤول عن نفسه"، وبفضل تدخل الحكومة الدائم وتقاضيها نصيبها في كل العقود التي تتصل بالحياة.. ولسوف نرى ما الذي يسْتطيع أن يحققه هذا المجتمع المؤلف من أفراد تستعبدهم الدولة!

وأرسل ضحْكة استهْجان وازدراء، ثم اختتم كلامه قائلا:

– ومع ذلك فأنتَ على حق عندما تفضِّل شرفنا على أموالك ومن الصواب أيضا أنك أطلعتنا، فلقد كنا نتبعك في رخائك، وإذا كان القدر قد ناوأك فنحن لن نتخلّى عنك، ولست أملك شيئا يذْكر، فإلى جانب معاشي كمستشار، لا أملك سوى سندَات تبلغ قيمتها خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف فرنك، أسْتعين بريعها على الحياة. أمّا وقد أصبحت طاعنا في السنّ فإنني أمنحك إياها بعد موتي.. بل إنني أمنحك إياها فورا، إذا شئت!

فاجاب السيد "**روكفيار**" في تأثر:

– إنني لفخور بتأييدكَ يا عمي، ومتأثر بتعضيدكَ. لسوف يهون عليّ أداء مهمتي الآن.. فإن هذه التضحية بالمال ستبْرئ ساحة "**موريس**"، وهذا ما تؤكده لي خبرتي بالقضايا. وما أظنني سأستطيع أنْ أنقذ المزرعة.. وهذا هو تفتيت ثروتنا!

فقاطعه الكهل وهو ينْهض:

– ليس هذا من شأننا!

– بل إنّ من واجبي أنْ أبيّنه لكم حتى إذا خرجتْ مزرعة البرج يوما من قبضة آل "**روكفيار**" أدْركتم أن هذا لم يتمّ دون ألم، ودون حاجة قاهرة.. فكونوا شهودا: إنّ مزْرعة البرج تساوي مائة وستين ألفا من الفرنكات، كما أن غاباتي في "**سان كاسان**" تُقدَّر بعشرين ألفا.. وقد تسلمت "**جيرمين**" صداقا قدره ستون ألفا من الفرنكات.

وهنا قال "**شارل مارسيلاز**" في خجل:

– هل يجب عليّ أن أردّ إليك هذا المبلغ كله أو بعضه؟ إنه مُسْتثْمر إلى حد ما في أعمال

المكتب الذي اتخذته في "**ليون**"!

وكان هذا السخاء يستحق من التقدير قدر ما صاحبه من أسف، وندم، وتردد؛ ومن ثم أجاب حموه:

– لا يا صديقي، فقد أصبح هذا المبلغ نهائيا ملْكا لكما، ولاسيما وأن لديكما ثلاثة أطفال.. ولقد رصدْنا باسم "**فيليسي**"– حين دخلتْ الدير– عشرين ألف فرنك، تستغل ريعها مدى الحياة. كما احتفظنا لـ"**مرجريت**" بصداق يعادل صداق "**جيرمين**".. وقد تسلمتْ من ريع هذا الصندوق ثمانية آلاف فرنك أعطتها لأخيها.

وحَسبَ "**ليون**" المبالغ التي حصل– وسيحصل– عليها "**موريس**"، ثم قال بصوت خافت وهو مقطب الجبين:

– مائة وثمانية الآف فرنك.. إنه لثمن غال! وكان ما يزال يجْهل المبالغ الصغيرة التي أقْرضتها أمه والمستشار الشيخ لـ"**موريس**"– في العام السابق– والتي احتسبتْ من الدّيون المعدومة!

وقالتْ "**مرجريت**":

– تصرَّف في صداقي يا أبي؛ فإنني لن أتزوج!

وهنا قالت الأرملة:

– إنما خلقت النساء للزواج.

ولكن "**مرجريت**" قالت في إصرار:

– إن لديّ مؤهلاتي الدراسية، وسوف أعمل.. سَأُنْشِئ مدرسة!

فقاطعها العم الشيخ:

– بالرغم من أن النساء لا يُورثْن إلا أنني سأحيد عن مبدئي هذا لصالح الفتاة.. وسَأُوصي لها بالأربعين ألف فرنك بعد وفاتي.

فقال "**ليون**"– الذي كان يقدّرُ خسارته– يُصحّح له الرقم:

– إنها ثلاثون ألفا.

ولكن الشيخ صاح وقد تخلّى في الضّائقة الْعَصيبة عن شُحّه وتقْتيره:

– لا، بل أربعون! لقد كذبتُ الآن عن غير قصد، وآخر قول هو أنها خمسة وأربعون ألفا.. سأُغيّر وصيتي يا "**فرانسوا**" لتصبح وريثي!

فقال السيد "**روكفيار**" متأثرا:

– إنني أشكرك نيابة عن "**مرجريت**" يا عمي، ولكنني لن أمسّ صداقها– الذي لا أراه كافيا لها– إلا إذا بات من المستحيل عليّ أن أبيع المزرعة بشروط مواتية؛ ذلك لأن بيع العقار– إذا تيسّر– خير من الاقتراض.. هذا ما استقر رأيي عليه، فإن غلة الأرض ضئيلة في هذه الأيام، وقد أصبحتْ كرومنا وقمحنا معرّضة لمنافسة شديدة من محْصولات الأماكن النائية– بفضل سهولة المواصلات– بحيث لم يعد في وُسْعنا أن نطمئن إلى دخلها، وإنني لأوثر أن أؤمن

مستقبل "**مرجريت**"، تاركا أولادي الذكور يكافحون في سبيل رزقهم. وإذا أنا لم أبعْ الأرض فإنها ستكون ذات نفْع دائما، كضمان للاقتراض.

وإذ ذاك قالت الأرملة مؤكدة:

– ونحن أيضا نضْمنك.

فأمَّن العم "**اتيين**" على ذلك قائلا:

– تماما!

✽✽✽✽✽

وانفرط بذلك عقْد مجْلس الأسرة، فحيّا الحضور بعضهم بعضا في صفاء ومودّة ما عدا "**ليون**" الذي أبدى بعض الفتور. وما لبث أن نبّه أمه– وهما يهْبطان السّلم– قائلا:

– إنّ الضّامن هو الغارم دائما.

فقالتْ في حرارة:

– فليكنْ.. سأدفع!

وإذ ذاك، قال ساخرا:

– أنت.. ما أعظم طيبة قلبك!

فأجابتْه:

– وأنتَ.. ما أجْحدك!

فقال مُبرّرا تصرفه:

إن ما حدث كان مع أبي، لا معي أنا.

فتساءلت في استنكار:

– أولست وأبوك سواء؟!

ولكنه أجاب في قحة:

– لا!

وقاد "**شارل**" السيد "**اتيين روكفيار**" في عودته إلى داره، وظلّ المحامي مع ابنته وحيديْن، وكان النهار قد بدا ينْصرم، وخيّم على الحصن وبرج المحفوظات ضباب كأنه معْطَف يلقيه الليل عليهما، ورانتْ على المكتب تلك الكآبة التي ترافق نهاية النهار في الشتاء، فغذتْ "**مرجريت**" المدفاة بقطعة من الوقود. وقال أبوها:

– إنني مُغْتَبط، فقد انتهى كل شيء على خير وجه.

وهنا قالتْ الفتاة محنقة:

– إن هذا الـ"**ليون**" شرير خبيث.. وإنني لأكرهه!

فقال أبوها:

- ولكن أمه طيبة القلب!

ولاذا بالصمت، ثم تأملا معا خريطة المزرعة المعلّقة على الجدار، وبدلا من أن يريا الورقة المعتمة تمثلتْ لأعينهما الكروم التي تَسْبُغ عليها الشمس السّاطعة لون الذهب، والحقول المحْصودة، والأرض المتأهّبة للحرث، والدار الكبيرة، العتيقة، المريحة.. كانتْ هذه الصورة هي الصّرْخة المدوية التي خالا أنها تنطلق من التراث الذي قُضي عليه بالضّياع!

وفعلا ما كان "**موريس**" قد فعله من قبل، حين أطلّ من أعلى هضبة "**كالفير دي ليمنك**" قبل رحيله- وإنْ صدرا في فعلهما عن نوع آخر من الحب، لم يَبْتَغيا من ورائه سعادتهما الشخصية- فقد ودّعا المزرعة!

٣- صفقة رابحة

لم يكن من ضجّة في "**شامبيري**" بأسْرها سوى تلك التي أثارتْها الصفقة الرابحة التي عقدها الأستاذ "**فرازن**".. وكانت هذه الصّفقة من الموضوعات العامة التي دار حولها الحديث في الحفلة السّاهرة التي أقامها السيد والسيدة "**ساسيناي**"، لمناسبة بلوغ ابنتهما "**جان**" عامها الثامن عشر. فقد كان من خصائص المجْتمع الريفي أنْ يصْطحب الرجال إلى المجتمعات ما يشغلهم ويهمهم من شؤون الحياة العامة والعمل، فلا يتخلّوْن في أوقات فراغهم ولهوهم عن المتاعب التي يعانونها؛ ومن ثمّ فإنهم لم يلبثوا- بين رقصتين من رقصات الفالس- أن تركوا السيدات يتنافسْن في إظهار أناقتهن، وتجمّعوا في كافة الأركان ليسْتأنفوا الحديث عن متاعبهم المالية، وشواغلهم المهنيّة. ثم تحوّلوا إلى المأساة العائلية التي هزَّتْ مكانة آل "**روكفيار**" الاجتماعية العريقة، والتي قد تُقَوّضها بعد يومين- وكانت الحفلة في ٤ كانون الأول (ديسمبر)- حين تعرض القضية على محكمة الجنايات، وكان الرأي العام مُتَحَمّسا.. فقد كان يَنْقم على هذه الأسرة: قوة نفوذها، وعراقة أصلها، وتفوّق مكانتها؛ ومن ثمّ استبدتْ به الرغبة في أن يراها تنحدر لتتساوَى مع غيرها.. ولقد أثارته بوجه خاص، تلك الكبرياء الصامدة، التي أبت- حتى في النوائب- أن تَئن وتشكو وتطلب العطف؛ ولهذا كان الرأي العام يرقُب نهاية المسرحية، كي يرى السقوط النهائي لسلالة كانت- فيما مضى- تُعْتبَر بمثابة زينة تزهو بها البلدة!

وكان بين المدعوين بعض رجال القانون والطب والصناعة، وبعض أصحاب الضياع، الذين انْتَحوْا جانبا في حجرة التدخين، فلم يكن يسعى منهم- في أول كل رقصة- إلى الشابات والفتيات الجالسات في قاعة الاستقبال سوى أفراد قلائل، كانوا لا يلبثون أن يغادروا القاعة وكأنهم غزاة مظفّرون ينفذون من مكان محاصر، ليعودوا إلى أماكنهم بين الرجال. ولم يكن بينهم سوى شخْص واحد يجْهل الصفقة الرابحة التي وُفق إليها الموثق، والتي كان البعض يؤاخذونه- والبعض يُقرونه- عليها.. أما ذاك "الجاهل" فهو الكونت "**ديلا مورتيلليري**"،

وكان عُذْرُه في ذلك أنه كان يعيش في القرن الرابع عشر، لانهماكه في دراسة تاريخ حصْن الدوقات. ولقد حاول عبثا أن يُحدِّث من كانوا حوله عن عبقرية "**اماديه الخامس**" الذي ابتكر- في سنة ١٣٢٨- أنابيب من الخشب تنقل المياه من عيْن "**سان مارتان**" إلى مطابخ الحصْن الواسعة، حيث كانت تلك الأنابيب تصبّ في حوْض ضخْم من الحجر، كان مستودعا تُربى فيه الأسماك لإعدادها لمائدة الدوق.. ولكن أحدا لم يُصْغ إلى ذلك الثرثار الذي كان يرجع إلى ما قبل عصره بستمائة سنة.

وكان السيد "**لاتاش**"، رئيس غرفة الموثّقين، يعارض- في تفلسف وتكلف ولجاجة كان يظنها تليق بكرامة مهنته ومكانته- الموثق الناشئ "**كولانج**" الذي بدا معطّرا- وقد نثر المساحيق على وجهه، وحرص على تجعيد شعره. والذي تَوَلَّى باسم "**مدرسة الشباب**"- أو باسم الناشئين- الدفاع عن السيد "**فرازن**"..

وراح السيد "**لاتاش**" يقول مُؤكّدا في وقار:

- لا، لا.. إن المجرم مواطن له حقوق المواطنين، وكان من الواجب انتظار حكم المحلّفين قبل قبول التّعويض عن الضرر المادي أو كان من الواجب على السيد "**فرازن**" أنْ يسْحب شكواه، بعد أن تقاضى التعويض، فلا يجْمع بين الكسْب والانتقام!

فبادر الموثق الشاب يقول وكأنه يتأهب للنزال:

- معذرة، عفوا.. لنتروّ من فضلك! لقد قدَّم السيد "**فرازن**" شكوى ضد "**موريس روكفيار**" بتهْمة أنه اختلس مبلغ مائة ألف فرنك للإضرار به، وادعى لنفسه بالحق المدني، فعرض عليه الأب- السيد "**روكفيار**"- أن يردَّ هذا المبلغ قبل النطق بالحكم. فكيف تلوم "**فرازن**" على قبوله المبلغ؟!

- لست ألومه على القبول، وإنما على مُضيِّه- برغم ذلك- في إجراءات الدعوى. كما أنني لا أفهم السيد "**روكفيار**"!

- آه! إنه يعلم أن ابنه مذنب، وهو يشتري بعمله عطف المحلّفين. أما فيما يتعلق بتصرف السيد "**فرازن**" فإنه- نظرا لأن الحكم بالإدانة أمر غير مؤكد في محاكم الجنايات دائما- قد آثر أن تكون لديه وسيلتان لبلوغ غايته. ومن ناحية أخرى، فإنه سيستغلّ دفع هذا المبلغ ليعتبره- في الجلسة- بمثابة اعتراف. وهي سياسة قوية جدا!

- بل إنها سياسة مُربحة، قبل كل شيء! أما السيد "**روكفيار**" فإنني ولو لم أكن أملك أن أشرح الدّوافع التي حملته على هذا التصرّف إلا أنه في الوقت ذاته- عظيم الحنْكة، بحيث إنه لا يُسلم سلاحا كهذا إلى خصْمه دون أن يتخذ احتياطاته. ولابد أن الإيصال الذي طلبه قد تضمَّن أنه وإن أدّى عن غيره التزاما إلا أنه لا يعترف أبداً بأن هذا الغير هو ابنه!

وهنا وصل المحامي "**بابيه**" فاشترك في النقاش دون أن يُضيِّع دقيقة واحدة، إذ قال:

- إن الإيصال يتضمن هذا التحفظ فعلا، وفي أدقّ صيغة قانونية!

فصاح السيد "**لاتاش**" مُظفَّرا:

– لقد استنتجْتُ ذلك. وكان الأحرى بالسيد "**فرازن**" أنْ يدع الأمر رهْنا بحكْم القضاة، بدلا من أنْ يقف موْقفا يتعارض مع توقيعه على مثل هذا التحفظ!

بيد أن السيد "**كولانج**" أبى التّسليم بالهزيمة، فصاح:

– وأي دليل يقوم عليه إيصال كهذا؟ أفهناك من يدفع مائة ألف فرنك عن شخْص مجهول؟

وأقرّ الحاضرون رأيه، وتمتموا معْربين عن تحبيذهم لهذا الرأي الذي كان يعْني أنّ مثل هذا الكرم لم يُقدّم في الواقع إلا بدافع ضرورة ملحة. على أن نجاح الشاب كان قصير العمر، إذ سرْعان ما أخفاه المحامي "**بابيه**" كما يُخْفي الساحر كرة صغيرة.. فقد كان مرحا، قصيرا، بدينا في تناسق، لا يُلمُّ بكل شيء، ولكنه يحشر نفسه في كل مكان، فيسيطر على الألباب. وقد قال إذ ذاك:

– أرى أنك تجهل الصّفقة الأكثر براعة، التي عقدها السيد "**فرازن**".

– هات ما عندك.

– آه! آه!

واسْتحوذ على اهتمام الحضور بالنبأ الذي يحمله، ثم انتهز فرصة شروع الفرقة الموسيقية في عزف إحدى المقطوعات الراقصة وترك في غير اكتراث مستمعيه المأخوذين، وأسرع – ككرة تتدحرج– إلى إحدى السيدات فدعاها للرقص. ولما لم يكن لدى أولئك السادة ما يصنعونه فقد راحوا– خلال مصْراعي الباب– يرْقبون الرَّاقصين، متظاهرين بعدم الاكتراث لما سمعوا، مصطنعين الإعجاب بالراقصين والراقصات الذين كانوا يتقدمون ثم يتأخرون ثم يتبادلون التحية، ثم يدورون حول أنفسهم، تبعا لأنغام الموسيقى، ونظام خطوات الرقصة. وكانت "**جان ساسيناي**" متورِّدة الخدين، وقد سوَّتْ شعرها بحيث بدا في فوضى متناسقة متعمّدة! وبدتْ أبهْى ما تكون رشَاقة ونَضارة، في ثوب أزْرق شاحب كشَف صدره عن "زاوية" ناصعة راح النّور يداعبها.. وانهمكتْ في الحفاوة بجميع المدعوين، وفي الإقبال على المرح واللهو، فأثارتْ بذلك تعليقات الكثيرين: "لا بأس بهذه الفتاة الصغيرة!".. ولكنها غاية في النحافة.. انظر إلى ردفها!".. "إنها لم تزل في الثامنة عشرة من عمرها".. "آه! ولكنها لن تلبثَ أنْ تتزوج عما قريب".. "ولماذا؟".. "لأن لها صداقا ضخما".. "هذا صحيح، ولكن شقيقها غارق في الديون".. "وممن تُرَاها ستتزوج؟".. لا أحد يدري بعد.. يُقَال إنه "**ريمون بيرسي**!".. "الخطيب السابق للآنسة "**روكفيار**"؟".. "إنه طبيب ناشئ".. "حقا.. لم يذبح أحداً بعد!".

وبعد الرقْصة الأخيرة أحسَّ المحامي "**بابيه**" بتعب، فقاد زميلته إلى المقْصف، حيث تناول قسطا من الشراب، وأكل شطيرة محشُوَّة بالكبد الدَّسم، وبذلك استرد نشاطه، فعاد إلى الظهور في الوسط الذي تركه يتقلب على جَمْر الفضول. ولكنه تفادى سخطهم بأن بادر ضاحكا:

- لن تعرفوا شيئا إذا وبَّختموني!

فصاحوا:

- ها نحن منصتون إليك!

وإذ ذاك قال يستأنف الحديث السابق:

- إنكم ما زلتم عند نقطة قيام السيد "**روكفيار**" بدفع مائة ألف فرنك إلى السيد "**فرازن**" . .

فقيل له:

- وإنها لنقطة مهمة!

ولكنه مضى قائلا:

- بل إنها أقل أهمية مما تُوشكُون أن تعرفوه!

وما إن انبعثتْ أنغام "**البولكا**" حتى أدار رأسه، فظنّ القوم أنه يعتزم أن يغادرهم مرة أخرى في غياهب حيرتهم؛ ومن ثمّ اتجه فريق منهم إلى الباب، وقرروا أن يسدّوا عليه الطريق. وقال له السيد "**لاتاش**" :

- إنك تتصبب عرقا، فليس من الحكمة أن تعود للرقص.

بينما عمد الموثق "**كولانج**" إلى حيلة أخرى، إذ أبدى تشكُّكًا في النبأ المنشود؛ وإذ ذاك بادر صاحب النبأ إلى فتح فمه، فترك صيده يطير:

- إليكم النبأ إذن: لقد استولى السيد "**فرازن**" دون مقابل على مزرعة البرْج، التي تساوي ما يقْرب من مائتي ألف فرنك!

وهنا تعالتْ صيْحات التكذيب والاستنكار:

- ما هذا القول؟" . . "إنك تسخر منّا!

وكان المحامي "**باستار**"، والسيد "**فاليروا**"- المدّعي العام- يتحدّثان على حدة، فاقتربا وقد أرهفا سمْعيهما . . بينما قال الخطيب:

- بل إنها الحقيقة . . دون مقابل!

وتعالى التساؤل.

- وكيف حدث ذلك؟

فأجاب:

- إليكم الأمر: لقد عرض السيد "**روكفيار**" الضيعة للبيع، في سبيل الحصول على المال اللازم، فعرض عليه السيد "**دودان**"- الموثق، والوسيط في الصّفقة- مائة ألف فرنك تُدفع فورا، على شريطة ألا يعْلن إليه اسم المشتري قبل اليوم الخامس عشر، واذكروا جيدا هذا الشرط . . اليوم الخامس عشر! ولما لم يكنْ لدى السيد "**روكفيار**" فرْصة للاختيار، قبْل انعقاد محْكمة الجنايات، فقد قبل. وما كان يرْجو خيرا في مثل تلك المدة القصيرة. وحدث- بفضل

ثرثرة أحد الكتبة- أن عرفت الآن، وتوا، أن المشتري الحقيقي هو السيد "**فرازن**" .. السيد "**فرازن**" الذي أنفق مائة ألف فرنك بإحدى يديه، ليقبضها باليد الأخرى، والذي يجد نفسه الآن بحيلة بسيطة مالكا بغير مقابل لضيعة فخمة!

وكانت هذه السياسة "**المكيافيلية**" تبزّ جميع الأساليب الاحتيالية التي تعودها أبناء المدن، فبُهت الحاضرون.. ولم يكلِّفْ أحدهم نفسه عناء البحث عن الحافز المعنوي، ولا عناء سبْر غور تضحية السيد "**روكفيار**" بهذا التراث العريق! وكان السيد "**فرازن**"- في المحنة الأليمة التي اجتازها، والتي هدمتْ بيته، إن لم تكن قد أودتْ بثروته كذلك- قد ركّز كل مشاعره في الأشياء التي ظلّتْ بمنأى عن التأثر، وهي أعماله، كالفنان الذي يستمدّ من فنه سَلْوى، أو المرأة التي تنشد في الإحسان عزاء.. وعلى هذا كان تدْبير العقود والأرقام يمدّه بمنفذ يهْرب خلاله من الأفكار المحْزنة؛ ومن ثمّ تناسى- لفترة- همومه بالانشغال بشؤون عملائه، وبالرضا الذي كان يسْتشْعره في إدارة معركة المصالح المادية، وقد أوحى إليه مصير ضيْعة البرج بواحدة من تلك الخطط البارعة الجريئة التي لم يكن يملك أنْ يصدّ نفْسه عنها، وكان يأمل في أنْ يظلّ السر مكتوما إلى ما بعد انعقاد محْكمة الجنايات، ولكن.. أيّ سرّ ذاك الذي يظلّ مكتوما في بلدة يقلّ عدد سكانها عن عشرين ألفا؛ ومن ثم يُعَدُّ كتمان الشؤون الداخلية فيها بمثابة بدْعة مكشوفة؟!

وكان السيد "**لاتاش**" هو أول من عبر عن مشاعره، إذ نطق بكلمات ثلاث كانتْ بمثابة خطاب كامل، لصُدورها عن رئيس غرفة الموثقين:

- عمل غير سليم!

فردّ السيد "**كولانج**" :

- كلا، مطلقا! هناك أرض معروضة للبيع، وقد اشتراها. وهذا حقه!

ومع ذلك، فإن المناورة الماكرة التي لجأ إليها السيد "**فرازن**" لم تلق سوى عدد قليل من التّحبيذات، انبعثتْ من معسكر الشبان الذين يوجهون اليوم تحمسهم- كما يوجهون أموالهم- نحو المشروعات المؤكدة الربح. ولقد لقيَ السيد "**فرازن**" نجاحا كبيرا في مشروعاته المادية، ولكن المتمَسّكين بالأخلاق وذوي الإدراك العملي من الحاضرين نقموا عليه هذا التصرف، لاسيما وأنهم لم يغْفلوا عن أنه جاء نتيجة فرار زوجته. وفوق هذا، فإن انتماء الرجل في الأصل إلى مقاطعة "**دوفينيه**" كان يُبْديه- في نظر خاصة المجتمع- أجنبيا، يثري بمثل هذه المكاسب على حساب بلدهم.. حقيقة أن أحدا لم ييأس لتَدهْوُر آل "**روكفيار**"- الذين كانت مكانتهم تُثير حفيظة الطبقة الوسطى- ولكن القوم بهتوا حين رأوْهم يُضَاعفُون بأنفسهم النكبة، ويسْحَقون بأيديهم ما تبقّى من أطلالهم.. إذ ما الذي يدْعو إلى التفريط في المال إذا لم يكن "**موريس**" مُذنبًا؟ فإذا كان مذنبا فما الداعي لتصرف يَنْطوي على اعتراف؟ ذلك لأن ما قرره الشاب كان أمرا مجهولا، إذ إن السيد "**هاميل**" كان شديد التكتم، كما أن السيد "**باستار**" كان يَلْتَزم في صَمْته خطة مرسومة: فقد كان تَوّاقا إلى القضايا ذات الضجيج المدوي،

وكان مايزال يرجو أن يطلب عونه في هذه القضية بالذات.

على أنه لم يستطع أن يَكْبحَ نفسه عن الكلام طويلا لفرط الانفعال.. وكانت الحلقة التي دار فيها الحديث قد انفضَّتْ نظرا لوصول مدْعُوِّين جدد، واستؤنف الموضوع في جماعات صغيرة تناثرتْ هنا وهناك، كالنار يذكو لهيبها قبل أن تُخمَد نهائيا. وانضم المدعي العام "**فاليروا**" إلى السيد "**باستار**" في ركن منعزل، وبادره قائلا:

– ها هي ذي مفاجأة بارعة تستغلها في مرافعتك، لتمْطِر زوج السيدة "**فرازن**" بلذعاتك الساخرة!

فقال المحامي:

– ليس من المؤكد بعد أنني سأترافع.

فتساءل الآخر في دهشة:

– كيف؟ ألن تترافع؟

ومن ثم لم يجد المحامي بُدّا من إيضاح الأمر. فأفشى السرّ دون أن ينتبه، إذ قال:

– إن هذا الشاب الغبي يأبى أي دفاع جِدّي، خشية المساس بشرف عشيقته!

وفاه بالكلمات الأخيرة في سخْرية وازدراء، ثم راح يشرح لرجل القضاء المرهف السمع، كيف كان المتهم يرفض مُقدّما كل إشارة تُدِين السيدة "**فرازن**".

– إذا لم تكن أنت، فمن الذي سيترافع؟

– ما زلت أجهله، إنه السيد "**هاميل**" ولابُدَّ.

ولم يخُص النقيب باحترام يزيد على ذلك الذي خصّ به السيدة "**فرازن**"؛ إذ فضفض عن رأيه في شيخوخة النقيب وعجزه بالازدراء الذي ذكر به اسمه! وبعد لحظات من الصمت قال السيد "**فاليروا**":

– إنني أفهم الآن تصرف السيد "**روكفيار**"، فهو يُلْغي السرقة لينقذ ابنه! هذه فرصته الأخيرة؛ ومن ثمّ لم يتردد في التضحية بثروته. هذا بديع جدا!

ولم يسْتسغ السيد "**باستار**" هذا الإطراء، فندتْ عنه إشارة غامضة تحتمل شتّى التأويلات، ثم قال مسْتدركا إفشاءه سِرّ مهنته:

– هذا سرّ بيننا!

واتّجه صوْب فريق من السيدات، وقد استقرتْ لحيته الأنيقة على صدْره، وسار في بطء وجلال كأنه طاووس يتأهب لأن يبسط ريشه. وبَقي رجل القضاء وحيدا فلم يحاول أن ينشُد لنفسه رفاقا، بل واصل التفكير في السيد "**روكفيار**" بإعجاب، وأخذ يسْتَعْرضُ حياة هذا الرجل التي أُفْعَمتْ بالآلام والبسالة. فمنذ اليوم الذي رفع فيه "**فرازن**" شكواه لم يظهر "**روكفيار**" سوى إنكار المصلحة المادية، والاعتزاز بالنفس، والاستعداد للتضحية. وراح السيد "**فاليروا**" يُسائل نفسه:

– لماذا لا يفْهم شخصيته العظيمة هنا سواي؟ إنّ أي فرد من الحاضرين لا يسمو إلى مواطئ

قدميه، ومع ذلك فقد كان هؤلاء السادة منذ لحظات يترفَّعُون في حديثهم عنه، وكانَ النّحس قد حطّ من قَدره وهوى بمكانته! إن الريف لحاسد حقود!

وفي هذه الحدود البسيطة، كانت المأساة مؤثّرة، وداعية للعجب: كان الشاب "**موريس**" يُجرد الأسرة من كرامتها، بمثوله أعزل أمام المحلفين؛ ومن ثمّ تخلّى أبوه عن الضيعة العريقة بثمن بخس ليتغلب على الابن الضال. ولكن.. إذا كان محامي المتهم مضطرا إلى أن يغلق فمه فإن ثمة صوتا أعلى، وأكثر سلطانا من صوته- لأنه يصدر عن سلطة عليا- يستطيع أن يدوي في الآذان بدلا من ذاك الصوت.. أفليس من حق المدعي العام أن يعْرض القضية من ناحيته، بعد أن يتكلّم المدعي بالحقّ المدني؟ وبدلا من أنْ يقيم "العدالة" بالطريقة المتعارف عليها في مثل هذه القضايا- التي تمتاز بأنها خاصة أكثر مما هي عامة- أليس من واجبه أن يتدخل تدخّلا فعالا في كشف الدور المشؤوم.. الدور الأعظم تأثيرا.. الدور الفريد الذي قامتْ به السيدة "**فرازن**"؛ إذ كانت الوحيدة القادرة على إساءة اسْتغلال الثّقة، دون أن تُدَان لهذا السبب؟! ما أرْوعها من فرصة لخدمة العدالة، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإدخال شيء من الفرح على تلك النفس التي حُرِمَتْ منه!

تتابعتْ كل هذه الخواطر على رأس السيد "**فاليروا**" ولكنه كان عاجزا: فقد كان يجْلس في مقْعد المدّعي العام- في محكمة الجنايات- محام عام، وليس هو؛ ومن ثمّ لم تعد قضية "**موريس روكفيار**" من اخْتصاصه. فضلا عن أنه قد تعرّض للوم بسبب الخطوة الغريبة التي اتخذها إزاء الموثق في العام الماضي، والتي لم يقدر لها أن تظلّ في طي الكتمان طويلا. وما الجدوى في أن يُقْحم نفسه في قضية لم تعد من اختصاصه، ولن تجرّ عليه سوى العناء؟ يجب أن يقنع بإبداء العطف السلبي من أجل راحة باله وطمأنينته! وأسرع يختلط بالمدعوين حتى لا يسترسل في التفكير، ولا يقدّر أنانيته. وداخلته السعادة حين شعر بالناس حوله.. ففي وجود بني جنسنا عزاء وتسْرية لنا حين نحاول أن نقيس مدى ضآلة شأننا.. ولكن- من ناحية أخرى- لا يَقْدمُ على هذه المحاولة سوى خير الناس!

*****

وأثار التردد على المقصف حركة رائحة غادية في قاعتي الاستقبال وفي البهو وقاعة المائدة، انتهزها الشبان ليحُومُوا حول الفتيات، وكان بين الفتيات من استهواهن الرقص فرُحْن يطالبن الفرقة الموسيقية بالعزف، ومن أظهرن سعادة في تقبل بعض المغازلات البسيطة، لتَرْويض أزْواجهن، بيْد أنّ بعضهن- وكن فئة ضئيلة- لم يأبهن بإلقاء نظرة سريعة للتأكد من وجود أو غياب خاتم الزواج في الأيدي اليسرى للرجال، قبل أنْ يسْتجبْن لمغازلاتهم في تحبيذ مستتر! وكانت عيون الشباب المنتشي تتألّق بوميض الابتهاج كما تتلألأ المجوهرات التي كانت تزيّن الشعور والصدور والأذرع والأصابع.. وكانت الوجوه المزدانة بالمساحيق تبرز بين ثياب السهرة السوداء، في خطوط واضحة كأنها الألوان المائية!

فإلى أية طبقة منهن كانت تنتمي الآنسة "**جان ساسيناي**"، التي تخلّت تماما عن ذراع "**ريمون بيرسي**"- الذي كان في العام السالف خطيبا للآنسة "**روكفيار**"- حين تبعتْها عين أمها اليقظة في قلق، وفي شيء من الدهشة؟ تُرَى هل كان رأسها الصغير، المتناسق، الشبيه برؤوس التماثيل الإغريقية- التي تبدو لنا رشيقة وأخّاذة وهي تَسْتَوي فوق أكتاف حجرية- هل كان رأسها هذا ضيق العقل إلى درجة لم تمكنه من أنْ يرْعى ذكرى صديقتها التي هجرها ذلك الشاب؟ أو لم تكن نظراتها الصافية، المنبعثة من عينين في زرقة السماء ونضارة الربيع، تنمُّ في قرارتها عن استخفاف وعدم اكتراث؟ وكانت الدماء تجري في وجنتيها، نتيجة الحركة التي بذلتها في الرقص ولكنها لم تكن تبتسم، بل كانت عابسة، تكزّ على شفتيها، وكأنما اتخذت قرارا جادا لا يتلاءم مع روح الطفولة الجميلة..

وقال لها الشاب:

- إنني لم أرقص معك بعد، فهل تُؤْثرينني بإحدى رقصات الفالس؟

فأجابته في جفاء بعد أن اطمأنتْ إلى أنّهما ليسا وحيدين:

- لا.

فهتف يسْألها:

- ولم لا؟ هل جميع رقصاتك "الفالس" محْجوزة.

وكان جوابها :

- ليست كلها.

ولم يحمل رفضها على محْمل الجد، بل إنه طفق يضحك بدلا من أن يَعْبس، وقال:

- لقد نبهتني. فشكرا!

فأرسلتْ زفرة متعبة، كتلك التي يُصْدِرُها العمال وهم يرفعون حمْلا ثقيلا، ثم اندفعتْ فجأة قائلة:

- الواقع أن من واجبي أن أنبئك يا سيدي: لقد تحدَّثتْ أمك إلى أمي، وأمي لا تُخْفي عني سرّا، وحتى الذي تكتمه، لا ألبث أن أحدسه.. فهل أدركت؟ أبداً- وأرجو أن تُصيخ السمع- أبداً لن أتزوجك!

فهتف الشاب مبهوتا:

- عفوا يا آنسة، فانا لم أطلب يدك.

- لقد استكشفتْ أمك الميدان.. "جسَّتْ النبض" كما يقولون!

- إن الأمهات يرْسمْن كثيرا من المشْروعات لأبنائهن.. ومع ما في هذا المشروع من شرف لي إلا أنه لا يتّفق مع نياتي.

- أوه! هذا أفضل!

- إنني لا أفكر في الزواج.

وبُهت عندما أجابت:

- إنك لمخطئ!

فقد بدا هذا التأنيب غريبا، موجعا، وهو يصدر من ذلك الفم الرقيق.

واستطردت الفتاة:

- عندما يُتَاح لامرئ حظ معرفة فتاة مثل "**مرجريت روكفيار**" في حياته فجدير به ألا يهدم بنفسه سعادة كهذه!

وكان هذا هدفها. ولقد أدْرك الشاب ذلك، وكان بوسعها أن تدرك مدى الضربة التي وجّهتها إليه من التطور الذي ألمّ بأسارير وجهه لولا أن العينيْن في مثل سنها الغضّة لا تكونان قد اكْتسبتا بعد القدْرة على تتبع مظاهر انفعالاتنا الداخلية! كذلك كانت تنقصها القدرة على الاعتدال في الانسياق لتَحمُّسِ الصبايا المتحررات، إذ استطردتْ تقول:

- من القبيح دائما يا سيدي أن يتخلّى الشاب عن خطيبته، لاسيما حين تكون في ظروف تَعسة.. هذا أمر لا يُطَاق!

بأيِّ حق سمحتْ لنفسها بأن تؤنبه بهذه القسوة؟ واغتاظ "**ريمون بيرسي**"، لاسيما وأنه كان يستشعر في قرارة نفسه سرورا مشوبا بالمرارة عندما يسمع حديثا عن "**مرجريت**". وانصب غيظه ومرارته في رده؛ إذ قال:

- إنني لم أُنصّبك حكما يا آنسة. وإذا كنت تتكلمين بلسان فتاة أخرى فإنني أجيبك بـ...

ولكنها قاطعته قائلة:

- لستُ أتحدث بلسان أحد.

- إذن فما أبعد معلوماتك عن الحقيقة.. فما أنا بالذي فسخ خطبة كانت عزيزة عليّ!

- كانت عزيزة عليك؟! أجل. هكذا أنتم أيها الرجال: تَحْضُرون إذا أشرقت الشمس، حتى إذا أمْطرتْ السماء، لا يبْقى منكم أثرا!

- ولكنك جدُّ ظالمة.. وإني لأوشك أن أفقد صبري.

وبدلا من أن تسكت ظلت تَطِنُّ كالزنبار الذي يبحث عن شخص يلدغه:

- لا يَغْضَب سوى المخطئ!

فقال:

- ليس هناك ما أؤدِّي حسابا عنه أمامك يا آنسة، فاعلمي أن الآنسة "**روكفيار**" هي التي فَسختْ الخطبة.

فقالت معقبة:

- بدافع من الشهامة.

ولكنه أجاب:

- إنها لم تعبأ بقلبي، ولا اكترثتْ لآلامي.

فاشتدّ احتقان وجهها، ولم تَعُد تتمالك نفسها، فقالتْ تستنكر عمله في عنف:

– في مثل هذه الظروف ما كان يَنْبَغي أن تقبل القطيعة.

ولم يعد بدوره قادرا على الهدوء، فقال:

– وإذا أُدين أخوها؟

– هذا أدعى وأكرم.

– آه! أحقا يا آنسة؟

– أجل، إنه لحق. فأنا إذا أحببت، فلن يتغير حبي بذهاب خطيبي إلى السجن. بل إنني أتبعه إلى هناك! أتسمعني يا سيدي؟ ولو اسْتدْعى لحاقي به أنْ أرتكب جريمة، فإنني أرتكبها.. في الحال. ودون تردّد؟

فقال:

– إنك لطفلة!

ثم غيَّر من لهجته فجأة، وتمتم معْترفا بصوت أجشّ:

– أو تظنين أنني غير آسف عليها؟

وإذ تبدّل بهذه السرعة، استخفّها الانتصار حتى كادت تُلقي بنفسها على صدره، وإذا بالسيدة "**ساسيناي**" تقترب وقد رابتها هذه الحركة وهي تَرْقُبها عن بعد. وقالت "**جان**":

– آه! كنت مُوقنة يا سيدي من أنه ليس في وسعك أن ترغب في الزواج مني.. إذن، فاسْرعْ. أسرع وأخْطر "**مرجريت**"، واضْرَع إليها باسمي أنا الأخرى؛ كي تصفح عنك. واسْتعد بسرعة مكانك في الأسرة قبل القضية، وإلا فسوف يفوتك القطار إن هذا أفضل من كل ما تعالج به مرضاك من أنواع العقاقير السيئة!

– شكرا.

– اذْهَبْ في الحال.

– ولكن الساعة بلغت الحادية عشرة والنصف.

فهتفت:

– إذن فاذْهَبْ غدا.

وكانت السيدة "**ساسيناي**" في طريقها إلى ابنتها فاستوقفها فريق احتدم بين أفراده النقاش، وأخذ يزداد حدّة بين لحظة وأخرى: كان السيد "**فاليروا**" يسأل شابا في زيّ عسكري يَنمُّ عن أنه من هيئة أركان الحرب:

– أواثق أنت؟

فأجاب الضابط:

– كل الثقة. لقد نَمَى الخبر إلى الفرقة في الساعة السادسة، وقد ذهب الجنرال بنفسه لزيارة السيد "**روكفيار**".

فهتف السيد "**كولانج**" وقد أدهشته- وأثارتْ مشاعره- خطوة رسمية كهذه، نحو رجل تكأكأتْ عليه المحن:

- بنفسه؟

وسألتْ السيدة "**ساسيناي**" أقرب شخص بجوارها، وكان السيد "**لاتاش**":

- عمّ يتحدثون؟

فأجابها:

- عن موت الملازم "**روكفيار**" يا سيدتي. فقد توفي بالحمَّى الصفراء، في "**السودان**".

فتمتمتْ وقد طغتْ عليها الشفقة:

- يا لهم من تعساء!

وقال السيد "**لاتاش**" مؤمنا:

- أليسوا كذلك يا سيدتي؟

كان هذا المصاب الفادح سببا في أن اكتسب آل "**روكفيار**" عطف النساء، وفي تحَطْيم روح العداء لدى الرجال، بعد أن كان القوم يُؤيِّدون انهيار الأسرة المادي والأدبي بنفوس راضية. لقد أرادوا لها الهوان، فأجابهم القدر، ولاحقها بالنوائب في غير ما تردّد ولا هَوادة! وران الصّمْت على أنصار السيد "**فرازن**" وصفقته الرابحة.. وعبّر المدّعي العام عن شعور القوم بقوله:

- يا للمسكين!

واختفتْ "**جان ساسيناي**" بعد هذا اللغط، فبحثتْ عنها أمها في المسكن دون جدوى، حتى إذا لمحتْ "**ريمون بيرسي**" في الرَّدْهة وهو يرتدي معطفه في عجلة سألته:

- أترْحل مبكرا يا سيدي؟

فأجاب دون أن يحاول تبرير هذا الانصراف المفاجئ:

- أجل يا سيدتي.

وأدركتْ ما كان يَجْثُم على صدر الشاب، فربطتْ بين هذا وبين اختفاء ابنتها، وبدأ القلق يساورها بشدة! ثم سألتْ زوجها الذي صادفته عند مدخل قاعتي الاستقبال:

- ألم تر "**جان**"؟

فأجابها:

- نعم لم أرها.. أفتبحثين عنها؟

وكان السيد "**ساسيناي**" رجلا مجتهدا، صريحا، وفيًّا، ولكنه مُجَرّد من القدرة على تفهّم العوامل النفسية.. فكان في وسعه أن يتغلّب على أعظم العقبات المادية، ولكنه كان عاجزا عن أن يعني بتحليل العواطف؛ ومن ثَمّ لم تر زوجته جدوى من مصارحته بهواجسها واكتفتْ بأن سألته أن يعني بضيوفهما بينما اتجهت هي مباشرة إلى غرفة مخدع ابنتها، فما إن ولجتها وأدارتْ زر المصباح الكهربائي حتى ألفت ابنتها غائصة في أحد المقاعد، وقد انحنتْ على

نفسها، وانخرطت في البكاء، غير مُكْتَرِثة لما قد يصيب ثوبها من تجعّد. وبادرتْ تسالها وهي تربت ظهرها:

– "**جان**".. ماذا بك؟

فهتفتْ الفتاة:

– أماه!

وكانت الصّرخة أشبه بشكوى طفلة هدأ روعها في الحال. فسألتها أمها:

– لماذا تبكين؟

– إنما خطرتْ لي أحزان "**مرجريت**"، بينما أرْقُص أنا لاهية!

وتنهدت السيدة "**ساسيناي**"؛ إذ كانت تدرك الودّ العظيم الذي تكنه ابنتها للآنسة "**روكفيار**"، وما لبثتْ أن سالتها حين وجدتها لا تكفّ عن البكاء:

– أو تذكرين الملازم "**هوبير**"؟

فأجابتْ الفتاة:

– أَجَلْ، كان ظريفا.. ولكنَّا كُنَّا نتخاصم في ساحة التنس؛ إذ كان دائما مُتفوِّقا.

ولكن هذا لم يكن مبْعث أسى الفتاة؛ إذ استطردتْ دون تمهيد:

– مسكينة "**مرجريت**"! إنني أفضّل "**موريس**" السّجين على "**هوبير**"! لسوف تبرأ ساحته. أليس كذلك؟

فأجابتْ الأم:

– آمل يا عزيزتي.

وإذ ذاك قالت الفتاة:

– بريء يُبْرِئُ القضاء ساحته، ويَدِينه الناس! إنه لأمر عجيب، أليس كذلك يا أماه؟

فتساءلتْ السيدة "**ساسيناي**":

– أواثقة أنت بأنه بريء؟

فهتفتْ الفتاة لفورها:

– وكيف لا وهو شقيق "**مرجريت**"؟

وابتسمت السيدة لهذه الفورة، ولهذه الثقة التي تعمَّدتْ أن تَسْتثيرَها. وتذكَّرتْ وهي تُسَرّي عن ابنتها حديثا دار منذ أمد بعيد بينها وبين السيدة "**روكفيار**" حول أولادهما. فقد قالتْ المرأة التقية وقتئذ:

– قد يَحين يوم أطلب فيه يد ابنتك لـ"**موريس**"، إذا أثبت جدارة؛ وبذلك تبقى الطفلة بالقرب منك!

ومع أن "**موريس**" لم يُثْبتْ جدارة، إلا أنه ظلّ يحتلّ في قلب الصّبية النبيلة مكانته السّالفة. وهنا موطن الخطر، فلابد من الحذر. وبينما اعْتَزَمتْ الأم أنْ تعني بذلك راحتْ تفكر

بالرغم منها في بقية آل "**روكفيار**"، الأموات منهم والأحياء الأفاضل منهم والمبتلين بالمحن!

وكان ضَجيجُ الموسيقى يصل واهنا إلى الحجرة، فقالت الأم:

- خَفِّفي عنك يا صغيرتي برفق، وانثري بعض "البودرة" على وجهك. حسنا. إنك الليلة جميلة! والآن لنعد إلى القاعة سريعا، وإلا لاحظ القوم غيابنا.

فقالت الفتاة:

- أَصَبْت يا أماه، وقد وعدتُ بالاشتراك في هذه الرقصة.

واستردَّتْ جأشها لفورها، ثم تقدمتْ أمها في الرَّدهة.

*****

وفي تلك الساعة، كان "**ريمون بيرسي**"، الذي أفجعتْه وفاة صديقه "**هوبير**"، يذْرع الطريق أمام دار آل "**روكفيار**"، وكانت سقوف الحصن المكسوة بالثلج تلمع تحت ضوء النجوم ببريق كئيب، وبَدَا برج المحفوظات وقمة برج الكنيسة كحارسين ساهرين على البلدة الهاجعة، وكان ثمة ضوء خافت يتسلّلُ خلال مصاريع نوافذ غرفة المكتب الأربع، التي كان الشاب يعرفها جيدا. هناك كانت "**مرجريت**" تجلس مع أبيها، يتألمان معا، وقد أصابتْ قلبيهما طعنة جديدة!

وتملَّكَت الشاب رغبة في الصعود ولكنه لم يجد الجُرْأة. كان فَسْخ الخطبة، والنفور الذي أبداه أهله والرأي العام، وظلمات الأنانية الجائمة.. كانت هذه كلها ما تزال تحول بينه وبينهما. ولكنه- في تلك الليلة القارسة، وخلال هذه الجولة- أحسّ بحقيقة عواطفه، وبأن الألم والإشفاق يُنميان الحب أكثر مما يُنمِّيه الفرح!

٤- الأرض الملهمة

كان لابد من قرار. ولكن السيد "**روكفيار**" كان يرْزح منذ الأمس تحت ثقل مصابه في ابنه.. المصاب الذي نَمى إليه بإخطار رسمي مُقْتضب، قيل فيه: إنه مات في خدمة الوطن، بعيدا عن كل إسعاف، في أحد المراكز الأمامية! بل إن الأب الثاكل لم يجد في هذا العزاء السامي ما يُخَفِّف لوعته. لقد رحل "**هوبير**" إلى المستعمرات سعيا وراء المخاطر؛ ليرفع الاسم الذي أُهين، فكان بذلك آخر قربان للتكفير عن خطأ "**موريس**" الذي نسي الأسرة، وكان "**موريس**" يوشك أن يمثل أمام محكمة الجنايات، في اليوم التالي، وما فتئ الجدل دائرا حول المصاعب التي تكتنف الدفاع عنه، ولا شك في أن تضحية تراث الأسرة لم يكن عبثا، كما أنه لا شك في أن إصلاح الضرر الذي وقع يجعل الحكم بالبراءة جد محتمل، إن لم يكن مؤكدا، ويقلب ميزان الحظّ في مصلحة المتهم. ولكن هذه البراءة بالذات ما كان ينبغي أن تُنتزَع بدافع من التسامح أو من الشفقة. بل كان لابد للشاب أن يغادر دار القضاء مُطَهرا من كل شبهة تمسّ

سمعته، مبرّأ من كل ذنب ضد القانون أو ضدّ الشرف؛ لكي يعود إلى احتلال مكانه في البيت، وفي المدينة، وفي مقاعد المحامي، ولكي يسْتأنف نفس تقاليد الأسرة، وينقلها بدوره إلى ذريته.. ولكن كيف السبيل إلى ذلك دون ذكْر اسم السيدة "**فرازن**"؟ حقيقة أنّ السيد "**باستار**" قال له- بعد بيع ضيعته:

- إن هذه القضية تكلفك أكثر مما تستحق ولكن هذا السخاء سينتزع عطف المحلفين، فإن هؤلاء القوم الذين يقيمون الدنيا من أجل بيضة، ويقتلون من أجل شجرة كمثرى، سيجأرون كالبقر عندما يعلمون أنك بعت أرضك لردّ دَيْن الفريسة، ولكنهم كذلك قادرون على أن يصدروا الحكم بالإدانة، إذا انتبهوا إلى المثل السيئ الذي تضربه، وإذا تكشّفَتْ صفقة السيد "**فرازن**" للمحكمة كحجّة نهائية، في أسلوب متعمّد لإثارتهم ودفعهم إلى غَيْرَة جامحة في صالحنا!

كان لا يقيم كثير وزن للعدالة والإنسانية، وإنما كان يَدْرُس ملف القضية، ويهبُ هذه الدراسة كل نفسه، وكان- بصيته الذائع- يَفْرض تأثيره فرضا، وكان المقرر أن يزور السيد "**روكفيار**" في الساعة الخامسة؛ ليتفق معه ومع السيد "**هاميل**" على الخطوط الرئيسية للمرافعة، للمرة الأخيرة. إلا أن والد "**موريس**" لم يكن يثق بالأسلوب المسرحي، وبفن إثارة الرِّيب، لكسب قضية أسرته.

وبعد الغداء الذي لم يكد السيد "**روكفيار**" وابنته يمسَّاه، نهض الشيخ متأهبا للخروج.. فقد كانت أحزانه تثقل عليه وهو بين جدران البيت. ولكنه كان يجد القدرة على التفكير في الخارج؛ إذ كان الهواء يُنْعش أفكاره، وقواه المستنزفة، ونَشَاطه المتدَاعِي. وما إن بلغ الباب حتى نادته "**مرجريت**":

- أبت!

فالتفت إليها في دَعَة؛ إذ كانتْ منذ وفاة زوجته- بل وقبلها- موطن سرِّه ومشورته، وأَعْظَم مَصْدَر للترفيه في حياته، وكان رحيل "**جوليان**" الصغير- إذ اصطحَبه "**شارل مارسيلاز**" إلى "**ليون**" غداة اجتماع مجلس الأسرة- قد خلفهما وحيدين، وجها لوجه، في البيت الذي كان يخْلُو من أهله رويدا! وكانا قد قضيا الليلة السالفة معا حتى الصباح تقريبا. يتحدَّثان عن "**هوبير**" ويبكيانه ويُصلّيان..

وعندما اقتربت الفتاة من أبيها رفع يده في بطء إلى شعرها الجميل؛ فأدركتْ أنه يباركها، وإن لم يتكلّم. واغْروْرقتْ عيناها بسرعة، وقد ألفَتا الدموع، ثم بكتْ من جديد، وقالتْ:

- أبت.. ما الذي قرَّرت بشأن "**موريس**"؟

فأجابها:

- لقد اسْتَعَدّ "**باستار**" للدفاع عنه، وسيحضر مع السيد "**هاميل**" في الساعة الخامسة؛ لذلك، فَسأعدُّ إرشاداتي الأخيرة في الهواء الطلق.

فسألته:

– هل أنت بحاجة إلى أن أَصْحَبك؟

وأجابها متلطفا:

– لا يا صغيرتي. لا تَقْلقي عليَّ، بل إنني سأفكّر أثناء المشي؛ إذ لا وقت لدينا كي نكفّن موتانا.. فإن الأحياء ينادوننا!

وإذ ذاك غَمْغمتْ الفتاة:

– إذن، فسأذهب إلى السجن.

فقال:

– أجل، وأَفْضي إليه بالمصاب!

– يا لـ"**موريس**" من مسكين! لكم سيتألّم!

ولكن الأب قال:

– إن ألمه أقلُ من ألمنا.

فهتفت الفتاة:

– أوه! لا يا أبت، إنه مثل ألمنا، بل أكثر! لسوف يُنْحِي على نفسه بالتأنيب.

فقال:

– جدير به أن يفعل، فما رحل "**هوبير**" إلا بسببه.

وأمّنتْ الفتاة على قوله:

– هذا حق يا أبي. إننا نبكي دون أن نُؤَنِّب أنفسنا. ألا أُنَبئه بشيء نيابة عنك؟

فأجاب:

– لا، لا شيء.

ولكنها هتفتْ:

– أبت..

فبادر قائلا:

– قولي له.. قولي له: إن عليه أن يتذكر أنه آخر سلالة "**روكفيار**"!

وخرج، فجاوز الحصن، وصار في الخلاء، وكان اليوم من أيام الشتاء الجميلة، وقد تألقتْ أشعة الشمس على صفحة الجليد، فسار– وهو شارد البال– في طريق "**ليون**" التي تُفْضي إلى الضيعة، والتي كان يسلكها في رياضته عادة. وكانت الطريق تخترق حي "**كونيان**"، حتى إذا جاوزت مصانع قطع الأخشاب عند قنطرة "**سان شارل**"، اتصلتْ– بين تلال "**فيمين**" و"**سان كاسان**" المحيطة بجبلي "**ليبين**" و"**كوربيليه**"– بطريق طويلة تمتد حتى نهاية ممر "**إيشيل**"، وما إن بلغ السيد "**روكفيار**" هذا المكان– وهو مُسْتغْرق في أفكاره– حتى عرج يسارا، وسلك الطريق الزراعية المفضية إلى مزرعته القديمة. واجتاز القنطرة العتيقة القائمة على نهر "**ألايير**" ذلك الخيط الرفيع من الماء، الذي كان يجري بين ضفّتين من الجليد، والذي كانت أشجار

الصفصاف- العارية من أوراقها- لا تُخْفي مجراه. وبعد دورة صغيرة، أَلْفى نفسه عند مُنْعرَج مقفر من السهل، تطبق عليه سفوح "**مونتانيول**" التي كانت تشرئب بقمتها نحو السماء. ولم يشعر بوحشة، وإنما انطلق يسير ببطء متخففا من أحزانه. ألم يَكُنْ في موطنه، تحيط به أراضيه؟ ألم تكن تلك الأرض هي التي اعتادتْ أن تُسَري عنه بصداقتها القديمة الوثيقة، وبذكريات الطفولة التي كانت تحتفظ برونقها، وبكل الماضي الإنساني الذي كان يعزو إليه- بعد الطبيعة- تكوينه؟ وإلى اليسار: الكروم المثقلة بالعناقيد، لا يميز منها غير جذوعها المحزومة بالأسلاك الحديدية.. تلك الكروم التي جنى ثمارها في الخريف الماضي فقط.. وإلى اليمين: هذا الجدول الذي كان يُعتبر الحد الفاصل بين مقاطعتين متجاورتين، وهذا التل الذي كان مُقْفرا، لا تقوم عليه سوى شجرة واحدة، والذي زرعه بعد ذلك بأشجار الزان والبلوط التي ابتاعها بما ادّخر من مال، وحرص على تشْذيبها لتحيط بأراضيه، وعند نهاية الطريق الصّاعد وصل إلى الدار التي أصلحها، والتي كان قدمها شاهدا على عراقة الأسرة، وحسن ذوقها، وقوة أخلاقها. من هنا كان ينْفُذ إلى المزرعة، ويلاطف الأطفال، ويشرب كأسا من الشراب، الذي كان يقطِّره بنفسه مع المرأة التي تُقيم بالمزرعة، والتي لم تكن تخشى تأثير الكحول.. ثم كان يعانق بنظره الشاسع الذي كانت المرتفعات والسهول الخصبة والبحيرة البعيدة تؤلف معالمه الراسخة، الملهمة.. ثم يرتدّ إلى أفق المزرعة الأضيق نطاقا، فيلم بما فيها من نباتات متباينة.

هكذا أخذ يسير ساهما على التربة التي أَلفَ السير عليها، وبنفس الخُطَى النشيطة التي كان يسير بها في الماضي، حين كان يشعر بقوة الشباب تعاوده برغم تقدمه في السن.. ذاك لأنه كان سعيدا، مُحَاطا من كل جانب بمن يحبه ويشد أزرَه! على أنه ما لبث أن توقف فجأة؛ إذ خطر له فجأة خاطر:

- إنني لم أَعُدْ في ممتلكاتي، فقد بيعتْ المزرعة، ولم يعد آل "**روكفيار**" هم سادة المكان. فما الذي جئت أفعله؟ لنرْحل من هنا.

وعاد أدراجه منكّس الرأس، كشريد فوجئ في حديقة خاصة. ووقف عند الجدول الذي كان يفصل بين "**كونيان**" و"**سان كاسان**"، فاجتازه ووجد نفسه إذ ذاك على بقعة من الأرض تتصل بالمزرعة- من حيث الاستثمار- وإن لم يتضمنها عقد البيع، فهي بذلك كل ما تبقّى له من أملاك!

وتوقّف عند أسفل المنحدر لحظة ليستْردَّ أنفاسه- كجيش عثَر على ملاذ وهو يتقهقر- ثم شرَع يتسلّق التل في شيء من العناء؛ إذ كانت قدماه تنزلقان فيضطرُّ إلى غرْس عصاه في الأرض ليحْتَفظَ بتوازنه، ولما كانت الطريق مهجورة فإنها صارت مسدودة تماما؛ ولذلك، اتجه صوب الشجرة الوحيدة القائمة على رأس التل.. وكانت من أشجار البلوط القديمة، تركت فلم تُجْتَث: لا احتراما لقدمها، ولا لجمال فروعها الباسقة وقوامها السّامق، وإنما؛ لأن التلف بدأ يدبُّ فيها، مما هبط بثمنها، فلم يكن ثمة ربح يُرْتَجَى من وراء قَطْعها وبَيْعها. وكانت أوراقها

القوية الكثيفة ملتوية- وكأنها تستجمع قواها لتُحْسن الدفاع عن نفسها- وقد بقيت متشبثة بالأغصان التي كانت تظهر خلال الصقيع- هنا وهناك- في لون الصدأ. وكانت جذوع الأشجار المقطوعة- التي لم ينقلها بعد قاطعو الأخشاب- مُلْقاة على طول الطريق المنحدرة، كأنها جُثث متهالكة على الجليد!

وبلغ السيد "**روكفيار**" أخيرا غايته، فتحسَّسَ بيده الشجرة- التي اجتذبته إلى المكان- كما يتحسَّسُ المرء يد صديق، وأخذ يتأملها معجبا بضخامتها وقوتها، وهو يقول لنفسه بينما كان يجفِّفُ العرق المتفصّد من جبينه:

- إنك مثلي.. رأيت رفاقك يتهاوون، وظللت وحيدة بعدهم. ولكنا جميعا مسُوقون إلى السماء.. والزمن هو الفأس التي ستجتثنا عمّا قريب!

وكان صعود التلّ قد استغرق منه وقتا طويلا. ومع أن الأصيل لم يكن قد اكتهل، إلا أن الشمس كانت قد انحدرتْ نحو سلسلة جبال "**ليبين**". فإن النهار في شهر ديسمبر قصير جدا، وكان تقارب الجبال وارتفاعها يزيدانه قصرا. ومن فوق التل أطلّ "**روكفيار**" على نفس الأفق الذي كان يراه من المزرعة تقريبا.. ففي مواجهته جبل "**السنيال**"، وتحته طريق "**إيشيل**"، وإلى اليمين- في الطرف الأقصى، وراء التل- كانت تبدو بحيرة "**بورجيه**"، وسلسلة "**ريفار**"، وجبل "**نيفوليه**" المتناسق السفوح، وكان الجليد يُوشي الحواف، ويمْزُجُ المناظر بعضها ببعض، مخففا من حدتها، منسِّقا بينها.. وقد خلع عليها اقتراب المساء حمرة وردية واهنة، فكأنها بشرة جسد حي! وشعر السيد "**روكفيار**" ببرد برغم اعتدال الجو، فأحكم أزرار معطفه، وكان قد كفَّ عن السير- الذي كان يبعث في كيانه حرارة- فأحسَّ بشيخوخته وآلامه.

ما الذي حمله على تسلق هذا التل الذي تراءى له سفحه- بما عليه من أشجار مقطوعة وممددة على الأرض البيضاء- كأنه مقبرة؟ أجاء إلى هنا، في مواجهة ضَيْعته التي تخلّى عنها بعد جهود أجيال عديدة لصيانتها؛ كي يتأمّل ما حاق بها من خراب، ويتفقد فجيعته في آماله؟ لقد كان بوسعه أن يتبيّن في الجانب الآخر تلك المباني والأراضي التي آلتْ إليه عن طريق الميراث. أما البيت الذي كان يَضُمُّ في العام الماضي كل أفراد أسرته، في ظلال السعادة وأحضان السرور، فقد أُغْلقَ، ولن يدخله أبداً بعد الآن!

على هذه الأرض الموحشة الحزينة، كان الصمت والوحدة يحيطان به من كل جانب، كما كان الموت يَحُوم حوله ويتربَّصُ به! وكما يفعل القائد المنهزم بعد المعركة، أخذ يستعيد الحوادث، ويَسْتَعْرض آلامه واحدا بعد الآخر: زوجته المحطمة التي قضى عليها الحزن، وابنته "**فيليسي**" التي وهبتْ نفسها لله، وابنه الأكبر "**هوبير**" - خير أبنائه- الذي ذوي في ميْعة الشباب بعيدا عن "**فرنسا**"، وبعيدا عن ذويه.. و"**جيرمين**" التي هجرتْ مسقط رأسها، و"**مرجريت**" التي قُدِّر عليها أن تظلّ بلا زواج لفقرها، ثم.. ها هو ذا آخر سليل لآل

"**روكفيار**"، الذي يتوقّف عليه مستقبل الأسرة ومصيرها، مُلْقى في غياهب السجن بتهمة مشينة، ومهدّد بأن يُدَان.. حتى بعد التضحية بهذا الميراث! وأحسّ السيد "**روكفيار**" بأن الستين عاما التي أنفقها في خدْمة الأسْرة قد ذهبتْ كلها عبثا! لقد انفرط عقْد الأسرة بعد أن أثقل كاهلها وزْر فرد واحد من أفرادها، فتهالكتْ عند أقدام الضيعة كالجذوع المقطوعة التي غاصتْ في الجليد. أما هو الذي كانت قوته وإيمانه الراسخان يمنّيانه بالنصر فقد دبّ إلى نفسه الشعور بهوان الهزيمة!

وإذ أحسّ بعزيمته تخور استند إلى شجرة البلوط وكأنها رفيق له في البأساء، وأرسل تأوها طويلا حزينا، كأنين الشجرة التي تترنّح فجأة تحت ضربات الفأس المتوالية، وتشْرَع في السقوط! وخُيِّل إليه أن السماء والأرض اللتين لفتهما ألوان هادئة، ثابتة، لم تعودا تُصْغيان إلى شكاته، فأحس بأنه وحيد، لا حول له ولا سند! وانحدرت على خديه دمْعتان من دموع الرجال الضّنينة، النادرة، التي تُفتِّت القلوب؛ لأنها تنْطوي على اعتراف بالذلّة والضّعْف.. وراحت الدمعتان تَنْسَابان على بَشْرته في بطء وَهُمَا نصف متُجمِّدتيْن بسبب البرد!

ولم يَدُرْ بخلده أنه كان يبكي! لم يفطُن إلى ذلك إلا حين لمح شخصا يتسلّق السفح بدوره، فبادر إلى تجفيف عينيه، لكي لا يُفاجَأ وهو في قبضة الألم! وكان الشكل الأسود لامرأة عجوز انهمكتْ في جمع الحطب اليابس وحزْمه. ولم تره؛ لأنها كانت مُنْحنية على الأرض البيضاء فلما أصبحت قريبة من الشجرة نصبتْ قامتها قليلا، فإذا بها تراه. وتمتمتْ قائلة:

- السيد "**فرانسوا**"!

فتمتم بدوره:

- "**لا فوشوا**"!

ودنتْ منه، ثم وضعتْ حمْلها على الأرض، وراحتْ تبحثُ عن شيء تقوله، ولكنها لم تُوَفَّق إلى شيء، فأخذتْ تنتحب.. ولم يكن نحيبا صامتا. بل كان عاليا مدوِّيا. فسألها:

- لم تبكين؟

فأجابتْ:

- أبكي لما حلّ بك يا سيدي؟

- لما حلّ بي؟!

- أجل!

ولم يكن قد باح بآلامه لأحد، كما أن عزة نفسه كانت تنأى به عن مواطن الرثاء، ومع ذلك فإنه تقبّل رثاء العجوز لحاله، فبسط إليها يده متسائلا:

- وهل علمت بما حلّ بي من مصائب؟

فأجابتْ:

- نعم يا سيد "**فرانسوا**".

فعاد يسألها:

- وبالمصاب الأخير؟

- أجل. علمتُ به من شخص من أهالي "**سان كاسان**"، قَدِمَ من البلدة في هذا الصباح.

وصَمَتَ الاثنان، ثم عادتْ "**لا فوشوا**" تجْهَشُ بالبكاء- فالصمت في أوقات الأسى لا يُوَائِمُ الطبائع التي ما تزال على الفطرة- ثم أخذتْ تقول:

- لقد كان السيد "**هوبير**" موفور الصِّحَّة، شابا، ظريفا مع الجميع. وكان يأتي إلى المطبخ ليُلْقي نظرة على الأطباق ويمزح معنا والسيدة. لقد كانت السيدة قديسة من قديسات الله! كل هذه حسنات تجنيها في السماء!

وظلّ السيد "**روكفيار**" صامتا، جامدا، يَحْسِدُ الأموات على راحتهم في القبور بينما استأنفت "**لا فوشوا**":

- والسيد "**موريس**".. هل يردُّونه إليك؟

وأردفت بصوت منخفض مَشُوب بذلك الخوف الذي يساور الناس إزاء القضاء:

- إن محاكمته غدا!

ورآها تَبْتَهِلُ إلى الله، تسأله عونه القدسي. وتذكر- عن غير قصد- أن ابنة تلك المرأة كانت قد سُجنتْ؛ لأنها اتُّهمتْ بالسرقة، فسألها عن أخبارها في تلطف- إذ إن نفسه المهيضة لم تعد تعرف الازدراء:

- وابنتك.. ألديك أنباء طيبة عنها؟

فأجابتْه العجوز:

- لقد عادت لي يا سيد "**فرانسوا**".

وإذ ذاك قال "**روكفيار**":

- لقد أحْسنتْ صنعا!

- آه! ليس لها فضل في ذلك، وإنما دفعتْها الحاجة إلى العودة.. لقد جاءتْ من "**ليون**" في أشدّ حالات المرض، ولم يزلْ شفاؤها مستعصيا.

- وماذا بها؟

- الآثار المترتبة على الوضع!

فهتف في دهشة:

- الوضْع؟ وهل هي تزوجتْ؟

فأجابتْ:

- لا يا سيد "**فرانسوا**"، ولكنها رُزقتْ بطفل.. طفل صغير، حبيب، مُفْعَم بالحياة، لا يكفّ عن الحركة طوال النهار. وما كنت راغبة في أن أرى هذا الملاك، بدافع من الخْزي والعار كما تدْرك.. ولكنني حين نظرتُ إليه وجدته يستميل قلبي بابتسامة صغيرة.. وقد أصْبح

بهْجتي الوحيدة!

فسألها:

- أهي بنْت؟

ولكنها صاحتْ:

- بنت؟ أحسبك تريد أن تقول: إنه ولد.. ولد سمين مفْعم بالصحة!

فقال الشيخ:

- إنه عبء ثقيل على عاتقك!

- بكل تأكيد. على أنني حين أعود إلى المنزل فأبصر الطفل وهو يمتصّ مرضعته، أشعر بأن لمرآه تأثير كوب من عصير كرومك؛ إذ يبعث في كياني حرارة واستساغة للحياة!

- ولكنك اكتهلت ولم يعد في إمكانك أن تعملي.

- بل إنني لا أصلح لغير العمل!

وهكذا كانت تستمد العزاء من البؤس ذاته! كما كان الشقاء في أيامها الأخيرة مبعث مُتْعة ضافية لها! وأعْجبَ السيد "**روكفيار**"- الذي شُغلَ بالقصة عن همومه- بالمرأة البائسة التي ضَربتْ له المثل في الصفح والشجاعة دون أن تفطن! وانحنتْ المرأة لترفع حزمتها إلى كتفها، وقالت:

- إلى اللقاء يا سيد "**فرانسوا**".

فسألها:

- إلى أين تذهبين؟

فأجابت:

- إلى "**كونيان**"، لأدفع بحَطَبِي إلى الخبّاز.

فقال:

- انتظري!

وأراد أن ينفحها بقطعة من ذات الفرنكات الخمسة، مشاركة منه في بؤسها، ولكنها أبتْ.

فقال مُلحّا:

- يجب أن تأخذيها.

- إن مزرعة البرج لم تَعُدْ الآن ملكا لك يا سيد "**فرانسوا**"، على ما يقولون.

فعبس المحامي وقال:

- لا، لم تَعُدْ مزرعة البرج ملكا لي، ومع ذلك فخذي هذه النقود.. إن هذا سيجلب الحظ لي!

وأدركت أن الرفض يجرح كبرياءه، فبسطتْ يدها.

وهبطت العجوز التلّ وهي تميل على ساقيها في كل خطوة، حتى لا تَزلّ قدماها. وظلّ

السـيـد "**روكـفـيـار**" يرْقُبُها وهي تتضاءل، حتى لم تعد أكثر من نقطة سوداء في قاع سهل.. وألفى نفسه وحيدا، ولكنه كان قد تغيّر.. فإن هذه البائسة ردَّتْ إليه ما كان قد قدَّمه إليها في حصاد الكروم- في العام الماضي- من تشجيع وشحْذ للهمة، مُضَاعَفا مائة مرة!

وكان الليل قد أرخى سدوله في تلك الأثناء، فإذا به يشيع في الطبيعة الساكنة- وكأنها قد تجمّدت بفعل الجليد- تلك المهابة الخاشعة الغامضة التي تسْبق احتضار النهار، وبدتْ حواف الجبال وكأنها ذابتْ وامتزجتْ بحافة السماء الشاحبة.. ولم تك ثمة نأمة تعكّر الهدوء الذي كان أعمق تأثيرا على النّفس من عاصفة هوجاء!

وكان الجدول الصغير يجري في أسفل التلّ صامتا، تحت طبقة رقيقة من الجليد تَفَتَّتت ثم تكونتْ من جديد. أما الأرض ذات الصبغة الشاملة، فقد بدتْ ملتفة في غلالتها الناصعة كحلية وسط قطن مندوف.. وتأمل السيد "**روكـفـيـار**" المزْرعة المهْجورة، التي فُجعَتْ في السلالة التي ذللتها وملكتْ زمامها فاجتذبه المنظر وسحر لبّه.. لقد أيقظت "**لا فوشوا**" في نفسه غريزة الكفاح، وباعدتْ بينه وبين اليأس. فنحَّى رئيس الأسرة ألمه جانبا؛ ليفكّر في الابن الذي كان مُعْنيّا به، وراح يبْحث عن وسيلة لإنقاذه، ولكن بصره- الذي تطلّع وكأنه يَضْرَع إلى الله- اصطدم بذلك الغلاف البارد القاسي الذي كان يلف الفضاء.. وإذا بالأرض صامتة، لا تنطق بما اعتادتْ أن تنبئ به من تعاقب فصول الحياة.. تُرَى كيف يدافع عن ابنه متسلّحا بالماضي وحده؟ وأي عوْن ينتظره من الأرض المهْجورة، ومن السّلالة التي قالها له السيد "**باستار**"، وهو ينبئه بأن المتهم رفض كل مناقشة للاتهام:

- إن الإنسان لا يتذرع بالموتى في دفاعه!

ورمتْ الشمس- التي كانت تمسُّ ذُرَا الجبال- آخر شعاع من نورها، فبدا الجليد المتراكم في منحدرات الجبال وكأنه ينتفض تحت وهجها من نعاس كان يحتويه.. وأخيرا دبّت الحياة في الأفق الساكن بفعل هذا الضوء، فإذا به- في صمْته وصفائه- يحسّ بالحياة ويعكسها. وانْفَصلتْ الأرض المرْتعشة عن السماء التي كانتْ زرقتها الشّاحبة تصْطبغ بآلاف الظلال التي كان يَغْلب عليها اللون الذهبي، وكان الصقيع الذي جلّل الأشجار والغابات القريبة يعكس أشعة الشمس الآفلة، كتلك العدسات البلورية التي تجمع أضواء الثريات لتسلّطها على بقْعة صغيرة.. وكان السيد "**روكفيار**"- وقد ثبت عينيه على المزرعة- يكمل المنظر الذي كان يمثل البعث! وارتدتْ الحياة للطبيعة بضع لحظات، تحت لمسات المساء، فإذا بالدم يجْري من جديد في وجهها المرمري. وعلى طول الكروم القائمة على قمة الهضبة التي كانت بقايا أشعة الشمس تمتد إليها في خطوط أفقية، لم يعد المالك- الذي فقد ملكيته- يرى الأرض في لونها الأبيض الذي لا يتغيّر، وإنما استطاع أن يلمَّ بحركات التربة التي ذكرته بتعاقب المواسم الزراعية: فها هي ذي الأشجار المتناثرة هنا وهناك.. أشجار الحور الوادعة، الباسقة، المزهوّة، وأشْجار النّخيل الفارعة المستقيمة، وأشجار الزيزفون ذات الأغصان الوارفة، والسّندس النّحيل، والكستناء

المتكاثفة، وشجيْرات الفاكهة الرقيقة العود، ذات الأغصان التي كانتْ- برغم رقتها ولينها- ماهرة في حمل ثمارها.. وإذا بهذه الأشجار التي كانت تبدو منذ لحظة، متشابهة مختلطة، قد انقلبتْ تطفر بالحياة وكأنها أشخاص!

ولم يَعُدْ الشيخ يَشْعُر بالوحدة؛ إذ كان يعرف هذه الأطياف واحدا واحدا. وتضاربتْ الانفعالات في نفسه وهو يذكر الأجيال المتعاقبة التي اسْتَصلحَت هذه الأراضي، وشيّدت هذا المنزل الريفي، وهذه المباني الخلوية، وتلك المزرعة، وأسّستْ هذه الضيعة، منذ عرف أول ثوْب لبسه أقدم فلاح من آل "**روكفيار**" عليها، إلى ذلك الزيّ التقليدي الذي كان يرْتديه أعضاء مجلس الشيوخ- منهم- عن دائرة "**سافوا**"، إلى رداء المحاماة.. كانت الهضْبة التي قامتْ إلى مثل ارتفاعه، في الجانب المواجه له، كحصن احتلتْه سلسلة من أسْلافه الذين زرعوا في هذا الركن من الأرض تقاليد الأمانة والشرف والشجاعة والنبل، مع ما زرعوا من قمح وشعير وبساتين وكروم.. وكما كان لمحاصيل هذه الأرض صيتٌ طبق الآفاق، كذلك كانت تلك التقاليد تَسْطَع على البلدة القابعة في أحضان الجبال- والتي بدأ الظلام يزحفَ نحوها- وعلى الإقليم الذي أدّتْ له أجلّ الخدمات، وبسطتْ عليها حماها، ورفعتْ من شأنه في بعض فترات تاريخيّة.. بل لقد امتدّ أثر تلك التقاليد إلى الوطن الذي كان يستمدّ قوته من اسْتمرار قيام أمْثال هذه الأسرة، ومن عراقتها وصلابة كيانها..

وعاد السيد "**روكفيار**" يردِّد مرة أخرى:

- إن الإنسان لا يتذرّع بالموتى في دفاعه!

ولكنه أردف في الحال:

- لا، ليس بالموتى، وإنما بالأحياء.. وإنّهم لحاضرون جميعا، لا يتخلّف واحد منهم عن تلبية النداء! لقد فتحتْ الأرض صدْرها لتسمح لهم بالخروج.. ولسوف أجتاز هذا الوادي الضيق الذي يفصل بيننا.. فأنا مَشُوق للانضمام إليهم!

وأخذ يسْبر عمق الوادي الضيّق المعتم، وكأنما احتشدتْ أطياف أسلافه جميعا فيه.. وزحف الظلام على الطبيعة، فاحتوى السّهْل بأكمله، وراح يَصْعد والجبال تحاول أن تصدّه، لاسيما جبل "**نيفوليه**" ذو السفح المقسّم إلى طبقات، والذي كان يقف في وجه الغرب؛ ومن ثمّ انصبّ عليه لهب الشمس الغاربة المشتعلة، فبدا ما كان يكسوه من جليد أرْجُواني وبنَفْسجي كأنه يشع وهجا كذلك الذي ينْبعث من معدن ينْصهر!

وأخذ السيد "**روكفيار**" يتتبّع معْركة الغروب، وهو يطلّ من أعلى التل.. وإذا بكل كيانه ينتفض! فقد لمح فجاة الأطياف تصْعد مع ظلال الغروب.. كل الأطياف ارتفعتْ مغادرة المزرعة في طريقها إليه! كانتْ نفس الأطياف التي تمثلها منذ لحظة متجمّعة في الوادي الضيّق، وكأنما خفت إليه لتشعره بوجودها، وبعونها، وبولائها.. وانتشرتْ على جميع الدروب، فكأنها جيْش يحْتشد حول قائده الواقف على قدميه عند أسفل شجرة البلوط. حتى إذا التأم

شمل الجيش، سمعه يناديه طالبا منه أنْ يقوده إلى النصر: "لقد عملنا، وأحببنا، وكافحنا، وتألمنا، لا لهدف شخصي فحسب، ولا لغرض تحقّق أو لم يتحقق لكل منا، وإنما لغاية أبقى على مدى الزمن منا.. هي الأسرة.. ولقد منحناكَ كل ما جمعناه للصالح المشترك، كي تسلمه بدورك لمن يليك.. وليستْ المزرعة هي الذخر المتوارث، فما المزرعة سوى أرض تُقْتَنى بالعرق والدأب المنظم، وإنما الذخر هو روح سلالتنا التي تحملها بين جنبيك، وإنا لنوقن من أنك قادر على الذود عنها. ما الذي قُلْته في يَأسك عن الوحدة والموت؟ الوحدة؟ ألا أحص عددنا ثم نبئنا: من أين انحدرت؟ الموت؟ إن الأسرة نقيض الموت، وما دمت تحيا فنحن جميعا أحياء. ولسوف تُبْعث إذا ما لحقت بنا؛ إذ إنّ حياتك تتجدّد في ذريتك. انظر: ها نحن أولاء جميعا حضور، في هذه اللحظة الحاسمة. فارفعْ عنك آلامك كما رفعنا نحن الحجر عن أرماسنا، واعلم أنك أنت الذي اختصّ بشرف الدفاع، وبإنقاذ آخر سلالة "**روكفيار**". لسوف تتكلّم باسمنا، وفي وسعك- بعد أن تتم رسالتك- أن تلحق بنا في سلام الله..

واتّكأ السيد "**روكفيار**" على شجرة البلوط بيده، وكان الظلام قد أحاط بجبل "**نيفوليه**" الذي قام على أعلى طبقات سَفْحه صليب أخذ يتوهّج قبل أن ينطفئ، كشعاع الشمس المنحدرة للمغيب.. وإذ ذاك، استشعر الشيخ طمأنينة عارمة، وتقبّل الرسالة التي عهد الماضي بها إليه، وهتف لنفسه:

-' أنا الذي سأتولّى الدفاع عنك يا "**موريس**".. ولن أذكر أبداً اسم السيدة "**فرازن**"!

وعندما ابتعد عن الشجرة أخذ يتأمل المكان الذي همّ بأن يغادره، وقال لنفسه:

- هنا، سأُشيِّد البناء من جديد.. أنا أو ابني!

٥- خطبة "مرجريت"

روّع "**موريس**" موت "**هوبير**" وحطّم الكبرياء التي كانت تعزله عن الأسرة. وانصرفتْ "**مرجريت**" من السجن، بعد أن أطلعته على النبأ المحزن، فسارتْ في الشارع لا تكاد تُبْصر شيئا؛ إذ أطبقتْ أحزانها عليها، وما إن بلغت باب الدار حتى سألتْ خادمتها:

- هل عاد السيد؟

كانت متلهفة إلى شدّ أزر أبيها، بعد أن شدّتْ أزر أخيها، وهي تُقاوم العذاب النفسي بتلك القوة المألوفة لدى النساء أكثر مما هي لدى الرجال، والتي تدعو إلى التَّسْرِية عن الغيْر، بدلا من الاستسلام للأحزان!

وكان الجواب الذي تلقته من الخادمة:

- لا، لم يعد بعد يا آنسة.

فهتفتْ في دهْشة وقلق:

- لم يَعُد بعد؟

كانت قد مكثتْ في السجْن وقتا طويلا، وها قد حلّ المساء، ولم يكن السيد "**روكفيار**" قد غادر الدار إلا لنزهة قصيرة، إذ كان يتوقَّع أنْ يزوره السيدان "**هاميل**" و"**باستار**" في الساعة الخامسة؛ ليسْتعرض معهما آخر وجهات النظر فيما يتعلّق بجلسة الغد؛ ومن ثمَّ فقد كان غيابه الطويل- في ظروف كهذه- أمرا غريبا! وقالت الخادمة مستطردة:

- ولكنَّ في قاعة الاستقبال سيِّدا يبغي مقابلة الآنسة.

فتساءلتْ "**مرجريت**":

- مقابلتي أنا؟

فأجابتْ الخادمة:

- أجل يا آنسة.

فعادتْ الفتاة تسألها:

- ومن يكون؟

- لقد ذكر لي اسمه، ولكنني لا أذكره.. إنه طبيب.

وكانتْ الخادمة ريفية لم تتأقْلم بعد، ولم تألف وجوه أهل البلدة وأسماءهم. فقالتْ لها "**مرجريت**" في تأنيب:

- ما كان ينْبغي استقباله يا "**ميلاني**"، في يوم كهذا.

فأجابت الخادم:

- هو ذلك يا آنسة، وما نسيتُ هذا، ولكنه أَبَى أن ينْصرف إذ جاء في مهمة خاصة للآنسة!

ودخلتْ "**مرجريت**" قاعة الاستقبال وهي كارهة، وقد استبقتْ قبعتها وقناع الحداد؛ لتتعجّل رحيل هذا الفضولي، وإذا بها تجد نفسها وجها لوجه أمام "**ريمون بيرسي**"، الذي تمتم متلعْثما في اضطراب وكأنه فتاة:

- يا آنسة... وتقهقرتْ "**مرجريت**" في حركة أدْرك لفوره مغزاها، فهتف في توسّل محاولا استبقاءها:

- اغفري لي مجيئي يا آنسة "**مرجريت**".. لقد علمتُ مساء أمس بمصابكم؛ ومن ثم.. فتقدمتْ منه قائلة:

- سيدي!

ودفعته هذه الكلمة وحدها- بما تجلّى فيها من حزم- بعيدا، ومنعته من مواساتها! فقد كانتْ "**مرجريت**" تكره الرثاء، مثل أبيها! وارتج القول على خطيبها السابق، فطأطأ رأسه، لائذا بالصّمْت. وإذ ذاك قالتْ، وقد لانتْ بعض الشيء:

- لماذا أصرّ السيد على مقابلتي.. اليوم؟

فتطلّع إليها مبتهلا في ضراعة، وقال في أسى:

– لأنني سأكون جد متأخراً، لو انتظرتُ إلى غد.

– جد متأخر؟ غدا؟ ألديك أمر تريد أن تفضي به إليّ؟ أهو بشأن "**موريس**"؟

كانت قد نسيتْ نفسها، فلم يخْطر لها أنها المعنية بالزيارة. أو لم تقطع كل رابطة بينها وبين "**ريمون**" منذ عام.. منذ اليوم الذي لم تحجم فيه عن فسخ خطبتها- في دار السيدة "**بيرسي**"- دفاعا عن كرامة اسمها؟ ولم يسع الشاب قط ليسْتعيد حبها ويدها. ثم تتابعتْ الحوادث كالعاصفة: بلاغ السيد "**فرازن**"، وموْت السيدة "**روكفيار**" صدور الحكم على "**موريس**" غيابيا، وهوان الأسرة وخرابها، ثم.. آخر ويلات القدر: فقدان الأب الأكبر، الذي كان مدّخرا للمستقبل. كانت هذه الأحداث من الكثرة بحيث لم تدع للشاب مبررا في هجْره، ونأيه، ونسْيانه. ولكن، أليس من خصائص البؤس أنه يوسِّع الهُوّة بين الناس؟ لقد استنزفتْ "**مرجريت**"- في وحدتها- دمعها، وتجرعتْ أساها، وعانتْ وحدها المرارة دون أن يقاسمها أحد. فبأي حق يأتي الآن هذا الشاب فيفرض وجوده غير المجْدي، وعطفه المتأخر؟ لابد أن ثمَّة سببا آخر دفعَه إلى هذه الخُطْوة، ولعله يعْرف شيئا يفيد الدفاع عن المتهم. ومن أجل هذا الغرض- وهذا الغرض وحده- تَلْتَمس له العذر في اقتحامه الباب، ودخوله المنزل! على أنّ الشاب لم يتعجّلْ الإفصاح، وكان من الواضح أنه كان يعاني اضطرابا عميقا طاغيا.

وقالتْ "**مرجريت**" أخيرا:

– تكلّم يا سيّدي.

فأجاب:

– إنّ الأمر لا يتعلّق بـ"**موريس**".

وتساءلتْ وهي تتقدم منه خطوة:

– إذن؟

ثم رفعت القناع الذي كان يعوقُ حركاتها ويحْجب وجهها. وبدتْ له في اقترابها- وقد شدّت قامتها وعضلاتها- كما لو كانت قد ازدادت بُعْدا عنه! وبين الثوب الأسود والشعر الأسود، لاح وجهها شديد الامتقاع، وعيناها ذابلتين، وشفتاها رقيقتين كأنهما مجرد خط أحمر! وحبس الشاب دموعه- لفَرْط إحساسه بأنها بعيدة، حزينة، ولخوفه من أن يعجز عن إلانة قلبها، وتلهُّفه إلى أن يسرِّي عنها بحنانه الفيّاض- واستجمع كل شجاعته، وشرع في الكلام متلعثما، ثم راح صوْتهُ يقْوى رويدا:

– ألا أنصتي لي يا آنسة.. يجب أن تُصْغي إليّ، ولن تلبثي أن تفهميني وأن تصفحي عني.. لابد لي من أن أتحدث إليك اليوم.. إنني أحترم ألمك وأحسّ به.. أرجوك، لا تقاطعيني! ليس بوسعك أن تمنعيني من أن أحسّ بألمك، فإنني أتعذّب- أنا الآخر- منذ ذاك اليوم.. وإن عذابي ليجعلني أكثر إدراكا لآلام الغير. لقد أحببتك. آه! لا تَقْطَعي عليّ الحديث.. دعيني أفرغ ما في جعبتي! أجل، لقد أحببتك، ولم أكن أتصور مستقبلي إلا في

قُربك. ولكنني صادفتُ من أسرتي مقاومة شديدة، وعراقيل بالغة، بسبب.. بسبب أخيك! فإن أمي- وإن كانت طيبة في قرارة نفسها- تصغي إلى أقاويل الناس، وأبي يفكر في مستقبلي! إنه من رجال العلم، لا يعيش إلا بين جدران مكتبه، أو إلى جوار مرضاه. أما البيت، فلا سلطان له عليه!! وأنا.. آه، لا.. لست أبغي أن أمضي في اتهام الآخرين، لكي أخفف من ذنبي. لقد كنتُ جبانا، خسيسا.. ولكنني نلتُ عقابي، وإذا كنت لم أدافع عنك فما ذلك إلا لأنني لم أكن أعرف كيف أدافع عنك.

وأومأتْ عدة مرات تحاول أن تقاطعه، وقد وقفتْ منتصبة القامة، في ترفُّع غير متعمَّد، فكشفتْ بجلاء عن ذلك الإباء الذي فُطرَ عليه آل "**روكفيار**" والذي أكْسَبهم كثيرا من الأعداء! كانت في تلك الأثناء تؤدِّبه بنظرة حزينة من عينيها المغرورقتين، وبذلك الجلاء الغامض الذي ورثته عن أمها. وما لبثتْ أن أجابته ببساطة:

- ولكنني لم أطلب إليك أن تدافع عني!

فقال متلعْثما:

- هذا صحيح يا "**مرجريت**"..

ونَسي في اضطرابه الأسلوب المتكلّف، فناداها باسمها مجرّدا، كما اعتاد أن يفعل عندما كان خطيبا لها- من قبل- ثم استْطرد:

- بل إنني نقمتُ عليك ازدراءك لي!

فقالتْ:

- لستُ أزدري أحدا يا سيِّدي!

- بل إنك طعنتني طعنة نجلاء بنظرتك القاسية في ذلك اليوم الذي أعفيتني فيه من عهودي.. ما كان أشدّ قسوتك!

فهتفتْ بصوت محتبس:

- أنا.. قاسية؟

وقدّرتْ ألا جدوى من الرد، ولكنها ثارت في أعماقها على هذا الظلم. بينما قال الشاب:

- أجل، فما كنت أفهم حتى ذاك الوقت قيمة اعتزاز المرء بكرامته في المحن. لقد لعنتك، ولكن قلبي كان يتحطّم! كنت أتهمك بدلا من أن أعترف بتفاهة هواجسي وشُكوكي، وبافتقاري إلى الرأي السليم. على أنني تغيرّتْ كثيرا، وأقسم لك: إنني الآن معجب بك، وأمجِّدك، بل أعشقك.. أجل! لا تتكلّمي. دعيني أتم حديثي! لقد حاولت أن أسلوك، وأراد والداي أن يزوجاني من فتاة أخرى ويطمئنا على استقراري، كما يقولان. ولكنني لم أستطع.. لستُ أحب، ولستُ أملك أن أحب سواكِ!

فهتفتْ:

- أرجوك يا سيدي.

ولكنه مضى في حديثه:

- إذا كان ثمة قدر من الخير أستطيع أن أفعله، فأنت مصدره. سأسمو بنفسي إلى مستواك رويدا رويداً. إن الرجال الذين على شاكلتي- بل كل الرجال- يتأرجحون بين الخير والشر، وبين الوفاء والأنانية وليس يجُولُ بخاطرهم أنهم مدفوعون بكل ما في الحياة من سفاسف! على أنهم قد يصادفون أحيانا حافزا واحدا يرفع من شأنهم.. ولقد أمدّني حبك بهذا الحافز!

وتوقّف عن الكلام مترقّبا كلمة تبعث في نفسه الأمل.. فغضّتْ "**مرجريت**" بصرها، وتركتْ القناع يتدلّى على جانب وجهها ملقيا عليه شيئا من الظلام. وعاد "**ريمون**" يتمتم:

- "**مرجريت**".. ردّي عليّ عهودك، واقبلي أن تكوني زوجتي! إنني أهواك، وإن حبي ليزداد لما أنت فيه من آلام!

ورآها ترتَجف، ولكنها أجابت في غير تردد:

- هذا مستحيل، فلا تطلبه مني!

وصدمه هذا الرّفض؛ لأنه صدر في وقت كانت تساوره فيه بقية من غرور توسوس له بما في خطوته من كرم وشهامة.. ومن ثمّ انفلتت منه صيحة كصيحة اليائس المتداعي، وهتف متأوها:

- إن هذا جماع هنائي، فكيف تريدينني ألا أطلبه منك؟

ولانتْ على الفور، فاكتسب صوتها رقة جديدة، وقالت:

- ستمنحك امرأة أخرى هذا الهناء. إنني موقنة من هذا، وأرجوه لكَ!

- لستُ أرى في الدنيا امرأة سواك!

- لا، لا.. هذا مستحيل فلا تعذّبْني!

- مستحيل؟ ولماذا يا "**مرجريت**"؟ لماذا تُثْبطين من عزيمتي؟ إنك لا تحبينني.. على أني قد أفلح يوما في أن أجعلك تحبينني، فهل ما زلت ترفضين؟ أواه! يا إلهي! أتنبذينني بغير سبب؟

ولاح أنها تبحث عن مخرج، فتردَّدَت، ولكنه كان يرتقب رَدَّها في لهفة. وأخيرا قالت:

- إنني لم أعُدْ تلك الفتاة التي كنتها في العام الماضي.

فقال في حيرة:

- لستُ أفقه ما تقولين..

وإذ ذاك قالت:

- لم أعُدْ أملك صداقا.

فهتف:

- أهذا هو السبب؟ إنني لا أستحق منك هذه المعاملة يا "**مرجريت**". إن في نفسك- في عينيك- شُعاعا يَسْطع كأنه صفاء الحياة، إنني حين أنظر إليك أحسّ بالشجاعة تدب في نفسي، وبالرغبة في الخير، وباحتقار ونسيان جميع الرغبات الحقيرة القائمة على الماديات! فأية

قيمة للثروة إذا قيست بهذا الذي تمنحينني، والذي يبثّ فيّ القوة؟

فقالت متسائلة:

- وإذا حدث غدا..

فلما أمسكت عن إتمام قولها ردَّد التساؤل:

- وإذا حدث غدا؟

- إذا حدث أن مُنينا غدا بكارثة أفدح.. إذا حدث أن قُضي غدا بإدانة "**موريس**"؟!

- إنما جئتُ اليوم بدافع من هذا الخطر المحدق.. جئتُ أنشد شرف الوقوف إلى جانب أبيك في محكمة الجنايات غدا، كابن له.. ولهذا كان لابد لي من أن أقابلك اليوم!

فتمتمتْ:

- آه!.

وأَدْرك من دهشتها أن كل ما كانت تبديه له من عدم اكتراث قد تبدّد أخيرا.. وتبيّن أمارات العطْف والعرفان- وربّما التقدير أيضا- على ذلك الوجه الشاحب الذي كان يقرأ عليه كل ما كان ينتابها من مشاعر.. فتراءت له السعادة: غير مؤكدة، وغير سافرة، ولكنها موجودة.. يهزُّ وجودها فؤاده. ودعمتْ "**مرجريت**" أمله حين مدتْ له يدها قائلة في غير تحرج من ذكْرِ اسمه كما اعتادتْ في الماضي أن تذكره:

- أشكرك يا "**ريمون**".. لكم أنا متأثرة، أعمق التأثُّر!

ولكن هذا لم يكن القول الذي توقّعه الشاب، فأخذ يتأملها في ذهول قلق، موجس. حتى إذا لاذتْ بالصّمت، تمتم في حياء:

- فيم الشكر، ما دمت أحبك؟ أحسب أن هذا الحب أعظم قيمة من أي شيء آخر..

ثم تأوه قائلا:

- "**مرجريت**".. ألا تودّين أن تُصْبحي زوجتي؟

وقرأ على وجهها الشاحب أمارات الحنان والأسى. ولكنها قالت:

- "**ريمون**" إنني لا أستطيع.

فهتف:

- لا تستطيعين؟ إذن.. إذن فأنت تحبين شخصا آخر.

فتأوهتْ قائلة:

- آه، يا صديقي!

- نعم، إنك تحبين شخصا آخر.. شخصا لم يكن جبانا مثلي، أدرك ما تنطوي عليه نفسك، فَفَهِمَك، واستحقّك.. بينما فقدتُ أنا هنائي بخطئي.. هذا عدل، ولكن وقعه أليم على من يحب!

وانساب دمعه فمزّق فؤادها. وقالتْ وهي تهتزّ انفعالا:

- "**ريمون**"، أتوسَّل إليك ألا تكلمني هكذا.

فقال:

- لست أَتهمكَ، فأنا المذنب.. كما أن هناءك أعزّ عليّ من هنائي!

وإذ ذاك قالت وفي نفسها أمر:

- أصْغِ إليّ يا "**ريمون**"!

فتهالك فجأة على أحد المقاعد، مُضَعْضَع النفس، واحتوى رأسه بين راحتيه، غير متحرّج من البكاء. وبحركة سريعة، رفعت "**مرجريت**" قبعتها، كالممرضة التي تتخفّف مما لا نفع له من ثيابها؛ لتحسن أداء عملها. وتناولتْ يدي الشاب وأزاحتهما عن وجهه بقوة وقالت:

- انظر إليّ!

وسيطرتْ على الموقف، لا بطريقة أبيها الآمرة الصارمة، وإنما في لطف رادع! ولم تحاول أن تتصنّعَ شيئا، أو أن تكتم شيئا من مشاعرها، أو أن تدافع عن مَسْلَكها، بل أقبلتْ عليه في بساطة بالغة، فإذا به يستسلم لتاثيرها، ويطيعها بطريقة آلية؛ إذ إنه لم يكد يرمُقُها حتى كفّ عن البكاء. فقد تبدّلتْ أسارير وجه الفتاة، وأضاءتها النظرات المنبعثة من أعماق نفسها، فبدتْ كالهالة التي تَحُفُّ بأولئك الذين وُفقُوا إلى الطمأنينة بعد الاضطرابات والانفعالات.. وكساها- وهي حيّة- ذلك الوقار الصافي الذي يكسو وجوه الأموات، فتلاشى كل أثر للألم من وجهها الشاحب وعينيها الذابلتين، وتولاها هدوء عميق راسخ، يكاد يكون رهيبا! وصاح الشاب في لوعة ولهفة، كمن يستوقف رفيقا يُوشِك أن يتردَّى في هاوية:

- "**مرجريت**"، ماذا بك؟

ولكنها كررتْ قولها السابق:

- أصغ إلي يا "**ريمون**"!

ثم أردفت:

- أجل، إنني أحب شخصا آخر!

فصاح ملتاعا:

- آه! كنت أعرف هذا.

- أحبّ شخصا آخر لا تستطيع أن تغار منه.. إنني لن أتزوج، ولن أكون امرأة أحد.. لسوف أسلك طريقا آخر.. ومع ذلك فإنني لم أوت العصْمَة التي تقيني من الشعور بالزهو إزاء الحديث الذي قلته لي منذ لحظة.. إنني ما زلتُ أتمسك بالكبرياء، وهي من عيوب أسرتنا.. ولكن تَوَالِي الخطوب علينا كان يتطلّب منا أن نعتز بأنفسنا قليلا!

وارْتَسَمتْ على فمها ابتسامة رقيقة، لم تلبث أن تلاشتْ وكأنها أشفقت أن تغيّر من طُهر معالم هذه الأسارير الجامدة. وعادت الفتاة تتكلّم بينما اعتصم الشاب بالصبر، مُسْتَسْلما للقوة الغامضة التي كانت تنبعث منها:

– لا، لن أنسى أنك اخترتَ الساعة التي تكاثفتْ عليّ فيها أقسى الأحزان، كي تعود لي من جديد!

فهتف "ريمون" كالطفل:

– إنني أحبّك!

– يجب أن تكف عن حُبِّي يا "ريمون"! لقد لبَّيْتُ نداء آخر سبق نداءك.. سأكشف لك عن سرّ لا يعلم به أحد.. ولا أبي، ولكنني لا أتردد في أن أفضي به إليك، فاحفظه لي: لقد عاهدت الله– عندما فقدت أمي– على أن أحل محلّها في بيتنا الذي اجتاحته النوائب.

– أو لم تؤد هذه المهمة؟

– إنها لم تتم بعد.

– وهل يمنعك الزواج من إتمامها؟ إننا لن نغادر "شامبيري".

– إن المرء لا يستطيع أن يوزع نفسه بين اثنين يا "ريمون".. لقد نزلتُ عن سعادتي الشخصية، وما أعظم القوة التي استشعرتها يوم نبذْتُ هذه السعادة!

فوثب في عنف، وهتف مُحْتجًا:

– ولكن هذا جنون يا "مرجريت".. ليس من حقّك أنْ تنسي نفسك إلى هذا الحد. لَسَوف تعيشين بعد أبيك، ولسوف تبرأ ساحة أخيك غدا، وسيعيد بناء صرح حياته بغيرك، أما أنت، فما الذي تصيرين إليه وأنت وحيدة؟ وما جدوى أن تضحي بنفسك من أجل وساوس زائفة؟

فقالت:

– لقد طُعن أبي في الصميم، كما أن أخي مهدَّد بالخطر دائما. فلا تسْلُبْني جزءا من شجاعتي بقولك إنني سأكون عديمة الجدوى لهما!

فكفَّ "ريمون" عن النضال؛ إذ ساوره شعور داخلي أثارته أسارير "مرجريت" أكثر مما أثاره كلامها.. شعور أوحى إليه بالهزيمة. فتوسّل إليها في صوت حنون، خجول:

– وإذا انتظرتك، فهل تصدِّينني؟ إذا مكثتُ وفيا لك حتى تتم رسالتك العائلية، فهل توافقين على العودة إليّ؟ إنني أحبك إلى الدرجة التي أفضل عندها الصبر، حتى لا أفقدك.. ولسوف يكون الصبر قاسيا وعذبا، في آن واحد. فهلا وافقت؟

إزاء هذا العرض المُنطوي على شهامة وحب عارمين كفَّتْ عينا الفتاة عن الوميض لحظة، فظن "ريمون" – حين رأى تأثرها– أنها أوشكتْ أن تلين، وعاوده أمل لم تلبث الكلمات الأولى من رَدِّها أن بددته:

– لا يا "ريمون".. لن أقبل أبداً أن أرسي أسس مستقبلي على آلامك! هذا مستحيل! إنك لم تفهمني تماما! لقد وهبت نفسي لله، فلا تحاول أن تستردَّني!

فصرخ الشاب في لوْعة:

– أواه يا "**مرجريت**"!

– إن المرء إذ يهب نفسه لله، فإنما يهبها لكل من يتعذَّب!

– الآن فهمت.. إنك تريدين الانخراط في سلك الرهبنة.

– لست أدري بعد.. على أن هناك طرقا كثيرة لخدمة الله. فلا تبُح بما قلت لك لأي إنسان.. أتبكي؟ لا تبك يا "**ريمون**". ليسكب الله عليك العزاء كما سكبه على قلبي!

فهتف:

– لا.. لن أجد العزاء مطلقا.

وانحدرتْ دموعه وهو يسألها:

– ما الذي تنتوين عمله؟

فأجابت:

– لسوف أساعد أبي، ما بقي على قيد الحياة، ولسوف أساعد "**موريس**" إذا ما احتاج إليّ. لقد عاهدتُ أمي على ذلك وهي على فراش الموت، وسأكرّس قواي بعد ذلك لخدمة البائسين والشيوخ، أو لرعاية الأيتام. وقد أُنْشئَتْ هنا مدرسة لأبناء الفقراء.. لستُ أدري، وليس بوُسْعي الآن أن أجْزم، فلا داعي للتعجُّل؛ لأن الوقت لن يلبث أن يحين من تلقاء ذاته.. أفلا ترى أنك الآن عليمٌ بكل أسراري؟

فتمتم قائلا:

– وأنا؟ ما الذي قُدِّر لي؟ إنك تَفكرِين في مواساة كل البائسين وتَنْسِينَنِي!

فهتفتْ ضارعة:

– "**ريمون**"!

– إنني أكثر تَعَسًا من جميع البائسين. إنهم لم يعرفوا السعادة، على الأقل، أما أنا فسعادتي أُلْقي بها من حالق!

– لا، لا تتحسَّر عليَّ، فإنني لم أُخلق للزواج! لقد أنذرني الله بذلك في شيء من القسوة. أما أنت، فإنه ولابد قد آثرك بامرأة أخرى أكثر مني مَقْدرة على إسعادك.

– ما من امرأة تضَارِعُك يا "**مرجريت**".. إنك لستِ من أولئك اللاَّتي يُمكن الاستعاضة عنهُن بسواهن!

وتسللت الظلمة إلى غرفة الاستقبال مع مقدم المساء، ولكن وجه الفتاة المشرق بالرُّوحَانية ظل مُحْتفظا بضيائه في هذا الظلام، ولو أن هذا الضياء لم يكد يقوى على أن يشيع الحياة في الصفاء الشاحب الذي كان يجلِّلُ ذاك الوجه، حتى ليخشى المرء أن يحسّ فيه– إذا مسَّه– ببُرودة الصخر، بدلا من دفْء الحياة! وقالت "**مرجريت**" أخيرا:

– إنك لن تلبث أنْ تنساني.. لابد من هذا، لاسيما وأني أرغب فيه!

فتطلّع إليها في تَقاعس، كسائح يتأمّل قمة لا سبيل إلى بلوغها، وقال:

– لا سلطان لك على ذاكرتي.

فقالتْ:

– إذن، فاذكرني في غير مرارة، كما تذكر أختا ماتتْ.

– لا يا "**مرجريت**"، لا سبيل إلى أن أذكرك دون مرارة.. لقد سموْت بفكري وفؤادي، ثم تركتني أهوي من حالق!

وتأثرتْ لقوله، فأجابتْ في لهجة جادة، أوشكت أن تكون رهيبة:

– إذا كنت قد أحببتني يا "**ريمون**". إذا كنت قد أحببتني حقا لمنحتني سرورا ساميا بإدراكك أن رسالتي لن تكون عديمة الجدوى، بالنسبة إليك أنت الآخر.. ولما وَسعَك أن تقنط إزاء رفضي؛ لأنه يجب ألا يُضيرك، فهو لا يستطيع أن يجرح شعورك أو أن يحُطّ من قدرك. يجب أن تكون ذكراي بلسما لحياتك لا موردا لهلاكك. ذلك لأنني أحببْتك يا صديقي، وكنت أرقب في طمأنينة اقتراب يوم زواجنا.. وما الطمأنينة سوى هدوء النفس، وأمان المستقبل. ولكن عاصفة غير متوقعة فرقت بيننا.. وسمعت خلالها نداء الله.. فإذا كان الله قد شاء ألا أحمل السعادة إليك، وإذا كان قد ابتلاك أنت الآخر فدعني أعتقد أن هذه التجربة بالذات خليقة بأن تقوّيك، وترفع من شأنك، وتسمو بنفسك.. وإذا كنت أنا– على عيوبي ونقصي– قد ساعدت على السُّمُو بك، فلا تقل: إنك ستهوي من حالق. لسوف أصلّي كثيرا من أجلك!

ولما كانت مُسْتَغْرقة في نجواها فإنها لم تره وهو يجثُو أمامها ببطء، ولكنها أحسّتْ بشفتيه على يدها، فهتفت:

– ماذا تفعل يا "**ريمون**"؟ ألا انهض.. أرجوك!

ونظرتْ إليه وهو جاث عند قدميها، وقد بهتتْ لهذا الانهيار الجديد الذي أبداه أمامها. ولم تَعُد أساريره تتلوَّى لفرط العذاب، وإنما بدا وجهه واجما حزينا، في هدوء. فقد استوْلى عليه– دون شعور منه– ذلك الجَلَد وتلك السكينة اللذان كانا يَشِعَّان من إيمان الفتاة. وتمتم "**ريمون**":

– ما كنت أهلا لك.. ولكنني أحببتك كل الحب!

فعادت تَهيبُ به:

– ألا انهضْ.. أرجوك!

وقال وهو ينهض:

– ما من رجل جدير بك.. وهذا هو عزائي الأوحد!

وتمت التضحية، فشعرا بها كما لو كانت شيئا ماديا ملموسا! وأخلدا إلى الصمت. ودَلَفتْ الخادمة– خلال هذا الصمت الجاثم، المفعم بالحزن– إلى الغرفة التي سيْطر عليها الظلام، فوجدتْ عناء في تبيُّن مخدومتها التي ذاب شكلها في العتمة. ونادتها قائلة:

– يا آنسة!

– ماذا جرى يا "**ميلاني**"؟

– لقد وصل السيدان.

فقالتْ "**مرجريت**":

– آه! وهل أدخلتهما مكتب السيد؟

فأجابتْ الخادم:

– أجل يا آنسة!

فعادتْ "**مرجريت**" تسألها:

– أو لم يصل السيد بعد؟

وكان الجواب:

– لا يا آنسة!

– سليهما أنْ ينتظراه بضع دقائق، فإنه قادم!

وكان تأخر أبيها– دونما مبرر– قد بدأ يشْغلها؛ فأدْرك "**ريمون بيرسي**" أنّ بالها قد نأى عنه. وهمس لنفسه:

– أبمثل هذه السرعة؟

لقد كان على الأقل يشْغل فكرها وقلبها عندما صدّتْ حبه في رفق منذ لحظة.. حتى اللوعة التي بعثتها في نفسه، كان مدينا بها إليها، وكانت محبّبة إليه، ما دامتْ "**مرجريت**" مبعثها.. ورمقها بنظرة أخيرة، وكأنه يقدّر فداحة الخسارة التي مني بها، ولكيْ يحفر شكلها في أعْماق ذاكرته. ثم تأهّب للانصراف، متَمتما:

– وداعا يا "**مرجريت**"!

– وداعا يا صديقي، فامض بسلام.. لسوف أُقْرن اسمك بأسماء أسرتي في صلاتي. **أفتريد** أكثر من هذا؟

– شكرا.. لقد قام أمامي أمل عظيم، ولكني هدمتُه بنفسي!

فأجابتْ بصوتها الحازم:

– إن الله– ولست أنا– هو الذي أراد ذلك.. فليحفظكَ الله!

وانْحَنى لها، ثم انْصرف. وما إن ألفَتْ نفسها وحيدة حتى اعتمدت جبينها براحتيها. ولكنها لم تلبث أنْ نهضتْ فسارتْ إلى مكتب أبيها حيث رجت الأستاذين "**هامـيل**" و"**باستار**" أنْ ينتظرا الشيخ بضع دقائق أخرى. وكان القلق يَسْتَبدّ بها شيْئا فشيْئا، فاعتزمتْ أنْ تخرج للبحْث عن أبيها.. وفي تلك اللحظة سمعتْ صوْت مفْتاحه يدور في قفْل الباب الخارجي، فهرعت إليه قائلة:

– أبي.. هأنتذا أخيرا!

فجفف السيد "**روكفيار**" العرق الذي تفصّد من جبينه برغْم البرد، لفرط إسراعه في السير، وسألها:

– هل حضر السيدان يا "**مرجريت**"؟

– إنهما ينتظرانك.

– حسنا. إنني ذاهب إليهما.

ووقفا وجها لوجه في الرّدهة المضاءة. ولما كانا قد افْترقا في قنوط وتداع نفسي فقد أدهشهما أن طالع كل على وجه الآخر نوعا من صفاء النفس بدّد ما كان يعلو أساريرهما من حزن وخوف! وأحسًّا بإلهام روحي منبعث عن الثقة: فقد كان الأب يُنْصت إلى نداء الماضي المنبعث من أجيال سحيقة.. وكانت الابنة تُصْغِي إلى نداء الله!

٦- الدفاع

ما إن وَلجَ السيد "**روكفيار**" غرفة مكتبه مسْرعا حتى بادر زميلاه- اللذان كانا يتجادلان- إلى النهوض لملاقاته. ولم يتمالكا نفْسيْهما من الدّهشة حين ألفيا- بدلا من الرجل الذي هدَّه الأسى لوفاة ابنه- زميلهما "**روكفيار**" المعهود، الذي كان مرْهوب الجانب في المحْكمة، وموْضع الشّورى في المسائل العويصة العاصفة، لرجاحة حُكمه وحزْم قراراته.. والذي كانتْ شخصيته الطاغية تُقابَل- كنظرته الثاقبة- بالحرج والمضض.

وقال في سهولة أغْنتْ عن الاعتذار:

– لقد تركتكما تنتظران.

وكان السيد "**هاميل**"- بتاج شعْره الأبيض، وقسماته الحادة، وترفُّعه المتكلف بعض الشيء- يبدو في شكل وقور.. كما كان السيد "**باستار**" بلحيته المرسلة على صدره، ورأسه المائل إلى الخلف، يفرض شخصيته ويحتلّ الصدارة في كل مكان.. ومع ذلك فقد بدا المحاميان- في حضرة السيد "**روكفيار**"- كما لو كانا في حضرة رئيس كان أولهما يتقبل رياسته عن طيب خاطر، وكان الثاني يتقبلها على الرغم منه.. وتلاشى ما كانا يمتازان به من أمارات التّفوق، أمام أمارات أخرى لا سبيل إلى إنكارها أو تجاهلها. وتمتم النقيب الشيخ وهو يبسُط يده إلى السيد "**روكفيار**":

– يا صديقي!

بينما قال السيد "**باستار**" في تكلُّف:

– يا زميلي العزيز.

وراحا يعزيانه: الأول في وُدّ وتأثر، والثاني في عبارات عادية، فأجاب مضيفهما وهو يشير بيده قاطعا عليهما استرسالهما:

– أجل، لم يبْق لي غير ولد واحد. وهذا الولد سأنقذه.. أجل، أريد أن أنقذه، وإليكما ما

قررت.

وكان هذا الاجتماع الأخير قد عُقد بالذات بين المحامين الثلاثة ليتفقوا نهائيا على خطة الدفاع، فإذا بواحد منهم ينفرد بالرأي دون مشورة.. وهتف نقيب المحامين، الذي أخذ بهذه الثقة وذلك الحزم:

– آه!

بينما ردّ السيد "**باستار**" في شك، وهو موزع بين احترام حداد ربّ الدار، وبين اعتداده بقيمة نفسه:

– قررت؟

وفي هدوء، وصوت رنَّان، أماط السيد "**روكفيار**" اللثام عن فكرته بكلمات قلائل:

– ستساعدانني أنتما الاثنان.. فأنا الذي سأتولى المرافعة!

فهتفا معا.

– أنتَ؟!

وكانت إحدى الكلمتين مُفْعمة بالدهشة، والثانية حافلة بالغضب. وحدّق السيد "**هاميل**" إلى رفيق الجهاد، القديم بعينيه الخابيتين اللتين كان بريق الحياة يرْتعش فيهما واهنا، وإن ظلّ محتفظا بصفائه.. في حين تلقّى المحامي الآخر في اسْتياء نبأ إعفائه من المرافعة في قضية حسَّاسة ومدوية.. ونسي ظروف القضية والمصائب التي نالتْ من الأسرة وأسلمتها إلى اليأس بعض الوقت؛ لكي يُقْصر تفكيره على الانتصار الذي كان يرجوه لشخصه، ثم انتزع منه بقسوة!

وقال السيد "**روكفيار**" في لهجة الأستاذ اللطيف الذي يعرف– برغم مجاملته– كيف يفرض إرادته:

– أجل، أنا.. سأطالب بابني في قوة ولسوف يُرَدُّ إليّ.. فما من أحد يُنْكرُ ابنا على أبيه!

أما وقد أمْلى إرادته، وكأنها أمر، وأعْرب عن نياته في الصّراع فقد راح يعْمل على استبقاء حليفيه، في شيْء من الدبلوماسية.. فقد كان خبيرا في الجمع بين أسلوبه الآمر وبين فن قيادة الرجال. ولما كان مُوقنا من معونة النقيب فقد ركّز كل جهوده على السيد "**باستار**" الذي كان خليقا بأن يتخلّى عنه:

– لسوف تحضران معا؛ إذ إنني أُعَوِّلُ عليكما، وإذا كنْت أطلب أنْ أحلّ محلك يا "**باستار**" فليس ذلك لأنني أقيس كفاءتي على كفاءتك، وإنما لأن هناك أمورا يمكنني موقفي الخاص الأليم– كرب الأسرة– من أن أفسرها للمحلّفين!

– وما هذه الأشياء؟

– إنها سرّ أحتفظ به، وستعرفه غدا. وإني لأعتقد أنني كفيل بإقناعهم ببراءة ابني، دون أن أورد اسم السيدة "**فرازن**"!

- هل ستتوسّل لذلك بزوال الضّرر الذي وقع؟
- لا. بل مباشرة!
- لست أفقه شيئا.
- لسوف تسْمع كل شيء. ومع ذلك، فإذا شعرتَ بشيء من الضّعف في صوتي أو كلامي، وإذا كانتْ مرافعتي توحي إليك بالخوْف من الفشل فإني أعتمد كل الاعتماد على ما لك من خبْرة عظيمة بالمحاكمات الجنائية، وعلى ما لك من حضور بديهة عجيب! إن وجوه هؤلاء القضاة كتاب مفتوح بالنسبة لك، كما أنك أفْضل مني إلماما بالقضيّة، وقد تأهبتَ لها. ولهذا فبوسْعك أن تحلّ محلي. وبهذه المساندة سأشعر بأنني قوي.. فهل أنت راغب في ذلك؟

وأخذ المحامي- الذي أُزيح بلباقة عن الدفاع- يحك لحيته برفق، وهو يخفي استياءه وراء مظهر من عدم الاكتراث. وقال:

- وما الجدوى يا زميلي العزيز؟ إنّ معاونتي لك عديمة النفع، فأنت في غير حاجة إلى أحد! إنك لا تحجم عن الاضطلاع بأسمى الأعباء وأشقها، فاسمحْ لي بأنْ اعتبر مهمتي منْتهية!

وكان المتحدّثان في تلك الأثناء واقفين، بينما جلس السيد "**هاميل**" في ركن بجوار المدفأة، يرقبهما بعينين زائغتيْن قليلا، دون أنْ يشترك في الجدال. وما لبث الأستاذ "**روكفيار**" أنْ اقترب من زميله الذي كان يصغْره سنا. فوضع يده على كتفه في حركة تنم عن وُد، وقال:

- إني أدرك يا "**باستار**" أنني أسألك خدمة كبيرة. وإذا كنت أطلب شرف الدفاع بنفسي عن ابني فافهم أن اسمي هو الذي أنتوي الدفاع عنه.. ولستُ أنكر أبداً الفرص التي تُتيحُها لنا كفاءتك، ودرايتك، ولباقتك النادرة.. ولكنك لو كنت في موقفي لفعلت ما أفعل.. فقدم لي هذا الدليل المعبر عن الصداقة وإنكار الذات، والتقدير أيضا. إنك بذلك تُثْبت لي مدى إدراكك لكلامي. أرجوك!

وظلّ السيد "**باستار**" يتخلّلْ شعر لحيته الطويل بأصابعه المضطربة وهو يوزان بين القبول والرفض، واضعا نصب عينيه- في كل مرة- تقاليد الزمالة في الهيئة التي كانوا ينْتمون إليها، وكبرياءه الجريحة التي كان يجد عناء في وضعها في المرتبة الثانية. كان قد فرض خدماته فرضا تقريبا، لا لإنقاذ موكله فحسب وإنما لينْتزع أيضا نصرا شخصيا في ساحة مكتظة بالناس، ستضُم ولا شك خيرة القوم، ولاسيما النساء التوّاقات إلى سماع مرافعته.. وبدلا من أن يتأمّله القوم واقفا في مجده مسيطرا على الموقف، سَيراهُ هؤلاء القوم- صفوة المجتمع- جالسا، وكأنه سكرتير للسيد "**روكفيار**" الغريم الخطير الذي طالما أصْلاه بردوده اللاذعة في الجلسات. فهل يليق به وضع مهين كهذا؟! ثم إن حضوره الجلسة لن يكون مُجْديا، فإن والد المتهم قد يكون- في غمرة تَحَمُّس بديع- واهما أو مخدوعا في قوة الحجة التي واتته فجاة ففتنته، والتي يقْدم على إماطة اللثام عنها.. والتي خطرت له بإيحاء حُزْن قد يكون أوهن من قوّته المعنوية وقوّته الذهنية معا.. إنّ هذه الحرارة المصطنعة التي تشيعُ الحياة فيه قد تخْبو بين لحظة وأخرى؛ ليحل

محلها أشنع أنواع الانهيار. فكيف يأمل أو يتوقع القدْرة على بذل جهد حيوي عنيف كذلك الذي تتطلبه مرافعة كهذه- أعدتْ في أمد قصير- من رجل هدّه القدر.. رجل أفلس، وانتُزع منه ابنه الأكبر بقسْوة في الليلة الماضية، ولكنه مع ذلك يريد أن يضطلع بنفسه بعبء الدفاع عن آخر أبنائه وإنقاذه من إدانة مشينة؟ إن الأمر كان بعيدا عن المعقول، ومن الخليق أن يُفسَّر هذا القرار الجديد بانه من وحْي الانفعال الغامض المنبعث عن الألم؛ ومن ثم يجدُر بالسيد "**باستار**" أن يكون على أهبة الاستعداد، فقد يُدْعَى إلى الدفاع في آخر لحظة.. هكذا توحي الحكمة.. وهذا ما يمْليه عليه- دون نزاع- واجب العناية بالدفاع، الذي يجب أن يطغى على كل فكرة لدى المحامي، وعلى كل مصْلحة شخصيّة بالذات!

على أن الاعتداد العجيب الذي كان السيد "**روكفيار**" يبْديه إزاء الخطر، حدّ من قوة هذه الدوافع الكريمة. فما لبث السيد "**باستار**" أن قال:

– لا، ليس بوُسْعي أن أجيبك إلى طلبك. إنني آسف. فإما أن آخذ على عاتقي مسؤولية المناقشات، وإما أن أنسحب تماما!

فقال السيد "**روكفيار**":

– إن الأمر يتعلق بابني، ومن الإنصاف ألا أتخلى عن الدفاع عنه.

وهنا غادر السيد "**هاميل**" مكانه ليتدخَّل في الأمر، في الوقت المناسب، قائلا:

– بوصفي نقيبا للمحامين أسالك يا زميلي العزيز أن تعاوننا. إنني أفهم دواعي تردُّدك، وكان من الممكن أن أقدر رفضك في أية ظروف أخرى.. قد تكون لدى السيد "**روكفيار**" أسْباب خاصة تجعله راغبا في الدفاع عن ابنه، برغم أن العادة جرت بأن يُوكَّل أمر الدفاع عن الأقارب إلى الغير. ولما كانتْ الخطوب قد أبهظته، فلابد أن تكون إلى جواره، إذ إنه قد يتعرّض لخطر المبالغة في الثقة بمقدرته.. وإني لأصر على رأيي.

أما وقد تطور الأمر إلى التذرع بالواجب بدلا من الاستجداء، وإلى اللجوء إلى السلطان بدلا من الإقناع، فقد طرح المحامي عنه كل تردُّد، وعمد إلى البت، فقال للشيخ في لهجة أقرب إلى الغلظة:

– لا، لا.. مستحيل! لقد عرضتُ مساعدتي في أكمل صورها، ولكنها اقتُضبَت، وتغيَّرتْ خطة الدفاع دون استشارتي، وأُخفيتْ عني حجة لابد وأنها حاسمة قاطعة.. وفي هذه الظروف، لا أملك سوى أن أنسحب، وإني لمنسحب!

ولم يتبد على وجهه المتجهِّم سوى أمارات الكبرياء الجريحة، والتفت إلى السيد "**روكفيار**" ليضيف في معالجة مصطنعة:

– هل ترغب في مذكرات مرافعتي؟ إنها توفّر عليك بعض الجَهْد، وإني لأضعها تحت أمرك.

– فكر جيدا يا زميلي.. يا صديقي.. لا تهْجرنا في المعمعة!

– إن قراري حاسم.

– نهائيا؟

– نهائيا!

واحتفظ السيد "**روكفيار**" في حديثه الأخير بمظهر متعال، هادئ، أدهش زائريه. ولما كان النقيب غير مطمئن تماما إلى نتائج هذا الرفض فإنه حاول استبقاء السيد "**باستار**"، بالرغم مما كان يُحسُّه نحوه من نفور طبيعي. فقال له:

– أتوسَّل إليك ألا تحرمنا من معونتك!

ولكن المحامي أجاب:

– إنني لحزين لهذا.. صدِّقاني!

فقال والد المتهم، دون أي انفعال:

– إذن، فإنني أستردُّ منك ملف القضية، ومحْضر المعاينة– على الأخص– وتحليل الادعاءات، وصيغة الحكم الذي صدر غيابيا.

وكان في عدم اكتراثه هذا ما أشْعر "**باستار**" بإهانة.. فعلى الرغم من أنه لم يكن ينْتوي أن يلين للرجاء إلا أنه– بما في الطبيعة الإنسانية من تناقض– لم يكن يصدِّق أن في الإمكان الاستغناء عنه؛ ومن ثم استأذن زميليه في الانصراف وقد اكْفَهرَّ وجهه غضبا. وفي خارج حجرة المكتب شدَّ مضيفه على يده بقوة– على السُّلَّم– وهو يشكره بحرارة إذ وافق على أنْ ينْسحب من تلقاء نفسه. ولم ير السيد "**باستار**" في هذه المجاملة المصطنعة سوى إهانة بالغة، فراح يذْرع البلدة، محطِّما لدى الرأي العام عدالة قضية آل "**روكفيار**"، مُعلنا غرور الأب، واحتمال إدانة الابن!

ولم يُفلحْ السيد "**هاميل**"– بعد انصراف المحامي– في أن يُخْفي أساه، وهواجسه، وقلقه الذي راح يعذبه ويزيد من وطأة السنين على كاهله. أليس إبعاد المحامي المعروف في القضايا الجنائية– طواعية– تصرفا بعيدا عن الحكمة؟

أو ليس ينْطوي على مغامرة قد يدفع آل "**روكفيار**" ثمنها غاليا؟ ما الداعي إلى الإقدام في الساعة الأخيرة على اتخاذ هذا الإجراء الذي من شأنه أن يشيع الاضطراب والفوضى في معسكر الدفاع؟ وأعرب عن هذه الآراء في تلطُّف مشُوب بالحزْم، فلما رأى حديثه يضيع عبثا كفَّ عن الاسترسال فيه، وقال في لهجة حزينة:

– يا صديقي: لقد جئت منذ لحظة ووجهك مشرق بإلهام نفسي؛ فأدركتُ وأنا أنظر إليك أنك لن تُصْغِي إلى أحد. فمن أين كنت قادما؟

فأجاب السيد "**روكفيار**" الذي كان قد احْتمل تأنيبه في احترام:

– من ضَيْعة البرج.. لقد تحدث الموتى إليَّ.. إنهم لا يريدون من دجَّال أن يتذرع بما يناقض فضائلهم من أجل خطأ أحد أحفادهم!

فهتف النقيب الشيخ مأخوذا:

- الموتى؟

- أجل، أمواتي.. أولئك الذين كونوا عشيرتي وصانوها. لسوف يكونون غدا الضامنين لشرفنا. فكم عدد الذين ضحوا بأنفسهم- منذ أول اسم منا إلى اسم ابني الأكبر- في سبيل المصْلحة العامة.. أفتريد ألا يكون لهذه التضْحيات حساب؟

- إني أُؤمن بعوْدة الروح وأفهمها. ولكنْ، هل يفْهمها المحلّفون؟

فقال مُضيفُه في اعتداد اهتزّ له الشيخ:

- يجب أن يفهموها!

وقال النقيب:

- إن ثمة شيئا يَسْري في كيانك ويؤثّر في أولئك الذين يتحدثون إليك، فينساب إلى نفوسهم! أجل لسوف تدافع عن ابنك خيرا من أي محام آخر؛ فإنّ لديك القوّة والسطوة، وسيكون لي شرف معاونتك غدا. لأتركك الآن للعمل، فوداعا!

ولفّ كتفيه النّحيلتيْن بمعطفه البالي، وسار إلى الباب بسرْعة مباغتة.

وبعد أن اصْطَحب السيد "**روكفيار**" النقيب إلى الباب الخارجي، نادى:

- "**مرجريت**"!

وظهرتْ الفتاة في التو، قائلة:

- هأنذي!

فقد كانتْ في الحجْرة المجاورة، تنتظر اللحْظة التي يعود فيها أبوها.

وقال الشيخ:

- تعاليْ، فإني أريد أنْ أتحدّث إليك.

وقادها إلى مكتبه وسألها في عجلة:

- هل رأيتَ "**موريس**" في السجن؟

فأجابته:

- نعم يا أبي، وقد بكينا معا!

- بكيتما؟ نعم إن قلبي قد انْتُزع من مكانه، ولكنني لا أبكي مع ذلك. ولسوف أغدو حرا- مساء غد- في أن أبكي ما أسعفني الدمع. أما قبل ذلك فلن أَذْرف دمعة واحدة!

وكانت "**مرجريت**" قد ارتاعتْ بعض الشيء لذلك التحمس الذي ردَّ الشباب وأضاء ذاك الوجه العزيز الذي طالما تتبّعتْ ما تعاقب عليه من أمارات الألم التي سبَّبَها ما حلَّ بالأسرة من نكبات؛ لذلك، انتهزتْ الفرصة دون إبطاء لتتمّ مهمتها في إصْلاح ذات البيْن بين أبيها وأخيها، فقالتْ:

- إنّ "**موريس**" يطالب بمكانه في قلْبكَ يا أبي.

فقال:

– إنه لم يَفْقده قط!

وهتفتْ الفتاة وقد أشرق وجهها:

– كنتُ أعرف هذا جيدا.. أتصْفَح عنه؟

وقال الأب:

– لقد صفحتُ عنه منذ أمد طويل.

فصاحتْ الفتاة:

– آه!

– أتُراك شككت يا صغيرتي في أبيك ليلة عاد أخوك؟

– آه! لا، فلماذا لا تُنبئه بذلك؟

– إنه لم يسألني إياه.

– بل إنه يسألك إياه.. وهو يرجوك أن توجه الدفاع عنه الوجهة التي ترتضيها، دون أي قيد. فهو يوقِن أنك ستعنى بكل ما يمسّ شرفه!

– دون أي قيد؟ لقد فات الأوان!

– ولماذا فات الأوان؟

– لأني أعفيْتُ محاميه، السيد "**باستار**".

– ومن الذي سيتولى الدفاع؟

– أنا!

فهتفت "**مرجريت**" وهي تَرْتَمي بين ذراعيه:

– آه! كنت قد كففْت عن الأمل في ذلك! لقد طالما رغبتُ فيه!

وضمّ السيد "**روكفيار**" ابنته إلى صدره بقوة، وهو مشغول البال بمهمته الجديدة العاجلة، وقال:

– إنك تثقين دائما بي يا صغيرتي، فاذهبي وأحْضري لي سجلات الأسرة كلها، حتى القديم منها.

وفي غيبة ابنته عن الحجرة تسلّم ملف القضية الذي أرسله السيد "**باستار**" ففتحه وراح يقلب أوراقه وهو يتأمل ساعته:

– لقد ناهزت الساعة السادسة، فهل سيكون لديّ متسع من الوقت؟

وراح يتأمّلُ– في كَرْب– أكداس الكتب الضّخْمة التي أخذتْ "**مرجريت**" تحضرها على دفعات.. وأخيرا قالتْ الفتاة:

– ها هي ذي.. إن لدينا الكثير مما هو أقدم منها عهدا.

كانت هذه المجلدات تضُمُّ عمل وكرامة وشرف خمسمائة عام.. وقدّمتْ "**مرجريت**" لأبيها في النهاية كتابا أقلّ حجما من سواه، وقالتْ وقد تضرّج وجهها قليلا:

– هنا لخَّصْت تاريخنا، وسجّلتْ خطوطه الرئيسية، لاسيما الخدمات التي أديت من أجل

الوطن.. إنه مُلخّص في كثير من التوسّع!

– هل حدستِ أننا قد نحتاج إليه يوما؟

– لا، يا أبت.. إنما كتبته في الشتاء الماضي؛ لأرد على الشانئين الذين حاولوا النيل منا. وقد قرأتُ على أمي فقرات منه، فاقرَّتْني!

– إنك كنت بهذا تُعدِّين الدفاع عن "**موريس**"!

– بهذا؟

– أجل، فَدعِيني أنصرف للعمل.

وما إن ابتعدتْ حتى ناداها ثانية وقال:

– لديَّ أمر آخر أريد أن أقوله لك يا "**مرجريت**".

فارتدَّت إليه الفتاة مسرعة. وقبل أن يتكلّم أخذ يغمرها بتلك النظرة الأبوية التي تَهبُ دون أن تأخذ، وتذُود دون أن تحقْد. وتأمَّل هدوء أساريرها وشحوبها وحلاوة ملامحها. ثم قال:

– لقد صادفت "**ريمون بيرسي**" وأنا أَلجُ الدار يا صغيرتي.. كان في الطابق الأسفل، على عتبة الباب الخارجي، جامدا بلا حراك، مُسْتَغرقا في التفكير، مُضْطربًا.. ولقد تقدَّم نحوي خطوة؛ وكأنه يريد أن يتحدث إليَّ. ولكنه لم يجد الفرصة؛ لأنني سرعان ما تجاوزته!

فلم يَبْدُ على الفتاة أيّ تأثُّر، بل أجابت:

– لقد كان مُنْصرفًا من هنا يا أبي.

– آه، وماذا كان يبْغي؟

– أنْ يقفَ بجوارك غدا.

– يا لها من فكرة؟ وبأية صفة؟

– بوصفه ابنا لك.

– ابنا؟ إذن فقد طلب يدكِ؟

ولما أجابت الفتاة:

– نعم.

هتف:

– ومع ذلك فإنك أَخْفَيْت عَنّي النبأ.. لقد رَثَى الله لحالنا يا "**مرجريت**".. لقد أشْفق علينا لفرط ما مسَّنا من مِحَن! وإنّ تَصرُّف "**ريمون بيرسي**" لنبيل، فهو لم ينتظر حتى نبْرأ أمام الرأي العام من كل اتهام ثم يعود إلينا.. وبماذا أجبته؟

فقالتْ:

– لقد رفضت!

وإذ ذاك أجْفل السيد "**روكفيار**" في دهْشة، ثم جذب إليه ابنته في حنان، وراح ينْظر إلى

أعماق عيْنيها الصافيتيْن. وقال:

– رفَضْتِ؟ ولماذا؟ أستطيع أنْ أحدس السبب: لقد فكَّرْت في أمري يا عزيزتي! إنك تُضحِّين بنَفْسك من أجل أبيك، ولكن أباك يَرْفض هذا يا عزيزتي، فلطالما قلت لك إن الآباء يَضَعُون حياتهم في المرتبة الثانية بعد حياة أبنائهم.. هذا هو الأمر الطبيعي، والعكس خطأ!

فتمتمتْ الفتاة قائلة:

– لكم أحبكَ يا أبت، وإنك لتدري ذلك. ولكنكَ تخطئ في حدسك، وأقسم لك!

– ألم يكن الرفض من أجلي؟

– نعم يا أبت!

وتبيَّن على الوهج النقي– الذي كان ينبعث من عينيها الصافيتين وينعكس على الوجه الشاحب– حقيقة نفس ابنته. ألم تَسْنح له الفرصة، مرة قبل اليوم، كي يفهم هذه الحقيقة؟ كان الله ينْتزع منه أولاده واحدا بعد آخر، فأية حُمّى تلك التي كانت تستبد بهم وتكويهم وتدفعهم إلى الزهد في الحياة؟! ألم يكن خليقا به أن يرى في هذه القرابين المتعاقبة كفّارة عن المذْنب؟! وتذكّر إذ ذاك صباح يوم من أيام الصيف، وقد وقف على ميناء "**مارسيليا**" يرقُب– على بواكير ضوء النهار الوليد– تلك الباخرة التي أقلّتْ ابنته "**فيليسي**" إلى "**الصين**". ولم يتمالك أن ضَمَّ "**مرجريت**" بقوة إلى قلبه المرتجف، وتمتم:

– أنت أيضا؟

فطوّقتْ عنقه، وهَمستْ في أذنه، وهي تُقبِّله:

– ليس الآن يا أبي.

– أتنتوين ذلك بعد موتي؟

– نعم؟

واستبقاها برهة متكئة عليه كما تفعل الطفلة المدللة.. وكما كانت تفعل في الأيام الخوالي، حين كان يمسك بها في حذَر. وأخذ يفكر فيما كان يشْعُر به وهي ما تزال بقُرْبه.. وتردد في أن يقبل منها تلك المهلة التي انبعثت عن إشفاقها من أن تتركه وحده، ولكن مرآة كانت في مواجهته عكست أمامه صورة تلك الوحدة التي جمعت بينه وبين "**مرجريت**". ولمح بنظرة واحدة ما اعترى وجهه من تغيرات خلال العام الأخير، ثم قال لنفسه:

– غدا سأكون قد أنقذْت "**موريس**"؛ وبذلك تنتهي مهمتي. ولن أُعمَّر بعد ذلك طويلا! وانحنى على ابنته فلثَم وجهها الحبيب، إشارة إلى موافقته. ثم عاد إلى الفكرة الرئيسية التي كانت تختمر في رأسه، فطرح العواطف جانبا، وشرع يتاهب للمعركة، وهو يقول:

– أعدي العشاء في الساعة الثامنة. إن أمامي عملا يستغرق حوالي الساعتين، هما الفترة اللازمة لاستعادة تفصيلات هذا الملف، وإن كنت أعرفها. ولسوف آوي إلى فراشي في الساعة التاسعة؛ لأستيقظ في الثالثة صباحا. ثم أُعِدُّ دفاعي من الثالثة حتى التاسعة.. أي إلى ما قبل

بدء الجلسة!

– حسنا يا أبي. لقد تسلمتُ خطابا من "**جيرمين**".. إن قلبها معنا!

– اقرئيه عليّ أثناء تناول العشاء.

– ولسوف يحضر "**شارل**" غدا بقطار الساعة الواحدة، فليس بِوُسْعه أن يأتيَ قبل ذلك.

– سأنتظره!

– والآن أتركك يا أبي!

وما إن أغلق الباب خلف "**مرجريت**" حتى أمسك في وجْد بصورة لـ"**هوبير**" كانت على المنضدة، فتأمل طويلا رسْم ابنه الأكبر، وقال في سريرته يخاطبه:

– اغفر لي؛ لأني أقْصر كل تفكيري على أخيك. غدا أناديك، وأتحدَّث إليك، وأَبْكيك.. فلا تخْش أنْ أنساك، ولكنك ترى أنني لستُ حرا.. غدا سأخلو إليك. أما الليلة فإنني ملْك لسلالتنا بأسرها!

ووضع الصورة أمامه في رفْق، وطَوَى لوْعته إزاء الضرورة الملحة.. وانهمك في العمل.

٧- "جان ساسيناي"

مَثَلت "**مرجريت روكفيار**" أمام المحكمة، إطاعة لأبيها، فأدلت بما كان لديها من بيانات عن المال الذي كان مُعَدّا لجهاز عُرْسها، والذي أسلمته إلى أخيها "**موريس**" في ليلة رحيله إلى "**إيطاليا**".. وعن المال الذي أرسلته إليه في "**أورتا**"، ثم عادت إلى دارها في عجلة، وكأنما طغى عليها الخجل إذ ألقت ضوءا على جودها وسخائها.. لقد استطاعتْ بهذا الجهْد المحدود أنْ تساهم في الدفاع عن المتهم.. وراحتْ تلوم نفسها على ما اعتراها من ضَعْف، وما تولاها من خجل وارتباك وهي تُجيبُ عن أسئلة رئيس المحكمة.. فقد كانت تُضْمر مروءتها في أعماقها، وكان إظهارها للملأ لا يروق لها. وأخذت تنعي على نفسها تواضعها الذي تراءى لها كما لو كان جبنا، فخَشيت أن تكون قد أساءت بتردُّدِها إلى ما كانت ترمي إليه من جَعْل شهادتها واضحة صريحة.

تُرَى ما الذي جرَى قبل دخولها إلى قاعة الجلسة، وبعد خروجها منها في عَجَلة، كما لو كانت هاربة؟ لم تكن تذكر شيئا من هذا، وكان ما تذكَّرتْه هو ذلك الوَجل الذي اسْتَحْوذ عليها من جراء هذا الاتصال القصير بالعدالة، والذي لم تستطع أن تتغلّب عليه. فما إنْ ضمها مع الشهود الآخرين المكان المخصَّص لهم، حتى سمعت الحاجب يَسْتَدْعيهم واحدا بعد آخر، ثم رأتهم يختفون.. وكان عم أبيها "**اتيين**"، وزوجة عمها "**تيريز**" من بينهم. وظلتْ وحيدة قريبا، حتى حلَّ دورها، فاقتيدَت إلى قاعة الجلسة. وكالممثلة الجديدة حين يُدْفع بها على المسرح، راحت ترتجف وهي تلمح الحشْد الذي زخرت به القاعة: تحت المنصة التي في الصدر، وفوقها، وفي القاعة، وفي الشُّرفة.. كانت ثمة أنظار كثيرة تحدق إليها وكأنها تخزُّها

وتجرَحها.. كانت بلدة "**شامبيري**" بأسْرها هناك، تُحَمْلق في غير إشفاق، إلى ابنة وَجلة، ولعلها ستُحمْلق بعد قليل بنهم إلى أسرة عريقة تحتضر!

وألْفَت نفسها أخيرا أمام ثلاثة قضاة في زيّ أحمر، وإلى يمينهم مقاعد المحلّفين، وكادت تَسْقُط على الأرض وهي تذكُر اسمها، لولا أن جَلْجَل في أذنيها صوتُ أبيها.. هذا الصوت العذب، الدافئ- الذي كانت تالفُه- فشدَّ من أزْرها في الحال، وكأنه دواء مُقَوّ للقلب! وكان المحامي يقف أمام "**موريس**" وكأنه يحْميه.. وكان هادئا إلى درجة أدهشتها ونقلتْ إليها عنه عدوى الطمأنينة. وكان يُمْلي في نبرات واضحة صيغة السؤال الذي يريد أن يوجهه إليها. ولقيَت عناء في سبيل الإجابة بوضوح، ثم أذن لها بالانصراف، فانطلقت إلى خارج القاعة كصيد يَلُوذ بالغابات، وهي تلوم نفسها قائلة:

- لن يرضى أبي عني.. ما أقواه في اعتداده وطمانينته.. وما أعظم تمالكه نفسه، وما أشدّ مهابته! لقد نهض مرتين فأحسَسْتُ في كل مرة بصمت عميق يُسَيْطرُ على القاعة.. وكانت عيناه تَشعَّان لهيبا.. وكان يبْدُو شابا.. إنه قوتنا وعمادنا!

وعاد السيد "**روكفيار**"- في منتصف الساعة الواحدة- للغداء، فما إن بلغ الباب حتى قال للخادم:

- أعدي لنا الطعام بسرعة يا "**ميلاني**"؛ فإني في عجلة!

وكانت تبدو عليه سيماء المجاهد: فقد تجعَّد جبينه، وانطلقتْ نظراته سديدة، لا سبيل إلى تحاشيها، ومن الصّعب الصمود لها، بينما تقلّصتْ عضلات وجهه.. كانت الليالي الأخيرة التي قضاها مُسْهدا قد تحالفتْ مع الأسى والقلق فمكَّنت للشيخوخة من أن تدبَّ إلى قسماته، وإن كانتْ إرادته الفولاذية قد حدَّدَتْ مؤقتا من أثر تألُّب السنين والتعب والحزن عليه!

وسألته "**مرجريت**" في رجاء:

- ما الأنباء يا أبي؟

فقال مُطمئنا:

- ستُسْتَأنف الجلسة في الساعة الثانية.

- ألم تنته القضية؟

- لا، لا.

- وما الذي جرى؟

- كأنك لم تري شيئا.

- أوه! لا يا أبت. لقد غادرت المكان، فقُصّ عليّ كل شيء.. ألا انظر، إنني أرتعش!

- ينبغي ألا ترتعشي يا "**مرجريت**".. كوني واثقة!

وخلال تناول الطعام- بسرعة، دون شهية- شرع يلخّص لها المناقشات:

- لا شك أنك لم تفهمي شيئا من الإجراءات الرسمية الخاصة بالمحلّفين، وبحلف اليمين،

وبالاتهام، وباستدعاء الشهود!

فقالتْ:

– لقد كنتُ على مقْربة منك في القاعة يا أبي، وعندما نُودي اسمي نهضتُ وأُرْشِدْت إلى حجرة أخرى، وجدتُ بها العم "**اتيين**" والعمة "تيريز".

– هذه كانت قاعة الشهود. لقد ابتدأتْ أقوال الشهود بعد قراءة قرار الاتهام، والمحضر الذي أعدَّه رئيس البوليس عن سرقة المائة ألف فرنك، واستجواب "**موريس**" الذي أصرَّ على أنه بريء، ورفض أن يتهم أحدا برغم إلحاح رئيس المحكمة ثم شهود الإثبات. ولقد كان رئيس كتبة "**فرازن**" أكثر الناس تحامُلا على "**موريس**". إن هذا المدعو "**فيليبو**" يكرهنا لسبب أجهله؛ إذ أدلى بشهادته وقد استبد به سُعَار التشهير والتعريض، وراح يورد قرائن اخترعها وفسَّرها وفق هواه– في خُبْثٍ ولؤم– وصاغها في شكل أدلة لا تقبل الدَّحْض!

وتساءلتْ "**مرجريت**":

– وما هذه القرائن؟

فأجاب:

– معرفة وجود نقود في الخزانة الحديدية، وإمكان اكتشاف الأرقام السرية لقفل الخزانة– من المفكرة– وإن لم يستطع إقامة دليل على ذلك.. ثم بقاء "**موريس**" في المكتب ومعه المفاتيح إلى ساعة متأخرة من الليلة التي سافر فيها إلى الخارج.. واستحالة تصوُّر وجود متهم آخر.. وغير ذلك. ولقد ردَّد الكتبة الآخرون شهادته كتلاميذ يردّدُون درسا لُقِّنوه، ولكنهم كانوا أقلّ تفصيلا وتأكيدا. وحان في النهاية دور خادم السيدة "**فرازن**"، التي أغْروها– ولابد– بالمال، لأنها ادَّعَتْ بأن سَيِّدَتها لم تَلجْ حجرة المكتب قط، في غياب السيد. ولكن أية قيمة لهذا؟ أكان على السيدة "**فرازن**" أن تَسْتَدْعي خدمها كي يشاهدوا عملية اختلاس المال؟ على أني مضطر إلى ألا أتهمها أنا الآخر!

– ولكن "**موريس**" لم يَعُدْ يعارض في ذلك؟

– لن أفعل ذلك. لقد دفعْنَا دينه، وليبق السّر دفينا إلى الأبد! ولقد ذكرت اسمك واسمْي، وعمَك "**اتيين**" وزوجة عمك "**تيريز**" كشهود نفي؛ لأثبت أن "**موريس**" لم يسافر وهو معْدم بلا مال. كذلك ذكرت اسم الموظف الذي يعمل في شركة الائتمان، الذي سلَّمك في آخر تشرن الأول (أكتوبر) الماضي إذنا بمبلغ ثمانية آلاف فرنك تُصْرف باسم أخيك من المصرف الدولي بميلان.. وأخيرا، اسم الأستاذ "**دودان**" الموثِّق.

فتساءلتْ "**مرجريت**":

– ولم ذكرت هذا الأخير؟

فقال:

– ليبيِّن حقيقة المائة ألف فرنك التي دفعتها عن طريقه للسيد "**فرازن**"، واسم المشتري

الحقيقي لمزرعة البرج. ولقد أحلَّه الرئيس- بعد مشورة السيد "**لاتاش**"، رئيس غرفة الموثقين- من سر المهنة، فاستوجب هذا أنْ يكتشف للمحلفين عن الصّفقة الرابحة التي دبّرها السيد "**فرازن**".

فسألته الفتاة:

- إذن، فالسيد "**فرازن**" هو الذي اشترى المزرعة، لنفسه، وليقيم حيث كنا؟

فسألها الأب بدوره:

- أو لم تعرفي هذا؟

فأجابتْ:

- ما كان ليخْطر ببالي.. وما أكثر الأشياء التي لا أفهمها.. لقد كان يبْدو عليه- في موسم حَصاد العنب الماضي- الاهتمام بالاستقصاء والتحرّي.. كان مهتما بكل شيء!

- أجل يا صغيرتي.. إنه هو الذي سيحلُّ محل آل "**روكفيار**"، ويستأنف عملهم. لقد استولى على كل شيء، دون مقابل!

ثم استأنف الحديث بعد هذا التعليق المرير:

- لقد بدأ محاميه الكلام في الساعة الحادية عشرة.

فسألته:

- وأيُّ محام هو يا أبي؟

فأجاب:

- محام يُدْعى "**بورتيريو**"، من "**ليون**". فإنه لم يُوفَّق إلى محام من "**شامبيري**"!

- مراعاة لخاطرك؟

- بلا شك!

- وما الذي جَرُؤَ على قوله؟

- إنه رَجُلٌ ماهر، بارعُ الإشارة، عنيفٌ في اتزان وبرود ولقد شرع يرسُم لـ"**موريس**" صورة مُغرضة، شمله كشباب اليوم الذي لا يقوى على كبح جماحه شيء، ووصفه بأنه مُتَطرِّف في تفسير حقوقه الفردية، حريص على تنمية شخصيته وعلى الفوز بسعادته ولو داس في سبيل ذلك سعادة سواه، ويأبى الانضواء تحت لواء مجتمع منظّم، وإنما هو- في النهاية- من أولئك المثقفين، الفوضويين، القادرين على أنْ يتجاوزوا نطاق الأفكار، إلى نطاق الأعمال.

واستطرد يقول:

- سلوا زملاءه وأصدقاءه.. إنهم لا يستطيعون أن يُنْكرُوا أنه لم يكف في مناقشاته قط عن ازدراء وهدْم الأوضاع القائمة، وأنه يُقْصر إعجابه على النظريات الهدّامة التي ينادي بها فيلسوف ألماني يرى أن المثل الأعلى للإنسانية- أي الرجل المثالي- هو ذاك الذي يبْني صرح سعادته على أنقاض وآلام الصغار، والعُزَّل، والضعفاء.. ومن ثم لم يُوفَّق المتهم إلى التفاهم مع

أبيه؛ لأنه كان يضيق ذرعا بسلطانه عليه!

فتمتمتْ "**مرجريت**" مستنكرة:

– أقال هذا؟

فأجابها أبوها:

– أجل، فأنا أوجز لك ما قال.. لقد اتَّخذ مني حُجَّة، ومن أسرتنا حجة أخرى تذرَّع بها ليزْعم أن المتهم لا يستطيع أن يلتمس لنفسه عُذْرا، مُتَعلّلا بسوء تربية، أو بنقص تعليم، أو بقدوة سيئة، أو بطفولة تَعسَة تملأ نفسه مرارة إلى الأبد.. ولست أحب أن أَرْوي لك ما صوّر به إغراء الشاب للسيدة "**فرازن**"، من أجل مصلحته الشخصية.

فهتفتْ الفتاة:

– مصلحته الشخصية؟

فأجاب أبوها:

– أجل، فإن "**موريس**" في استهتاره بجميع القيم الخلقية– كما صوَّره المحامي– اشتهى المرأة والمال معا، دون وازع من ضمير.. ولما تمكّن الأستاذ "**بورتيريو**" – أو ظنّ أنه تمكّن– من أن يجعل سوء استغلال الثقة أمرا ملموسا، طرق موضوع الاتهام، وتلك التي لم يتورَّعْ عن أن يُسَمّيها بالأدلة المادية: السيدة "**فرازن**" توافق على الرحيل، والزوج غائب، واليوم مناسب، والساعة ليس لها مثيل. ولما كان العشيق لا يملك ثروة خاصة فلابد من أن يبحث عن نفقات الرحلة.. وهو يعلم بوجود المبلغ الذي قبض ثمنا لمزرعة "بيلفاد"، وقد اكتشف الرقم السري في مفكرة، فعمل على أن يستولي على المفاتيح، ودبَّر البقاء بمفرده في المكتب، ثم أخذ المبلغ وفرّ مع عشيقته إلى الخارج.. فهو ليس المذنب الوحيد فحسب، بل لا مذنب هناك سواه!

وسألته "**مرجريت**":

– والسيدة "**فرازن**"؟

فقال:

– السيدة "**فرازن**"؟ ليتَّهِمْها.. ليَجْرُؤْ على اتهامها! لقد لاذ بالصمت في التحقيق، وهو يتشبَّث به في الجلسة.. إنني أتحدّاه أن يتهمها!

– هكذا قال المحامي الذي عَلمَ ولأبُدَّ– عن طريق عدم حيطة "**باستار**"– بعناد "**موريس**" الكريم. واستطرد مبينا أن هذا الصمت يُدينه؛ لأنه بمثابة اعتراف!

وغادرا قاعة المائدة إلى غرفة المكتب. وكانت "**مرجريت**" تسمع خلال هذا التلخيص اللأَذع– الذي حرص أبوها على سرْدِه بامانة– هدير الغضب والأسى الأبويين، فذعرتْ، وتمتمتْ:

– أنعتبر في حكم الضائعين يا أبي، أم ما يزال لديك أمل؟

فأجاب:

– بل ما يزال لديّ أمل.

وعادتْ تسأله:

– ومتى تنتهي القضية؟

فقال:

– سيستأنف السيد "**بورتيريو**" مرافعته في الساعة الثانية.. بعد أربعين دقيقة. فهتفت: ألم يكتف بما أساء به إلينا؟

– لا يبدو عليه ذلك. فإن لديه حجة أخيرة يريد أن يسوقها.

وتساءلت "**مرجريت**" في قلق:

– وما هي؟

فأجاب السيد "**روكفيار**":

– ما يعتبره اعترافا جديدا، ممثلا في تَسْديدي مبلغ المائة ألف فرنك، وأعتقد أن دَوْري سيحين قبل الساعة الثالثة. وفي الرابعة، أو الرابعة والنصف، أكون قد فرغْت من مرافعتي.

ثم أردف متظاهرا بهدوء البال:

– إن قطار "**شارل**" يصل في الساعة الواحدة. فلابد من أن يكون زوج أختك قد وصل.

وفعلا، لم يلبث "**شارل مارسيلاز**" أن طرق الباب بعد قليل. وأقبل على حميه، قائلا:

– ما الأنباء يا أبي؟ لقد بكت "**جيرمين**" وهي تودِّعني– في هذا الصباح– فحذا الأولاد الثلاثة حَذْوها. إن البرقية التي أرسلتها أمس أحزنتنا كل الحزن. يا لـ"**هوبير**" المسكين!

– لقد كُنْت في انتظارك يا "**شارل**"، فإن مكانك إلى جواري، ستُطْلعُكَ "**مرجريت**" على الأنباء، ريثما تتناول غداءك. فاتركاني بضع دقائق، وكنْ مُسْتعدا يا "**شارل**" في الساعة الثانية إلا خمس دقائق.

– لسوف تجدُني مُتَأَهِّبا. آه! أريد أن أنبئك بأنني دَبّرْت إجراءاتي لأرد لك نصف صداق "**جيرمين**"، على أن أدفع الباقي فيما بعد.

وكانت لهجته تنم عن عدم الرضا، كمن لم يألف فعل الخير؛ ومن ثمّ فهو يفعله مكرها.. كان تيار الصالح العام قد جرفه، ولكن عقله ظلّ يعْترض، وإن أَبَى أن يعلن تخلّفه.. على أن السيد "**روكفيار**" قال له:

– لست أقبل.

وكان تأثره بهذه التضحية أقوى من تأثره بالعوامل المعارضة التي اكتنفتها وحاولت منعها، فأردف:

– ألا فاقبلني!

وهكذا توثقت عُرَى الأُلْفة بين الأسرة في البأساء..

وخلا المحامي إلى نفسه ربع ساعة ليَستجْمع الحجج التي سيسوقها في مرافعته.. وكان ما

رواه لابنته، في ثورة نفسية عاتية قد خفف من الغضب والهوان اللذين تكاثفا في نفسه منذ الصباح، وهو يُصْغي إلى الاتهامات المشينة التي وجهت إلى ابنه؛ لذلك، استراحتْ أعصابه، وانفثأ غضبه كبحر تعاوده السكينة بعد هبوب الريح.. وعندما حانت اللحظة التي كان عليه أن يعود فيها إلى دار القضاء تبيَّنَت "**مرجريت**" في أساريره أنه صار أهدأ نفسا.. ورأت في نظرته ذلك الصفاء الذي عاد به من المزرعة ليلة أمس.. فقالت تودعه:

– إلى المساء يا أبي.. وليساعدك الله!

فأجاب مسرعا وقد بلغ الباب الخارجي:

– إلى المساء يا صغيرتي.. مع "**موريس**"!

احتبست الفتاة نفسها في غرفتها لتُصَلّي، حتى أقبلتْ "**جان ساسيناي**" تَنْشُد مقابلتها قائلة للخادمة:

– الآنسة "**مرجريت**" من فضلك.

ولما كانت الخادمة قد أصبحتْ أكثر صَلابة ويقَظة، منذ الوقت الذي أصّر فيه "**ريمون بيرسي**" على مقابلة "**مرجريت**" فقد رفضتْ في إصرار أن تجيب هذا الطلب غير المناسب، قائلة:

– إن الآنسة متْعبة، وهي لا تستقبل أحدا.

فهتفت الزائرة:

– فلْيكُن.. ولكنني سأراها برغم ذلك.

وأزاحت الخادم المشدوهة عن طريقها، قبل أن تتمكّن هذه من أن تعترضها، وركضتْ في الردهة نحو غرفة صديقتها– وكانت تعرف موقعها– ثم راحتْ تطرق الباب في عجَلة، وولجَت فألقت بنفسها في أحضان "**مرجريت**" هاتفة:

– أنا القادمة، فلا تطْرديني.. ليس لـ"**ميلاني**" ذنب في ذلك!

وصاحت "**مرجريت**":

– أهذه أنت يا "**جان**"؟ لماذا أتيْت؟

فأجابتْ الفتاة:

– لأنك وحيدة مهمومة.. إن هناك عددا كبيرا من السيدات اللاتي ذهبن إلى الجلسة وكأنهن ذاهبات إلى حفلة للهو والسَّمر. أما أنا، فقد رأيتُ أن مكاني هنا، بجوارك. إنني أُحبُّك كل الحب.

فربتت "**مرجريت**" خدَّ صديقتها قائلة:

– ما أطيبك!

– آه، لا! كل ما هنالك هو أنني أُكنُّ لك وُدا كبيرا.. لقد كنت أُعْجَبُ بك منذ صغري، ولكم أود أن أكون مثلك!

وغيَّرت الفتاة مجْرى الحديث فجاة؛ إذ قالت وكأنها تُسرُّ إليها بأمر خاص:
– تصوَّري أنهن اتَّخَذْن أبهى زينة ليذهبن إلى دار القضاء.. تماما كما لو كنَّ ذاهبات إلى حفلة صباحية!
فتساءلتْ "**مرجريت**":
– من؟
وأجابت الفتاة:
– هؤلاء السيدات!
فقالت الآنسة "**روكفيار**" في حَسْرة:
– أجل.. إن الأمر يمسُّ شرفنا؛ ومن ثمَّ فهو مَشْهد مُمْتِع!
فأمسكت "**جان ساسيناي**" بيدها وقالت:
– أما أنا فلا يساورني أي قلق.
ثم أردفتْ في لهجة المسيطر الذي يحسم نزاعا:
– وعلى العموم، فبأي وزر خطير يؤاخَذ أخوك؟ أبأنه اختطف امرأة؟ ليس هذا بوزْر يُذْكَر!
وابتسمت "**مرجريت**" بالرغم من حزنها، فتشجعتْ صديقتها على المُضيِّ في حملتها:
– إنك لتفهمين جيدا أن المرأة لا تُنْتَزع كما تُنْتَزع الشائبة عن الثوب.. إنني أنشب أظافري فيمن يقْدم على اختطافي، وأعضُّه، وأُلْحقُ به ضررا جسيما.. ما لم أكن راغبة في الرحيل معه!
فهتفتْ "**مرجريت**":
– صه يا "**جان**"!
– آه! من يدري؟ إن المرء إذا أحبّ صار قادرا على كل شيء.. فالحب شيء فظيع!
– وما الذي تعرفينه عنه؟
– ولم لا أعرف عنه شيئا؟ إنني لم أعُدْ صبية صغيرة!
وضغطت الآنسة "**ساسيناي**" قبَّعتَها التي فقدت التوازن فوق شعرها الأصفر، ثم أخذتْ تنسِّق الخصلات التي تهدّلتْ على جبينها، وتصنّعت شرود البال ريثما تتغلب على حمرة الخجل التي سرتْ في وجهها، ثم تساءلتْ:
– وهذه المرأة الشريرة، أتظنِّينه لم يعد يحبها؟
فقالت "**مرجريت**":
– "**موريس**"؟ لا أظن!
– أواثقة أنت؟
– إنه لا يتحدث عنها.
– أو لم يرها أحد بعد فرارها؟

فأجابت الآنسة "**روكفيار**" :

– لا .

فاندفعت "**جان**" تقول :

– هذا أفضل! إنني أكرهها، فهي– أولا– لم تكن جميلة إلى هذا الحد . صحيح أن عينيها كانتا جميلتين، ولكن نظراتهما كانت متكلّفة . ولقد كانت لها ابتسامات، وغمزات، وتكلف مُغْر، وفن في تصنُّع أوضاع رأسها على عنقها، وهزات كتفيها وردفيها .

ونَهضَتْ عن مقعدها بسُرْعة، وراحتْ تسير في الحجرة مقلِّدة السيدة "**فرازن**" ، ممثلة حركاتها وإشاراتها العصبية التي كانت تنمّ عن فورات داخلية .

فصاحتْ "**مرجريت**" :

– "**جان**" . . أرجوك!

ولكن الفتاة استأنفتْ حديثها، وقد استبدَّ بها الحماس، قائلة :

– لا، لا، أؤكد أن السمراوات لا يضارعْن الشقراوات، لا في اللون ولا في البهاء . فأنت بشعرك الكستنائي تجمعين جمال النساء جميعا . . ولكنك لا تتكلّفين ولا تتصنَّعين . . ثم إنني أكرهها!

– ولكن . . من تقصدين؟

– السيدة "**فرازن**" ؛ لأنها امرأة مشؤومة، تَجْلب النَّحْس . ولقد أصاب أخاك من ورائها شرٌّ وبيل . . لقد أشقته، ولم تكن تحبه، فهي الجديرة بأن تُلْقَى في السجن . أما أخوك، فسوف تبْرأ ساحته . ولعلك تعلمين أن أبي وأمي يتحمَّسان له . وقد كان والدي ينْفُر منه، ولكنني أنبته ولمته . ولكَمْ أود أن أراه مطلق السراح . فإذا تحقَّق ذلك فهنئيه عني . . لابد أن الأمر سينتهي على خير وجه، فيُقْضَى ببراءته .

وكانت تثرْثرُ دون توقُّف، فقاطعتْها "**مرجريت**" في لُطْف :

– هل تحبين أن تُصَلِّي معي يا "**جان**" ؟

فأجابتْ الفتاة :

– إذا راق لك ذلك .

ومن ثم جثتْ الفتاتان جنبا إلى جنب، ولكنهما لم تكادا تشرعان في صلاتهما حتى دوَّتْ طرقات على الباب . وإذا بالخادمة تقول وهي تدْفع إلى الآنسة "**روكفيار**" ببضع رسائل :

– البريد يا آنسة .

وهنا قالت "**مرجريت**" لصديقتها :

– أتأذنين لي؟ إن اليوم هو الموعد الذي اعتدْتُ أن أتلقى فيه خطابات "**هوبير**" . آه! ها هو ذا خطاب منه . . لقد كنتُ أرتقبه!

وبيد مرتجفة فضَّتْ غلاف الخطاب الوارد من "السودان" . وهكذا اشترك الضابط الشاب في

مأساة الأسرة من وراء حاجز الموت.. وما أقلّ الأمور التي تهزُّ المشاعر قدْر ما يهزُّها أدلة الود من أولئك الذين لم يعد لهم وجود! وأفلت من "**مرجريت**" ذلك التجلُّد الذي كان يُبْديها– حتى ذاك الوقت– في مظهر من الهدوء والسكينة، فأرسلتْ صرخة مفْعمة بالأمل، وهي تَتْلُو الخطاب. ولاذت "**جان**" بالصَّمْت وقد تغلَّب عليها الارتباك، فلم تجدْ ما تُواسيها به. ولكن "**مرجريت**" ما لبثتْ أن تمالكَتْ جأشها من تلقاء نفسها، فما كانت تلك ساعة البكاء أو الاسْتسْلام للأحزان.. ألم يرسُمْ لها أبوها خير مَسْلَك يُحْتَذَى؟

وتَمْتمت "**مرجريت**":

– "**هوبير**"!

وبَدا عليها بُرْهة أنها كانت تفكر فيما يجب أن تفعل، ثم هتفتْ:

– يجب.. يجب أن أذهب إلى دار القضاء في الحال.

فسألتها "**جان**":

– ولماذا؟

وكان الجواب:

– آه! لأن "**هوبير**" كان هو الآخر يُفَكّر فينا!

وحمْلقتْ فيها "**جان**" مذهولة، وغمغمتْ:

– "**هوبير**"؟

– أجل، كان يعرف أنه مُوشك على الموت، وقد حاول في بداية الخطاب أن يموِّه علينا، وأن يُدْخل علينا السرور. ثم.. ثم كتب.. إليك ما كتب. يا إلهي! إن عينيَّ لم تعودا تبْصران.. إليك: "ومع أنني مضطر إلى البقاء هنا، دائما، إلا أنني سأجود بحياتي ضحية من أجل اسمنا، ومن أجل سلامة "**موريس**" ونجاته"..

ومن ثمّ ترين أنني مضطرة للذهاب إلى دار القضاء..

وانْفجرت "**جان**" باكية، وكان التحمُّس قد بلغ بـ"**مرجريت**" مداه، فقالتْ وهي ترتدي قبعتها وقناعها:

– إنني واثقة بأن أبي في حاجة إلى هذا الخطاب؛ ومن ثمَّ لا أملك أن أُحْجم عن الذهاب!

لقد كان من خصائص الأسرة أن ثمة رباطا غامضا يربط– عبْر الزمان والمكان– بين أمْواتها وأحْيائها.. وقالتْ "**جان**"– في إصْرار– بدورها:

– سأصحبك!

فهتفتْ "**مرجريت**":

– أجل، تعاليْ! سأزداد شجاعة في صحبتك!

واندفعتْ الفتاتان إلى الخارج، واجتازتا موقع القصر الذي كانت واجهته القاتمة تتدفَّأ تحت شمس الشتاء، وسَلَكتا دروبا تساعد على تقصير المسافة. حتى إذا اجْتازتا ساحة السوق أشرفَتا

على دار القضاء في دقائق قلائل. فسألتْ "**مرجريت**" حارس الباب في أدب:

– أين تُعْقَد الجلْسة يا سيدي؟

فأجاب:

– هناك يا سيدتي، في الطابق الأسفل. ولكن القاعة مكتظَّة، ولن تستطيعا الدخول.

فقاطعته "جان ساسيناي" قائلة:

– بل لابد لنا من الدخول! إن معنا خطابا.. مُسْتندا مهما يجب أن نسلمه لمحامي المتهم.

– مستحيل يا سيدتي، فقد بدأت المرافعة، والوقت جد متأخر، ولكن، من تكونان؟

فرفعت أخت "**موريس**" النِّقاب قائلة:

– الآنسة "**روكفيار**".

وإذ ذاك قال الحارس:

– آه، لا بأس.. اتّبعاني!

كان الاسم قد أحْدث في نفسه مفعولا عجيبا، فقادهما إلى الباب المخصّص للشهود، وقال:

– ما عليك سوى أن تفتحي الباب يا آنسة، فتجدي مقاعد المحامين أمامك.. إلى اليسار قليلا. وبعد ذلك، اخْرُجي من الباب عينه ما لم تجدي مكانا خاليا لتجلسي فيه!

ولما كان الحارس في خوف من تصرُّفه فقد أردف قائلا وهو يترك الفتاتين:

– أرجو– بوجه خاص– ألا تذكرا أني أنا الذي قُدْتكما إلى هنا.

وكانت "**مرجريت**" في المقدمة، فوضعتْ يدها على مقبض الباب. وسمعتْ حديثا في القاعة. ولكنها لم تستْبن صوت أبيها.. كان مصير "**موريس**"، ومصير آل "**روكفيار**" يُقَرَّران معا في تلك الساعة. خلف ذاك الباب! ولكنها كانت تحمِل التميمة العظمى.. من لدن "**هوبير**"!

٨ - صوت الأموات

ودخلت الفتاتان. وكانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد الثانية، وقد أَوْشك الأستاذ "**بورتيريو**" أن يَفْرغ من مرافعته المسمومة المهينة، ليترك الجمهور–الذي ضاقت به القاعة والردهة، واختلط حابله بنابله– كي يلْتهم كل فرد منه نصيبه من الأكلة الساخنة التي قدَّمها إليهم المحامي المحنك القاسي، والتي صنعها من قلب آل "**روكفيار**" النابض.. وشُوهِدت الفتاتان تتمشيان على وَجَل، بعد أن اجْتَازتا الباب، فقال الموثِّق "**كولانج**":

– إنهما قادمتان للبحث عن زوجين!

وكان الموثِّق إذ ذاك يشرح– مع الأستاذ "**باييه**"– ما كان يجري في الجلسة لبضع سيدات من الطبقة الراقية، وقد خُيِّل إليه، إذ قال ما قال أنه يتظرّف.. وصاحت إحدى هؤلاء السيدات، وهي تُبْدي اشمئزازا:

- انظر إلى هذه الوقحَة!

ذلك أن "**جان**" استَهانتْ باحتقار البلدة كلها- بينما كانت "**مرجريت**" تَسْعَى إلى أبيها لتسلمة خطاب "**هوبير**" - فاسْتَدارتْ في جُرأة وهدوء، بل في زهو نحو "**موريس روكفيار**" الذي كان يجلس في مقعد العار، وأومأتْ إليه بيدها وقد ارْتَسَمت على فمها ابتسامة عريضة!

وكُوفئت على جُرْأتها في الحال؛ إذ رأت إشراقة العرفان بالجميل تسْطع على وجه المتهم.. ذلك الوجه الذي أصابه الضُمور والتّغَضّن، وكأنما كان يتقلّص في محاولته أن يظلّ جامدا تحت وابل السباب والتشهير. وسرعان ما أثار هذا الحادث تعليقات الحضور جميعا. ولما كانت "**مرجريت**" مُطَأطئة الرأس فإنها لم تلْق بالا إلى شيء مما حدث، وكانت هي الأخرى قد حيَّت أخاها، ولكنها كانت أكثر تحفُّظا من زميلتها. ثم همستْ في أذن هذه:

- فلننْصرف!

فأجابتها "**جان**" وقد تملّكتها الرغبة في حضور المناقشات:

- أوه! لا سأمكث!

وأومأ لهما السيد "**روكفيار**" - بحركة سريعة- إلى مكانين خاليين في مقاعد الشهود، كي تَجلسا. وكانت الشمس تنفذ خلال النَّوافذ الزجاجية، ولكنها كانت بعيدة عن مقاعد المحلّفين، فتركتهم في الظلام لتُلْقي ضوءا على مقاعد القضاة، والمحامي العام والمحامين والمتهم بوجه خاص، وكأنها تُبرز مشْهدا يُعْرض في مسرح. وهكذا ظهر الأستاذ "**بورتيريو**" وهو يهتزّ ويكرّر اتهاماته، مختتما مرافعته بمَلَخَّص مُركَّز لحججه، وهو يُضْفي لهجة التأكيد تارة على قائمة من القرائن أخذ يُكدس بعضها فوق بعض ويُفسِّرُ تارة أخرى امتناع المتهم عن ذكر اسم السيدة "**فرازن**" وسداد مبلغ المائة ألف فرنك بالكامل إلى السيد "**فرازن**"، على أنها اعترافات لا تقبل الدَّحْض. ثم انتهى إلى أن طالب- بعنف- بصدور حُكْم صارم رادع على هذا الشاب الذي احترف الحب النَّفْعِي ولم يتورع عن أن يسْلب - مع شرف المرأة - خزانة الزوج!

ثم جلس المحامي وقد أثارتْ مرافعته المسْهَبة- التي ألقاها مُبَالغا في اصطناع الاشمئزاز والغضب- همسات غامضة لا تُحْصَى، تشبه وسوسة الموج.. همسات تتناقل من شفاه إلى شفاه دون أن يُعْرَف مصدرُها. كانت المرافعة كوابل من السهام المسمومة تُصوَّب تباعا، وفي غير هَوادة، وفي اتجاه واحد.. بل من الممكن أن يُقَال: إن المحامي كان يُصوِّب سهامه إلى الأب، وهو يتظاهر بتسديدها إلى الابن.. كان يصوبها إلى الأب- الذي أجبره الشعور بالعار على ردّ المبلغ- ويهْدف من وراء تصويبها إلى أن ينال من الأسرة التي كانت تتمرّغ- مع ابنها المذنب- في الوَحْل.. كان أقسى مما ينْبغي على فريسته، وأثبت أنه خصْم عنيد لا يتورع عن أن يدوس جثث خصومه بقدميه! والواقع أن الموثّق أحسن اختيار المحامي الذي يتحدث باسمه، فما كان يتصور أن يتدفّق كل هذا السم وهذه المرارة من فم واحد.. ولقد اضْطُرّ السيد "**روكفيار**" إلى

أن يلتفت إلى ابنه وزوج ابنته- أكثر من مرة- ليُهَدّئ ثائرتهما، ضاربا بنفسه المثل في الهدوء وضبط النفس أثناء العاصفة.

وقال رئيس محكمة الجنايات:

- الكلمة الآن للمحامي العام.

وكان صوته حزينا، وكأنما أراد أن يقول:

- ما الدّاعي إلى محام ثان للاتهام؟

ودفع الفضول المدّعي العام- السيد "**فاليروا**" الذي كان يجلس وراء المحامي العام- إلى أن يميل إلى الأمام ليُسرّ ببضع كلمات إلى زميله. ولكن هذا أبدى ما ينمُّ عن رغبته في استبعاد رأي لا داعي له، واكْتفى بأن ذكر أنه يَعْتَمد على تقدير المحلفين في قضية رُفعت بناء على شكوى المدّعي بالحق المدني، وسبق للقضاء أن أصدر فيها حكْما غيابيا. فما لبث الرئيس أنْ صاح في لهجة قوية:

- الكلمة للدفاع!

وكأنه يُبْدي اغتباطه لإعفائه من الإصْغاء إلى اتهام آخر. وهنا سأل الأستاذ "**هاميل**" زميله "**روكفيار**"- إذ كان يجلس إلى جواره:

- أمستعد أنت؟

فهتف السيد "**روكفيار**":

- بلا شك. ولماذا؟

- تكلّمْ أنت أولا، وإذا دعت الضرورة فسأحل محلك!

وأدرك السيد "**روكفيار**" أن النقيب الشيخ كان ما يزال يتارْجح تحت وطْأة تقاليده العتيقة التي لا تُسوّغ له الدفاع في أمثال هذه القضايا، ولكنه ادَّخر جُهوده ليبذلها إذا ما تعطّل الدفاع بتأثير الانفعال والضّعْف والعجز! على أنه وافق على اقتراح زميله قائلا:

- حسنا!

وفي خلال هذا الحوار المتبادل هَمْسًا بين الشيخين أخذت الأحاديث الخاصة بين أفراد الجمهور تزداد شيئا فشيئا، هنا وهناك، فتشيع في جَوِّ المكان كما يَشيعُ الغبار بعد مرور موكب ما. قال "**كولانج**"- الموثّق الذي كان من أنصار السيد "**فرازن**"- معلّقًا على حملات محامي هذا الأخير:

- لن يبْرأ آل "**روكفيار**" أبداً من هذه الجراح!

فعارضه السيد "**بابيه**"- الذي كان حاضر الدُّعابة دائما:

- أيه! أيه.. انتظر رد الأب، فلن تلْبث أن ترثي للأستاذ "**بورتيريو**"!

وعقّب واحد من عامة الشعب- سمع هذا الحديث، وكان من المتردِّدين على قاعة محكمة الجنايات- فقال لجاره في تحمُّس:

– أجل.. إن الشيخ لشديد المراس.

وكان السيد "**بابيه**" في تلك الأثناء يضحك ويقول في إصرار:

– سترى أنه يعرف كيف يَعَضُّ، وأنه حاد الأنياب.

وتمتمت إحدى السيدات في إشفاق:

– لشدّ ما يبدو مُتْعبا.

فقال السيد "**كولانج**" وهو يُسَوِّي هندامه الدقيق:

– تريدين أن تقولي: إنه يبدو مُنْهارا.. إن شيخين لا يعادلان شابا!

وأضاف بلهجته المبتذلة:

– لاسيما عند النساء!

ثم أشار خلْسة نحو المحاميَيْن الشيخين وهما يتبادلان ملاحظاتهما، وقد جلَسا غير بعيدين عن السيد "**باستار**"، الذي غاصتْ أصابعه في لحيته، وهو يتأهَّب متربِّصا للدفاع، أملا منه في أن يشهد "**روكفيار**" وهو يتداعى!

ورفع السيد "**روكفيار**" قُلُنْسوتَه عن رأسه، ثم نهض.. ونظر على التوالي، وفي غير عَجَلة إلى ابنته وابنه، فتزود مما كان يبدو عليهما من أمل وثقة به.. وسَرْعان ما سيطر الصمت: عميقا، مُثْقلا بالانتظار الذي حبَس على الحضور أنفاسهم وخفقات قلوبهم.. كان وقوف هذا الرجل ذي الشعر الأشيب، بل الأبيض تقريبا.. كان وقوف هذا الشيخ الذي تمثَّلت في شخصه سُلالة طويلة من الأجيال الشريفة، وصفحات حافلة بالخدمات التي ظلّت تُبْذل في الحياة خلال نيف وستين عاما، عن مواهب وإقدام.. كان مُجرد وقوفه احتجاجا بليغا على السِّباب والتشهير اللذين خُيِّل للبعض– أثناء مرافعة المدَّعي المدني الطويلة– أنهما قادران على النيل من أسرته: ألم يذكر خصمه أن ثمن المزرعة دُفع وفاء لمال لم يُنْفَق جميعه بوساطة السارق؟ إن جميع المحامين من أمثال "**باستار**"– في العالم بأسره– ليعجزون عن سوْق اعتراضهم بمثل هذا الوضوح الذي ساقه "**روكفيار**"– ممثلا في مُجرّد وقوفه– قبل أن يتكلّم!

ودقّت ساعة القاعة مُؤْذنة بالثالثة، فشَدّ المحامي قامته– في بطء– منْتصبا، ولاح رأسه مرفوعا وسط هالة من ضوء الشمس التي كانتْ قد بلغتْ من الشّحوب درجة لا تجعل المرء يضيق بأشعتها. وتجلّى الجبين العريض، والقسمات الجميلة الحادة التي زادتها السن حدَّة وإرْهافا، والتي ظلّت مُحْتفظة بشَمَمها وعزّتها. وأضفى عليه شارباه– بشعرهما القصير الكثيف– منظر المناضل، والزعيم الذي لا يتطلّع إليه امرؤ إلا واستمدّ منه شعورا بالقوة وحب الحياة! أما اللهب الذي كان يتّقد في أغوار عينيه عادة، والذي كان ينبعث منهما حادًّا قاهرا، فقد انقلب هادئا صافيا، يُوحي بالجلال بدلا من الرغبة في الانتصار!

وقالت السيدة التي كان السيد "**كولانج**" يغازلها:

– تقول: إنه مُنْهار.. ألا انظر إليه!

فَعقَّب السيد "**بابيه**" قائلا:

– إنني لم أعد أعرفه لفَرْط سلطانه!

أما "**مرجريت**" والسيد "**هاميل**" فإن يقظتهما والقلق المستحوذ عليهما كشفا لأعينهما الحماسة الخارقة التي تملكتْ "**روكفيار**" منذ نزهته في المزرعة!

وبدأ الأب المحامي يتكلّم بصوْت خافت– بعض الشيء– مما أوحى إلى السيد "**باستار**" بخاطر جعله يقول في رضا:

– لقد فقد صوته المجلجل!

ولكن الصّوت وضح فجأة، وكأنه دويُّ نفير شقَّ الحجب، لينادي الأموات على سفوح التلّ الثلجية– التي كانت مُسْتلقية تحت الظلام بالأمس– فَيحْشُد من أطيافهم جيشا يشدُّ أَزْره.. وأخذ صوت الشيخ يُدَوِّي منسابا وسط الصمت الحي، الجاثم كالغيوم المتجمعة، وكأنه قارب يشقّ البحر. وشرع يقول:

– إنه لابد من معرفة المتهم لكي يتسنَّى الحكم عليه.. وفي سبيل معرفته لابد من تعقّب الأصول التي نبت منها؛ فإن مصير الإنسان يختلف تبعا للبقعة التي نبت عليها، وللأصل الذي انحدر منه، ولقَدر مكتوب لابد لعزيمته من أن تستمدَّ منه القوة والهدف، فأنتم يا من تنتمون إلى سلالة أناس أشراف، ويا من أسَّسْتم أسرات عريقة، يجب أنْ تنْصتوا إلى تاريخ أسْرة عريقة قبل أن تنطقوا بحكمكم!

وما كان في وسع أولئك الريفيين القادمين.. من السَّهْل والجبل، والذين تألفتْ منهم هيئة المحلفين.. ما كان في وسْعهم– بحكم طبيعتهم وتفكيرهم– أن يظلوا بمنأى عن التأثر بهذه القصة الإنسانية الواقعية التي هزَّت حقيقتها عقولهم هزا عنيفا.. وهكذا انطلق السيد "**روكفيار**" يرْوي تاريخ أسرته الطويل: فلقد غرس الجد الأول– حين أرسى أول حجر في أساس البيت العتيق– جذور شجرة حياته، في الأرض التي صارت مَوْطنا لأسرته. وراح الشيخ يَسْرد تاريخ جهود الأجيال المتعاقبة، والعرق الذي سكب على الأرض المستصلحة، والحوادث التي تعرضت لها والتي تسببت في تلف المحصول تحت وطأة الصقيع، والقناعة التي كانت تتقبل القليل في رضا، والاقتصاد الذي كان يُعبِّد طريقا للمستقبل على حساب المتعة الشخصية والذي يُعْتَبرُ مثالا للتجرد من المصلحة الخاصة وينْوي على ثقة بالذرية المقبلة.. هكذا سارتْ الحال في المزرعة الجميلة التي كانت كرومها وغاباتها وحقولها ومراعيها تنْبتُ محصولا لا يتمثَّل فيه الدأب والاقتصاد والصبر على المشاق التي ناءت بها سُلالة بأكملها كانت تسير في الطريق المستقيم كالدّوحة الباسقة.. إنّ الأرض المزروعة تتخذ شكل الوجه البشري، فنحن حين نتطلّع إلى ممتلكاتنا إنما نتأمل وجوه أجدادنا!

ومع كل هذا فما الثمار التي أجْداها العمل الذي اشترك في أدائه آل "**روكفيار**"؟! إن الأرض التي كانوا يمتلكونها، باتتْ اليوم ملكا لخَصْمهم الذي استْولى عليها بلا مقابل. أفكان

كـد آل "**روكـفـيـار**" وكفاحهم زهاء خمسمائة عام من أجل أن يقدِّمُوها هدية؟ لا، إنما هم افتدوا بالميراث- الذي كونوه بالجلد والعناء- آخر سليل من ذريتهم. فمن الخاسر، ومن السارق؟ إن السيد "**فـرازن**"- في مقابل مائة ألف فرنك اختفت- تقبّلَ أرضا تساوي ضعف هذا المبلغ، فمن الذي أثرى؟ ومن الذي فقد ثروته؟ فباسم الأموات الذين دفعوا الفدية يجب أن يُبرأ المتهم!

ولكن أليست الأسرة قوة مادية ضخمة تتجلّى- في ظاهرها- في توارث الأرض، وتُمكن بصلابتها وتماسكها من المساهمة في تسْديد ديون جزء منها بثمرة أعمال الجزء الآخر؟ ثم أليستْ هي كذلك شيئا آخر أقل مادية وأكثر قداسة؟ أليستْ سلسلة متينة من التقاليد، ومن الشّرف المتوارث، ومن الشّجاعة والقناعة؟ فما جدوى تناقُل الحياة من جيل إلى جيل إذا لم يكنْ من أجل إحاطة هذه الحياة بإطار يليق بها، يتمثَّل في مؤازرة الماضي، وفي تهْيئة مستقبل مُشيَّد على أسس وطيدة؟ ذلك لأن تناقل الحياة تمكين للخلود!

ثم أخذ يَرْوي الأعمال العامة، وما كان لآل "**روكفيار**" من وجود نافع كان يرقى أحيانا في نفْعه إلى المجد.. فذاك كبير العشيرة: وافتْه منيته وهو في مقر عمله أثناء وباء تولّى إدارة المعركة ضده.. وذاك آخر أشرف- فيما بعد- على إدارة بلدة "**شامبيري**" أثناء فترة من القلاقل والاضطرابات، فأنقذ ماليتها من أخطار كانت مُحْدقة بها.. وهناك من كانوا منهم رؤساء أمناء لمجلس أعيان "**سافوا**"، ومن كانوا جنودا ماتوا وهم يقاتلون الأعداء في حروب طاحنة.. كانوا جميعا- سواء من لبسوا منهم أوشحة المناصب المدنية، أو من ارتدى الثياب العسكرية- يحملون نفس القلب الجريء الباسل الذي طالما خفَق بين جوانح الأجداد الأقدمين.. وكان "**هوبير**" آخر الجميع.. "**هوبير**" الذي لفظ أنفاسه في خدمة الوطن، وحيدا، بعيدا عن ذويه، في أرض عدوة ملتهبة، وقد عبّر عن رغبة الأسرة فيما كتبه، قائلا:

"إنني أجود بحياتي من أجْل شرف اسمنا، ومن أجْل خلاص أخي!".. فهل في وُسْع امرئٍ أن يرفض هذا القربان وينسى القرابين السالفة، التي تشهد بالفضيلة المتجددة في الأسرة عبْر القرون دون انقطاع؟ إن مثْلَها في ذلك مثل النيران، تطهِّر الحقول من الأعشاب اليابسة في الأمسيات!

وهكذا ألقى الشيخ في الميزان بفضائل الأسرة، فرجَّح الكفة. وراح جيش الأموات الذي هبط بالأمس من مزرعة البرج وانتشر في الوادي الصغير خلال القمة لينضم إلى زعيمه الذي كان واقفا إلى جوار شجرة البلوط على هضبة "**سان كاسان**".

راح هذا الجيش يمرُّ أمامه وكأنه في عرْض عسكري!

وتحوّل السيد "**روكفيار**" يُضيف إلى فضائل الأموات، فضائل الأحياء! فما كانت الساعة ساعة تواضُع وإخفاء للحياة الخاصة: ففي مستشفى "**هانوي**" كانت "**فيليسي**" تُثْبت جدارة لا تَقلُّ عن جدارة أختيها اللتين ارتضتا الفقر لتُمْحيا عن أخيهما مُجرّد شُبْهة الاختلاس.. إذ

إن المبلغ الذي دفع إلى السيد "**فرازن**" لم يكن- وما كان من الممكن أن يكون في نظر الأسرة والقضاة- سدادا لمبلغ أو اعترافا بجريمة، وإنما هو دحْض قاطع لأي اشتراك في الذنب، ولو عن جهل أو غير قصد.. واعتذر المحامي الأب عن إسهابه في تعداد هذه الخدمات الكثيرة، فقد كان في تعدادها تانيب لخصومه على جُحودهم.. ففي الجانب الآخر من القاعة- جانب الخصوم- أناس لم ينسوا هذه الخدمات فحسب بل إنهم لم يتورعوا عن اتخاذها ذريعة للتحامل على المتَّهَم؛ إذ كانوا يريدون أن يتسللوا إلى الماضي عن طريق المتهم المزعوم، وأن يتخذوه معْولا، يحطِّمون به أمجاد هذا الماضي العريق، وأبوا في تعنُّت ظالم أنْ يبقوا عليه ليكون حمى للمتهم.. على أن فضائل أية سلالة تَظلّ تحميها إلى اليوم الذي تتكالب فيه المثالب فتجرفُها، وبذلك تكون السلالة قد اختارتْ سقوطها بنفسها.. ولكن من ذا الذي يَجْرُؤ على الزَّعْم بان سيل المثالب قد جَرف آل "**روكفيار**"؟ أجل إن الأموات قد قدَّموا لآخر سلالة "**روكفيار**" ضمانا أدبيا، كما قدَّموا له ضمانا ماديا تمثَّل في التّضحية بالمزرعة.. وإذن، فلن يحكم قضاته بإدانته- ولو كان مذْنبا- دون أن يتجنّوا على العدالة!

ولكن كيف يمكن أن يكون مذْنبا؟ وكيف استطاع سليل أمثال هؤلاء الأشراف أن يتحوّل في استسْلام إلى مجرم وأية أدلة قاطعة تُقَدَّم على جرمه؟ أي وزن لهذه القرائن الهزيلة- التي ساقتها المصادفات، وجسَّمها تأويل الظروف- أمام قرائن أدبية ومعنوية تنساب من بيئته العائلية في تدفّق مياه السيل؟! أهي مفاتيح المكتب؟ لقد تداولتها يدُ بعد يد.. أهي الأرقام السِّرية؟ وكيف بحث عنها المتهم، وعثُر عليها، وغيرها.. ومتى سجَّلها الكاتب "فيليبو" في مُفكِّرَته؟! أم هي الحاجة إلى المال؟ لقد دفع المتهم جميع النفقات الرئيسية والثانوية التي تكبَّدَها في رحلته إما من المال الذي حمله معه والذي أثبتَ التحقيق هنا حسابه، وإما من المال الذي تلقَّاه في "أورتا". وقد شهدت بذلك أوراق حساب الفندق، التي تسنَّى الحصول عليها.. فما الذي فعله بالمائة ألف فرنك إذن مادام قد دفع جميع نفقاته من المبالغ التي أمدَّتْه بها أسرته؟ وإذا كان قد أوْدَعها مكانا ما كما أُشير في معرض التلميح، فلماذا عاد وسلَّم نفسه لِيُسْجَن، بمجرد أن علم بالحكم الذي صدر عليه غيابيا؟

لم يبق شيء من أدلة الاتهام قائما، سوى شَهْوة انتقام لم تقو على أن تقاوم شهْوة الكسب الاستغلالي.. إنها لقضية فريدة في نوعها، يَسْتَحْوذ فيها المسروق على مال سارقه المزعوم.. وختم السيد "**روكفيار**" مرافعته بهذه الكلمات:

- لقد انتهت مرافعتي أيها السادة المحلفون. فباسم كل موتانا الذين يتألف من تعاقب ذريتهم شرفنا الحي على الدوام.. وباسم الأرض- التي اكتسبت في بطء، والتي فَلَحتْها جهود الأجيال المتعاقبة، والتي تخلَّيْنا اليوم عنها لتكون قربانا لتدعيم هذا الشرف! أسالكم أن تردوا إليّ ابني.. أعيدوه لي، لا بدافع من الشَّفقة، وإنما بدافع من العدالة.. ولا كمنْحة، وإنما كحق تقررونه بالإجماع. إن عشيرتي كلها، وأنا معهم، لبراءته لضامنون!

وجلس.. ولم يكن قد قضى في الكلام أكثر من ساعة. وما إن تلاشت أنغام صوته العذب الهادئ، الذي ظلّ محتفظا طيلة الوقت بقوته حتى خَيَّم على القاعة صمت دام بضع لحظات، له ما لصمت الكنيسة من وقار قُدْسي.. فبدلا من فورات الغضب المريرة التي كان الجمهور يتوقع سماعها من المحامي الشيخ الذي عرف بحماسته الدافقة، ردا على الهجمات المسمومة التي شنّها السيد "**بورتيريو**".. وبدلا من إثارة غبار الفضيحة، وإلقاء التهم الملصقة بالعشيق على العشيقة.. بدلا من هذا وذاك سَمع الجمهور دفاعا كريما مترفعًا، تسامى على السِّبَاب اعتدادا منه بقوته، وسلك خطوطا بسيطة مستقيمة أثارت إعجابا كذلك الذي تثيره التماثيل الجامدة، الرفيعة، التي تُطَهِّر الرغبات من دَنَسها وتضطر النفوس إلى أن تخْشع أمامها.. كل ذلك، دون أي ذكر لاسم السيدة "**فرازن**"!

وفجأة انبعثتْ صيحة مدويّة:

– عاش آل "**روكفيار**".

وكانت "**لا فوشوا**" هي التي بعثتْ هذه الصيحة من أعماق قلبها. وإذا بالجمهور المكبوت المأخوذ يضجُّ بالتصفيق.. وبينما كان الرئيس يُهدئ هذه الجلبة– التي اضطرت السيد "**باستار**" إلى أن يهرب من القاعة في ضيق– انحنى الأستاذ "**فاليروا**" من جديد على السيد "**بابيه**"– المحامي العام– الذي طلب الكلمة بعد أن تنحى السيد "**هاميل**" عن الكلام، مُعْتَذرا لعدم استعماله حق التعقيب بعد أن تنحى عن حق استهلال الدفاع وما لبث السيد "**بابيه**" أن قال للمحلفين:

– لقد سمعت مثلكم مرافعة الأستاذ "**روكفيار**".. لا، ليس المذنب هذا الشاب الذي سَتُصْدِرُون حكمكم في أمره بعد دقائق.. بل إن المذنب غير موجود هنا. وما دام المتهم قد أُوتي من الكرم ما جعله ينأى عن الإشارة إليه فإنني بدوري أتجنَّب الإشارة إليه كذلك، ولكنني أستنكر التَّدبير البارع الذي انتزع به الاتهام العطف من قلوبنا متخذا من مصائبه الشخصية سبيلا لإنماء ثروته. فبادروا إلى تبرئة "**موريس روكفيار**"، وردُّوه إلى أبيه الذي يتمثل فيه شرف مهنتنا. وإذا كان المتهم قد ارتكب في حياته الخاصة ما يؤاخذ عليه فمن الواجب ألا يطول حبسه بتهمة سوء استغلال الثقة!

وبدأ النهار في الانصرام، مُسَلِّما القاعة إلى ظلمة المساء المتكاثفة. وانْسحب المحلّفون ليتشاوروا فيما بينهم، وسرعان ما عادوا ليعلنوا إجماعهم على البراءة. وإذ ذاك صاحت "**جان ساسيناي**" بصوت جهير:

– حسنا!

وتمتمت "**مرجريت**" في هدوء:

– أبي.. لسوف تهْنأ أمي!

وانصرف الجمهور وهو يتبادل التعليقات. أما السيد "**لاتاش**"– الذي كان يتكلّم بتحمُّس

مع فريق من الناس– فقد راح يُهز رأسه في انفعال صارم، وهو يقول:

– إنها صفْعة للسيد "**فرازن**". وعليه– بعد التأنيب الذي وجهه إليه النائب العام– أن يُصَفِّي أعمال مكتبه، ويغادر البلدة.

فقال السيد "**باييه**":

– لسوف يبيع المزرعة ثانية.

أما السيدة التي رافقها الموثق "**كولانج**"، فقد كانت تبدي السرور استثارة لمرافقها، وقالت تعابثه:

– ولسوف تكون ابنة "**ساسيناي**" هي المشْترية، فإن لديها صداقا ضخما. أتراك لاحظت تلك الابتسامات التي وجهتها إلى الشاب المعتقل.. إلى المنتصر؟ لسوف تتزوج منه!

فعقب السيد "**كولانج**" على قولها مكتئبا:

– أجل، هذا ما سوف يحدث، لقد كان الحظ دائما حليف آل "**روكفيار**"!

٩- قوة الحياة

عَجَّلَتْ الرغبة الصادقة– التي أبداها رئيس محكمة الجنايات– بإجراءات إطلاق سراح "**موريس**"، وبينما كان الجمهور الذي غادر القاعة يتجمَّع أمام دار القضاء ارْتقَابا لخروج المتهم ومحاميه؛ ليحييهما في حرارة بالغة– أذكاها تبكيت الضَّمير الذي ثار مُتَأَخِّرا– كان السيد "**روكفيار**" ينتظر ابنه في البهْو الداخلي وحيدا؛ إذ عهد إلى "**شارل مارسيلاز**" باصطحاب السيد "**هاميل**"، وما إن انتهت المعركة حتى أحسّ الشيخ بوطأة التعب والإعياء، واسْتغْرق في تأملاته. وإذا بِصَوْت يناديه في استحياء:

– أبت!

فهتف:

– أهذا أنت؟

وبدلا من أن يرتميَ كل منهما في أحضان الآخر ظلاً واقفين بلا حَراك، وكأنما سُمِّرا في موقفيهما.. كانت أول بادرةٍ تصْدُر من أحدهما– دون روية– في مثل هذه الظروف، كافية لأن تخْلُق النفور والعراقيل.. وقرأ الأب على وجه ابنه أمارات الإعجاب والعرفان وحنان البنُوَّة.. وقرأ الابنُ على وجه أبيه علامات الحب والطِّيبة، ودلائل الألم المبرِّح النّاجم عن الإعياء والشيخوخة. وسادهما صمْتٌ أليم لا قبَل لهما باحْتماله.. وكانت الهتافات تتعالى مُدوِية في الخارج، وفجاة، قال السيد "**روكفيار**":

– تعال!

واقْتاد "**موريس**" إلى حديقة عامة خلف المبنى كانت إذ ذاك خالية من الناس– لحسن الحظ– ثم اجتازا القنْطرة الحديدية القائمة على مجرى "**الليبس**"، والتي كان الماء العكر يجري

تحتها.. حتى بلغَا المقابر دون أن يتبادلا كلمة واحدة!

وكانت مدافن "**شامبيري**" تقوم في شرق البلدة، عند مدخل السهل الفسيح الممتد إلى بحيرة "**بورجيه**"، يطلّ عليها تلّ "**ليمنك**" الصخري يعْقُبُه جبل "**نيفوليه**" ذو الطبقات المتدرجة. وكان الظلام قد خيم على الحقول، وأخذ يمتد إلى الهضاب شيئا فشيئا. ولكن ألسنة شمس الغروب المحْتقنة كانت تُحيط بالجبل، الذي دبَّتْ الحياة في لونه الأبيض وكأنما سرتْ فيه دماء.. كان لأمسيات الشتاء الباردة، الهادئة- التي تبدو وكأنها صيغَتْ من رخام - جمال ذو نقاء قُدْسي.. وتبيّن "**موريس**"- في مواجهته- أعمدة هضبة "**ليمنك**"، التي اجْتَاح الحب قلبه فوقها.. وتلكَّأ شعاع أخير ليبْدي معالم الهضبة، ثم لاح كأنما كانت الهضبة تأوي إلى المعبد الصغير وتَغيب فيه، فَهمس لنفسه:

- ما أبعد العهد بالذكرى!

واجْتَاز الأب وابنه أشجار الصبّار ذات الفروع الصلبة كأنها الحراب، وقد كساها الصقيع، وبدتْ مُهيبة كأنها حُرّاس يسهرون على المنطقة، وكان الدرب المزدوج المؤدي إلى المدافن الخاصة يمتد خلف قبور الفقراء التي كانت تُشير إليها مرتفعات من الأرض لم تكدْ تبْدو تحت الجليد.. وتمتم "**موريس**" أخيرا، وهو يفكّر في أمه:

- كنتُ أدرك يا أبي إلى أين تقْصد.

فقال السيد "**روكفيار**" مؤمّنا على قوله:

- إننا نسعى إلى مقبرة الأسرة، لنشكر الأموات أنْ أنْقذوكَ!

فهتف الشاب:

- بل أنت الذي أنقذْتني يا أبي!

ولكن الشيخ قال:

- إنما كنت أتكلّم باسْمهم!

وما إن بلَغا مَدْخل المدافن حتى لمحا شبحا أسود جاثيا على حجر أمام حائط مَليء بالنقوش.

فهتف الشاب:

- ها هو ذا القبر يا أبي.. هناك إنسان ما.

فأجاب الأب:

- إنها "**مرجريت**".. لقد سبقتْنا.

وتناهى إلى أذني الفتاة صوت تَحطُّم الجليد تحت أقدامهما، فالتفتتْ. وما إن تبيّنَتْهما حتى تضرّج وجهها، ووقفتْ جامدة وكأنها خَشِيت أن تعكّر عليهما التئام شمْلهما. وما لبثتْ أن قالتْ:

- جئتُ أزور أمي!

فقال الأب مترفقا:

– امكثي!

وكان المساء قد أَطْبق على حواف جبل "**نيفوليه**" فلم يعُدْ يبدو سوى الجليد المتراكم على طبقاته العليا. وأخذ النور ينْسحب في انسياب سهل كأنه جدول من ذهب أو أرجوان. وبعد إشراقة سريعة رائعة، صعَد الظلام المظفر عبْر الطبقة الأخيرة من الجبل. واحتلّ القمة، وكان في صدر المدفن حائط منقوش، حمَل لقبا واحدا، هو لقب الأسرة، وتحته أسماء عديدة وكثير من التواريخ، وقد حفَّ به سعف ناضر، ذو فروع خضراء، انْحنى متقاربا بعضه من بعض كتاج من تيجان الربيع!

وقال السيد "**روكفيار**"– الذي بدا وجهه في نَفْس ما كان عليه من صفاء في الجلسة:

– أنْصتْ.. ها هو ذا الليل، وها هي ذي ساحة الموتى! ومع ذلك فإنك لن تسمع في أيِّ مكان آخر على الأرض أقوالا عن الحياة أقوى مما تسمع هنا! تأمّلْ قبل أن يخَيِّم الظلام. ها هو ذا الأفق الذي يُفَضِّلُه قلبك، يحيط بك.. وها هي ذي أسرتك تهْجَع مستريحة!

وجثا "**موريس**".. وما إن تذكَّر تلك التي رحلتْ دون أن تودِّعَه، وذاك الذي قدَّم حياته قربانا من أجله حتى أَخْفَى وجهه في راحتيه. ولكن أباه لمسَ كتفه، وقال بصوْت حازم:

– إنني أصبحتُ شيخا يا بُنَي، ولسوف تخلفُني عما قريب، فَأَصْغ إليَّ في هذا اليوم الذي يدْعوني فيه الواجب أن أتحدث إليك: إن ما تراه هنا لهو الصورة الباقية.. وإنّ تمجيد الموتى لهو لبُّ مصيرنا الخالد. فما قيمة حياة امرئ ما، بل ما قيمة حياتي أنا إذا لم يخْلعْ عليها الماضي والمستقبل معناهما الحقيقي؟ لقد نسيتَ أنت هذا المعنى حين انقدتَ لأهوائك الشخصية، فما من مَصْلحة فردية يمكن أن تكونَ جميلة، وما من مَجْد إلا في خدمة المجموع، يجب أنْ يخدُم المرء أسرته، ووطنه، والفن، والعلم، والمثل الأعلى. ويالعار من لا يخْدُم سوى وطنه.. وأنت: لقد وجدتَ فينا سندكَ، ولكنكَ تبيَّنْت أيضا أن لا استقلال لكَ عنا.. إن شرف الإنسان وكرامته في قبوله لهذه التبعيَّة!

ولمح "**موريس**"– وهو ينْهض– الشفق الراحل عن "**كالفيردي ليمنك**"، فتمتم لنفسه في أسى:

– والحب؟

وكأنما قرأ أبوه ما كان يدور بخلده، فقال:

– ما أضأل الفارق الذي يفْصل أحيانا بين الرجل الشريف والرجل الخسيس. والحب هو الذي يُزيل هذا الفاصل بين الرّجلين، في حين أن الأسرة تعززه. ومع ذلك فلستُ أعيب الحب– حتى في هذه الساعة– لو أنك عرفت كيف تفهمه يا "**موريس**".

إنه العزَاء الذي يُواتينا برغم المحن.. هذا هو الحب فَصُنْه في فؤادك؛ لأنه ملْكُ لك.. ولسوف تجده في جلائل الأعمال، وفي الصمود للطبيعة، وفي خوض مصيرك دون خوف أو وَهَن.. وقبل أن تُحبّ امرأة فَكِّر في أمّك، فَكِّرْ في شقيقاتك، وفَكِّر في السعادة التي قد

تكون مدَّخرة لك، إذا ما رُزِقْت ابنة وعكَفْتُ على تربيتها.. لكم اغْتبطتُ أنا عند موْلدك- كما ابتهجْتُ عند مولد شَقيقك وشقيقاتك- فَعَملْت على حمَايتك بكل قُواي، وإني لأنذرك بأنك سَتَشْعر عند موتي كأن جدارا قد انهار، وتركك أمام الحياة وجها لوجه. وإذ ذاك سَتَفْهمني خيرا مما تَفْهمُني الآن!

وتمتم "**موريس**" وقد تهدَّجَتْ أنفاسُه لفرْط الانفعال:

- اغْفر لي يا أبتاه.. لسوف تَجدُني أهلا للانتماء إليك!

فلم يزد السيد "**روكفيار**" على أن قال ببساطة:

- يا بُنَي!

وما إن رأتهما "**مرجريت**"- وقد تأبّط كُلٌ منهما ذراع الآخر- حتى تذكرت الأمنية التي طالما ساورتْ أمها!

وفي السَّمَاء التي كساها الظلام، وفي اتجاه المزرعة بَزغَ أول نجوم المساء، متألِّقا، ورأى السيد "**روكفيار**"- وهو يضمّ إلى صدْره ابنه الضال الذي عاد إليه.. آخر أبنائه.. ابنه الوحيد- رأى في النجم بارقة أمل!

وفي المقبرة المُعتمة- التي جاءها ردا لزيارة موتاه له بالأمس- وعلى الرغم من شعوره بأن مَنيته هو الآخر باتتْ وشيكة فقد عزّز رب الأسرة ثقته بالحياة!

تمّت بعون الله

مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط).

تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 13-5329 بيروت – لبنان.

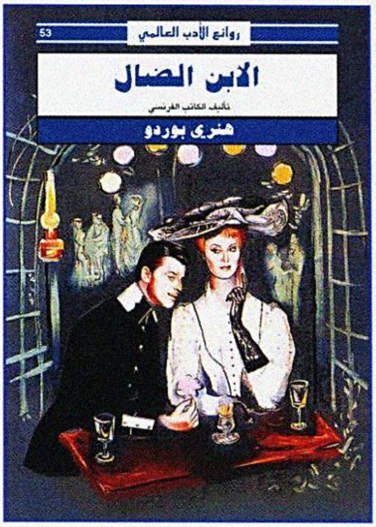
وهذه قائمة بأسماء ا لكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة أحور البريد.

ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوڤاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطئة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	ألكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دوستوفسكي
١٤	عاشقات في الخريف	ستيفان زفايج
١٥	ديكاميرون	جيوفاني بوكاشيو
١٦	إعترافات جان جاك روسو	جان جاك روسو
١٧	صافو	ألفونس دوديه
١٨	دم... وخمر	ليو تولستوي
١٩	الآلهة عطشى	أناتول فرانس
٢٠	مياه الربيع	إيفان ترجنيف

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
٢١	أنّا كارنينا	ليو تولستوي
٢٢	رسول القيصر	جول فيرن
٢٣	حذار من الشفقة	ستيفان زفايج
٢٤	ضحكة في الظلام	فلاديمير نابوكوف
٢٥	مرتفعات ويذرنج	إميلي برونتي
٢٦	الخطيئة الأولى	ألبرتو مورافيا
٢٧	جين إير	شارلوت برونتي
٢٨	الدكتور جيفاجو	بوريس باسترناك
٢٩	المسبحة	فلورنس باركلي
٣٠	رجال ونساء	مكسيم جوركي
٣١	حياة	جي دي موباسان
٣٢	ليالي بلزاك	أونوري دي بلزاك
٣٣	المقعد المسكون	جاستون ليرو
٣٤	الطريق إلى بئر سبع	إيثيل مانين
٣٥	غرام سوان	مارسيل بروست
٣٦	الظمأ... للحب	ميكا والتاري
٣٧	هل تحبين "برامس"؟	فرانسواز ساجان
٣٨	بيللا دونا	روبرت هيتشنز
٣٩	قصة مدينتين	تشارلس ديكنز
٤٠	قلوب ضالة	رابندرانات طاغور
٤١	رحلات جاليفر	جوناثان سويفت
٤٢	ماري ستيوارت	فردريك شيللر
٤٣	موبي ديك	هيرمان ميلفيل
٤٤	كبرياء وهوى	جين أوستن
٤٥	روبنسون كروزو	دانيال ديفو
٤٦	مغامرات "توم ساوير"	مارك توين
٤٧	ذات الثوب الأبيض	ويلكي كولنز
٤٨	فن الحياة	أندريه موروا
٤٩	قضية بليرو	ألفونس ألي



"هنري بوردو" (١٩٦٣-١٨٧٠)

كاتب رومانسي فرنسي حكى قصصا عاطفية كان إطارها "سافوي" مسقط رأسه.

ولد في "تونو لوبان" وهو مؤلف للعديد من الروايات المحلية والبورجوزاية، وساعدته طريقة تأليفها التحليلية على إدراجها في نمط الرواية التحليلية مثلما عرفها "بول بورجيه". وهذا بدوره ساعده على أن يتم اختياره عضوا بالأكاديمية الفرنسية في سنة ١٩١٩.

إن جزءا لا بأس به من رواياته المتمسكة بالتقاليد يقع داخل إطار إقليمه أو مسقط رأسه "سافوي". ونذكر على سبيل المثال: "مسقط الرأس " (١٩٠٠) و"الخوف من الحياة" (١٩٠٢)، و "العيون المفتوحة" (١٩٠٨)، و"الفستان والصوف" (١٩١٠) ،و"الثلج على الأقدام" (١٩١٢)، و"المنزل" (١٩١٣).

واصل "بوردو" عمله ككاتب رومانسي حتى نهاية حياته :(راهبة المذبح ١٩٢٤) ،و(القرميدة ١٩٣٠)،و(الشبح ١٩٣٢)و(ابنة السجين ١٩٥٤)،و(المصباح المقلوب ١٩٦١). وقد نشر أيضا مسرحية (طبيب الريف). وتجربتين أخريين: (النفوس العصرية ١٨٩٤)،و(الجدران الطيبة). وكتب مذاكرته في ثلاثة عشر مجلدا (قصة حياة ١٩٤٦-١٩٧١) التي ربما تمثل أفضل أعماله اليوم.

ISBN 9953-38-018-X
9 789953 380186